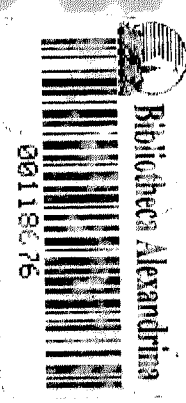
فلسفة مناهج البحث العلمى

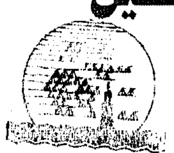
عقيل حسين عقيل



مكتبة مدبولي

فلسفة مناهج البحث العلمى

تأليف: عقيل حسين عقيل



الناشر
مكتبة مدبولى
١٩٩٩

المقدمة

تتغير الامم والشعوب بدرجة تقدمها، او تاخرها ماديا ومعنويا، فعند ما تتقدم تكون الحياة بالنسبة لها وقفة عز لاتتاخر عنها، فتسخر العلم من اجل المعرفة، وتعتز باستخدامها ادواته واساليبه المنهجية فى البحث الدؤوب، دون ان تنسى قيمها التى تكون شخصيتها وتحافظ على وحدتها، وعندما تتاخر عن ذلك، تتاخر، فتلتفت الى الماضى وكأنها ترتقبه مستقبلا، وهو لايأتى اليها، والزمن مستمر، مما يجعل الماضى بعيدا، والانتظار مملا، وهنا تكمن الحقيقة، ان الماضى لن يكون مسقبلا، مما يستوجب على المنتظرين اخذ العبر منه فى بناء مستقبل متطور، ويستمر التقدم بالمحافظة على اهمية الازمن، ومراعاة معطياتها، والمتغيرات الطارئة عليها، التى تستوعبها العلوم من اجل الامة عندما تنتبه الامة الى اهمية العلوم، فتكون للامة فلسفة وللعلوم شأن . ومن اجل ذلك نتقدم بمجهود متواضع فى مجال فلسفة مناهج البحث العلمى لعله يفيد الطلبة الجامعيين، وطلبة الدراسات العليا، ويساهم فى اثراء العلوم الاجتماعية والانسانية بصفة خاصة، والعلوم بشكل عام، ومن خلال ماتناولناه فى هذا الكتاب من مواضيع بالجدل، والنقد، والتحليل، والتفسير، لم يكن تمردا على اساليب البحث واستخداماته، بل تمردا بها من اجل الكشف عن بعض المغالطات المنهجية، حتى لايتقولب بحاثنا وفق نظرة البعض الذين قد يساهموا فى تخلفنا بمحاولتهم فرض اساليب واستخدامات جاهزة، وكأنها مسلمات لايجوز الشك فيها، ولهذا العلم ملك عام، والبحث حق للجميع، ولايليق بمن يدعى العلمية ان يضع سقفا للتفكير الانسانى .

ان طبيعة التعامل مع المواضيع والمشاكل التى تتناولها العلوم الاجتماعية والانسانية تختلف عن طبيعة التعامل مع مواضيع ومشاكل العلوم

الطبيعية، لان التعامل العلمى مع المادة يختلف عن التعامل العلمى مع الانسان، وتختلف طبيعة المواد كما تختلف طبيعة المجتمعات، فلا يحق لنا ان نحكم على طبائع المجتمع الغربى بطبائع المجتمع العربى، نظرا لوجود الخصوصية التى لاتسمح بالتعميم، ولهذا لايحق للباحث اصدار احكام مطلقة عند دراسته للمجتمعات الانسانية، وأن لايأخذ ماوصل اليه الذين سبقوه بانه مسلمات، بل كل شىء ينبغى ان يكون قابلا للشك، وللجدل الجاد، الا القوانين الطبيعية التى تعبر عن حقائق ثابته، ويحتكم الناس اليها كوحدة قياس .

ويهتم هذا الكتاب بفلسفة المناهج، من اجل تبيان اهميتها العلمية والفنية لكى تدرك بوعى، وتستوعب بانتباه، ولكى لاتخضع للاحتكار من قبل احد، وتتيسر للجميع، لأن للجميع فلسفة، مما جعل ضرورة وخصوصية لاهتمامنا بها، وتعتبر البحوث ذات اهمية عندما تكون لها فلسفة ودلالة، والباحث الجاد والمبدع هو الذى يستوعب فلسفة بحثه، وتزداد اهمية البحث، بوضوح الفلسفة التى وراءه، ولا يمكن أن يبرز عالم، أو مخترع، أو مفكر، الا ببروز فلسفته، وهنا تكمن الاهمية التى تتطلب البحث عنها بوضوح، ولهذا اولينا اهتماما باهمية المفاهيم وسمحنا لها ان تتصدر كتابنا، لما لها من ضرورة فى تبيان الدلائل والعلل والبراهين، وفى إزالة اى لبس قد يعلق بذهن القراء والمطلعين، واوليناها بنظرة جدلية المناهج وتفسيراتها، واوضحنا جوانب الضعف والقوة فيها، وبينا بعض الملابسات التى علقت، ومايبنغى ان تكون عليه من خلال دورها المناط بها، ثم تناولنا اهمية ادواتها، والفلسفة التى تكمن فى استخداماتها العلمية، وبما تمتاز به ومايؤخذ عليها، الى ان وصلنا الى فلسفة تصنيف وتبويب وتحليل وتفسير المعلومات والبيانات التى تؤخذ من مصادرها، سواء كانت بشرية او غير بشرية وسواء كانت من المجتمع، او

من العينة التى لاتمثل الانفسها، وتوضح الفهرسة كل ذلك حسب الابواب والفصول التى صنفت اليها .

وفى الختام اقدر باعتزاز الاخ الدكتور محمد بن عمران استاد فلسفة التربية والتربية المقارنة الذى قام مشكورا بمراجعة هذا المجهود العلمى المتواضع .

كما أقدم شكرى وتقديرى لدار الحكمة على طباعة ونشر وتوزيع هذا الكتاب، وللأخ صبرى أبوالسعود محمد، على قيامه بالتصفيف المرئى.

المؤلف د . عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح / كلية العلوم الاجتماعية

الفصل الاول

أهمية تحديد المفاهيم فى العلم والمعرفة

تحديد المفاهيم :

يقصد بتحديد المفاهيم تبيان ماتعنيه من مقاصد، وتوضيح ماتتضمنه من معان، وما تظهره من صفات . ويتضح المفهوم عندما يعقله الانسان، ويميزه عن غيره الذى يشترك معه فى الصفات . فكلمة **شجرة** على سبيل المثال تشير الى جميع الصفات التى تشترك فيها الاشجار . اية شجرة اعنى بذلك ؟ هل اعنى شجرة الصنوبر ؟ ام شجرة التفاح ؟ او اعنى شجرة التين ؟ وهل اعنى بها فى فصل الصيف وهى مخضرة ؟ ام اعنى بها فى فصل الشتاء وهى بدون اوراق ؟ ام هل اعنى بالشجرة شجرة الزيزفون ؟ او اعنى بها شجرة الليمون ؟ واى نوع من انواع اشجار الليمون اعنى ؟ .

يستوجب على الباحث ان يحدد مفاهيمه من اجل ازالة اى لبس قد يعلق بذهن المستمع او المطلع، لان المفهوم الواحد قد يحمل اكثر من معنى، وبما انه يحمل اكثر من معنى، فان الغموض يحفه من كل جانب، مما يجعل ضرورة تحديده هامة . فكلمة **سلطة** كلمة عامة تحتاج الى توضيح، اية سلطة اعنى ؟ هل اعنى بها السلطة الابوية ؟ ام السلطة القبلية ؟ ام السلطة القضائية؟ ام السلطة التشريعية ؟ ام اعنى بها السلطة التنفيدية ؟ او اننى اعنى بها السلطة العسكرية ؟ ام ماذا ؟ إنها كلمة غامضة إن لم نحدد معناها وحقيقتها . ولهذا يحدث الاختلاف بين المتجادلين والمتحاورين احيانا لالشى الا لعدم وضوح المفاهيم المستعملة فى الحوار، مما يجعل نقاشهم خارجا عن الموضوع، ويجعلهم يتخبطون فى هوامش الحديث بين العموميات . ولكى لا يقع الباحث وبحثه فى هذا اللبس عليه تحديد مفاهيمه بوضوح ودقة . فاذا اراد الباحث الاجتماعى ان يبحث فى المجتمع عليه ان يوضح ما تعنيه كلمة مجتمع، هل يعنى به مجتمع الدولة ؟ ام مجتمع المدينة ؟ ام المجتمع

الجامعى؟ او انه يعنى به المجتمع الجماهيرى ؟ او المجتمع الراسمالى؟ او انه يعنى به مجتمع البحث ؟ .

ويهدف الباحث من تحديد المفاهيم توصيل المعلومات بوضوح للقارىء، او للمستمع، مما يساعده على فهمها واستيعابها، وربطها مع غيرها من المفاهيم السابقة عليها . وتتضح المفاهيم اكثر، كلما اتضح المقصود من ورائها وتكون المفاهيم اكثر وضوحا عندما تحمل كلماتها صورة لها، فعندما نقول : (انسانا) فان للانسان صورة يمكن تصورها . ولكن عندما نقول (السعادة) فانه من الصعب رسم صورة لها، مع اننا قادرون على تصورها في سلوكيات الافراد والجماعات . والانسان صورته دائمة الحضور للذهن كشكل ليس الا، وصورة عامة لاخصوصيات لها، اى من هو الانسان الذى اعنيه ؟ هل هو ذكر ام انثى ؟ وهل هو طفل ام عجوز ؟ وهل هو من الجنس السامى ام من الجنس المغولى؟ وهل هو اسمر ام ابيض اللون ؟ كل هذه التفاصيل محمولة فى صورة الانسان عندما تحدد . اما السعادة فهى ليست دائمة الحضور، مع ان الامانى لها دائمة. انها مؤقتة، ويتم التعبير عنها بعدة صور كالبهجة، والرضا، والفرحة التى ترتسم على وجه الانسان وتشبع حاجاته وامانيه . وانه من الصعب رسم السعادة او تحديد صورة لها، ومن الممكن تصور مراميها، والادلة المعبرة عنها، ولم يتم تصويرها فى ذاتها، بل يتم تصورها على الاخرين، ومن خلالهم . وعليه فان الاستيعاب للمفاهيم التى تحمل صورة اسهل وايسر من المفاهيم التى لا تحمل صورة لها . والمفاهيم التى لاتحمل صورة لها تحتاج الى توضيح اكثر من غيرها من اجل توصيل المفهوم بدلائله المعبرة عنه. وتحتاج الى تفكير دقيق وانتباه واع . لان الاشياء التى تعبر عنها المفاهيم تتفق وتختلف مثل الحروف والارقام : فالحرف بـ يختلف تماما عن الرقم 2 ولاتوجد علاقة بينهما، فالاول يعبر عن

صوت مع انه لا صورة له، والثانى يعبر عن كلمة اثنين . ولكل منهما دلالة تعبر عنه وتختلف عن الاخر فالرقم 1 يعنى انه جزء من ½ وهو نصف الرقم 2 اذن سبب وجود 2 هو 1 + جزء اخر يتمم على الرقم 2. وسبب وجود 5 هو وجود 4 + جزء اخر = 1 ويتمم على الرقم 5 اذن لن نتحصل على الرقم 5 من مجموع الارقام المكونة له،وهى 1+2+3+4 بل نتحصل عليه من مجموع الرقم 4 + الجزء المتمم على الرقم 5 والمساوى 1 اى ان الرقم 5 يحتوى على1، 2، 3، 4، ولا يحتوى على مجموعها. وتختلف مفاهيم الحروف عن مفاهيم الارقام، فالارقام دائما جزء من كل، اما الحروف مستقلة. فالرقم 1 دائما جزء من اى رقم ياتى من بعده . اما الحرف أ فليس جزءا من الحرف ب، وهكذا بقية الحروف التى تكون كلمة ذات دلالة . ونلاحظ ان كل من يحمل رقم 1، يمكن تصويره، او رسمه، لان الارقام تكتب وتصور وتعطى معنى . اما الحروف ترسم وتعطى اصواتا (تعبر عن اصوات) ولاتعطى معنى الا بعد وحدة بين حرفين او اكثر منها فالانسان يمكن تصويره او رسمه لانه واحد، والشجرة يمكن تصويرها لانها واحدة، وهكذا السمكة، والطائر، والقط، وكل مايعبر عن واحد، الا الواحد الذى لايرسم مطلقا (الله العظيم) لانه لم يكن مثلثا ولامربعا ولامستطيلا ولامنحرفا ولاشبه منحرف ولا اى شكل آخر . انه الله، انه المصور الذى لايصور . اما مالم يحمل فى مضمونه رقم واحد، ولايصور، مثل الحق، والعدل، والحرية، والسعادة، لأنها معان وألفاظ تتحقق بافعال الاخرين، وتنعكس فى سلوكياتهم.

اذن تحدد المفاهيم من اجل تبيان وتوضيح المعنى، وازالة اى لبس قد يعلق بذهن المستمع او المطلع، ونظرا لهذه الاهمية يستوجب على الباحث ان يحدد مفاهيمه بكل دقة وانتباه، مما يجعله يميل الى التعريفات الاجرائية فى

تبيان مقاصده ومغازيه الداله على معالمه العلمية التى يمكن لنا قياس ابعادها والنتائج المتوصل اليها . فاذا استهدف الباحث دراسة انحراف الاحداث كموضوع للبحث فينبغى عليه ان يجيب على الاسئلة الاتية : مامعنى الانحراف الذى يقصده ؟ هل هو كل خروج عن القانون ؟ ام هل هو الخروج عن القانون المكتوب زائد عدم طاعة الوالدين ؟ ام انه يقصد بذلك كل خروج عن قيم المجتمع ؟ (الدين والاعراف والنظم المعمول بها والتى ترسم شخصيته وتميزه عن الاخرين). وبما انه حدد موضوع البحث للتعرف بصورة خاصة على مايتعلق بالاحداث، فينبغى عليه ايضا تحديد الفترة العمرية المستهدفة بالبحث او المقصودة بالدراسة .

وهكذا ينبغى ان تتحدد المفاهيم بنائيا ووظيفيا، لتتضح اصولها من حيث الطريقة التى تكونت بها، ومن حيث الدور الذى تستهدفه، او الوظيفة التى تؤديها، فعندما نقول الانحراف هو الخروج عن القانون الذى تقره الحكومة على المجتمع، يعتبر هذا تعريفا بنائيا لانه يوضح الطريقة التى تكون بها القانون الذى يتطلب من المجتمع طاعته حتى لايوصف من لايطيعه منه بالمنحرف . اما عندما نقول الانحراف هو عدم التزام بعض الافراد بالنظم، والتشريعات، وواجباتهم التى اقرها المجتمع وارتضاها من اجل تنظيم علاقاته ومعاملاته الحياتية، يعتبر هذا تعريفا وظيفيا، لانه يحدد الوظيفة التى ينبغى ان يلتزم بها المواطن الصالح ويؤديها، لكى لايكون منحرفا .

المعرفة

تحدد المفاهيم من اجل تقديم معلومات ومعارف خالية من الغموض واللبس، ولذلك تحديد المفاهيم يساعد فى عملية المعرفة التى يستدعيها العقل بقدرات مختلفة نتيجة الفروق الفردية بين الافراد، وعند استدعاء المعلومات

قد ينسى الانسان جزءا هاما منها، ولم يتم استدعاء كل المعارف جملة واحدة، بل حسب الموضوع المثار للبحث والنقاش . وقبل الخوض فى هذا الموضوع اتساءل

هل كل ما اتذكره يعد معرفة ؟ .

وهل كل ما اشاهده يعد معرفة ؟ .

وهل كل المعارف تعبر عن حقائق ؟ .

يتربى الانسان بالمعارف، ويتعلم بالمعارف، وحسب معارفنا يتعلم الانسان ويعرف، ولكنه قد يسلك سلوكا لايعبر عن معرفة، وبالتالى هل فى هذه الحالة قد عرف ؟ . حيث انه قام بسلوك يخالف ماسبق له ان عرف، اذن سلوكه الجديد يعبر عن معارف جديدة وان الاجابة على السؤال السابق تكون: نعم انه قد عرف . وبما انه عرف أشياء جديدة تخالف القديم، فهل بالضرورة ان ماسلكه بالمعارف الجديدة يكون صوابا ؟ ان الذى يحدد الاجابة الصائبة من الخاطئة هو **الموضوع، والقياس**، فاذا كان الموضوع هو **طاعة الوالدين** والسلوك الذى تم معهما هو معصيتهما فيما امر الله لهما من حقوق، فالمعرفة السابقة تستوجب طاعة الوالدين فى غير معصية الله والسلوك الذى حدث لم يعبر عن هذه المعرفة بل عبر عن معرفة اخرى لا ادرى انها عصرية او انها من عصر الجاهلية، المهم هنا هو **القياس**، وقياسنا هو الدين الذى ينص على طاعة الوالدين فى غير معصية الله العزيز، ولكن لو كان المجتمع غير مسلم فقد يكون قياسه شيئا اخر، وليكن **العرف**، وفى هذه الحالة قد تكون الاجابة تختلف عن الاجابة السابقة، وبالتالى ليس بالضرورة ان مايسلكه الانسان بالمعارف الجديدة، يكون صوابا مطلقا، فقد يكون، وقد لايكون، وان الذى يحدده هوالموضوع، والقياس . وبما اننا ربطنا المعرفة بالبحث والتعلم والقدرة على الاستدعاء، اذن بالضرورة ترتبط المعارف بالتذكر وتكون

الاجابة على السؤال السابق، بنعم، ان كل ما اتذكره يعد معرفة. لان الانسان بطبعه يتذكر مايعرف، ويفكر فى اخرى . وتكون النتيجة بما انى افكر اذن انا اعرف .

ومن خلال محاولاتنا الاجابة على السؤال الثانى، هل كل ما اشاهده يعد معرفة ؟ نلاحظ ان الاجابة عليه، تستوجب منا جدلا فلسفيا، من اجل برهنة علمية، فاذا تعرف الانسان على صفات، وخصائص المشاهد، كان المشاهد معرفة . لقد شاهدنا الجبال وعرفنا صفاتها، وخصائصها، وشاهدنا السيارة، والطائرة، وركبناهما فعرفنا محاسنهما، ومخاطرهما، ونظرنا الى الابل كيف خلقت، وركبناها وعرفنا نعمها . ولكننا شاهدنا على الجبل الغربى بليبيا، وعلى جزئية منه، ان الاشياء تسير فى الاتجاه المعاكس لانحدارها . فاذا وضعت سيارتك على المنحدر الذى اعنيه فانها ستسير فى اتجاه الصعود (الى اعلى) بدلا من الانحدار الى اسفل . وكانت المشاهدة الاولى، لسائق اوقف سيارته على جانب من الطريق المنحدر، ونزل منها، ووضع حجارة امام العجلات حتى لاتنحدر السيارة الى اسفل، وعندما انتبه شاهد السيارة وهى مطفأة تسير الى اعلى، بعكس وضعه للحجارة، انها تسير الى الخلف، الى الصعود بدلا من النزول . وبعدها اصبحت مشاهدات، وخرج الى المكان بعض من المتخصصين، وجربوا الخشب، والماء، واجساما اخرى، فوجدوها تصعد الى اعلى، بدلا من ان تنحدر الى اسفل، ولم يتم التفسير العلمى للظاهرة بعد . اذن المشاهدة حدثت، ولكن المعرفة لم تحدث بعد، واذا ادعى البعض بانه قد عرف، فاقول له ماذا عرفت ؟ وهل ماعرفته يتمشى مع ماسبق وان عرفته، بان الجسم وفق صفاته عندما يوضع فى وضعه الطبيعى يندفع من اعلى الى اسفل ؟ اذا كانت الاجابة بنعم، اذن لايمكن للاشياء ان تصعد من اسفل الى اعلى بدون قوة دافعة لها، وهذه معرفة سابقة . واذا

كانت الاجابة بلا، فماهي الخصائص، والصفات الجديدة التى تبرهن على بطلان الحجة السابقة ؟ وماهي القاعدة البديلة التي تمت معرفتها ؟ وبما اننا لم نحدد البديل ونحضره، اذن لم نعرف شيئا جديدا بعد . واذا قصرنا المعرفة على المشاهدة، فهل مانعرفه بدون مشاهدة لايعد من معارفنا العلمية ؟ لقد عرفنا الحياة، وعرفنا الموت، وعرفنا الحق، والظلم، والحرية، والقانون، والسعادة، والنظام، والحب، والكره، وعرفنا الله العليم، كل هذه معارف ولم تكن مشاهدات، وهكذا ليس كل مانشاهده نعرفه، ولا تقتصر معارفنا على مشاهداتنا، وليس كل من يشاهد يعرف، ولا كل من لم يشاهد لا يعرف . اذا سلمنا ان العينين هما وسيلتا المشاهدة، فان للاسماك عينين، للطيور مثلها، وللحيوانات كذلك، ولكن هل تعرف بعيونها، ام باكثر من ذلك ؟ ولهذا قلنا ليس كل من يشاهد يعرف . والعينان حاسة هامة جدا، ووسيلة من وسائل المشاهدة، ولكن الانسان الذى فقد بصره، هل فقد معارفه ؟ اوانه فقد حاسة المعرفة ؟ انه لم يفقد معارفه، ولم يفقد حاسة المعرفة، ولكنه فقد بصره ولازال يعرف . اذن ليس كل من لم يشاهد لم يعرف .

ونعود للسؤال الثالث هل المعارف تعبر عن حقائق ؟ انها مسألة احتمالية، فاذا كانت المعارف مثبتة بوعى (بادراك) فانها تعبر عن حقائق، واذا لا فانها لا . وهكذا عرفنا ان الانسان الذى يحب افضل من الانسان الذى يكره، ودعونا للمحب بامين، واستعدنا بالله من الذى يكره . ولكننى مع هذا اتساءل : ايهما على حق، المحب، ام المكره؟ . وحتى لانكون فريقين احدنا يؤيد المحب، والاخر يؤيد المكره، علينا اولا ان نحدد الموضوع، وخصائصه، وصفاته، وثانيا ان نحدد القياس (المنطق العلمى) الذى يساعدنا على التمييز بين ماهو محبوب، وبين ماهو مكروه . فهل الانسان الذى يحب الظلم، ويحب الزنا، والاعتداء على اموال الاخرين وممتلكاتهم، ويحب

الكذب، والاستعباد، وتناول المسكرات، هل هذا النوع يحق لنا ان ندعو له بكلمة امين ؟ ام نقول اعوذ بالله من شر مارتكب ؟ . وهل الذى يكره الظلم، والعبودية، والخيانة، والسرقة، والزنا، يوصف بانه مكروه ؟ ان الذى يحدد الاجابة الشافية هو الموضوع، والقياس اللذان يقدمان معرفة واضحة . فاذا كان المجتمع عربيا مسلما، فان كل الصفات التى ذكرناها تندرج تحت التحريم، او منهى عنها، ومن يرتكبها يكون غير محبوب، ومع ذلك لم يتفق الجميع على الابتعاد عن ارتكابها، وهى محبوبة عند مرتكبيها، فالسارق قد لايكره السرقة، والزانى قد لايكره الزنا، والخائن قد لايعد الخيانة عيبا، وهكذا شارب الخمر . لان مقاييس الذى يقترف ذلك، تختلف عن مقاييس الذى حرمها، ومقاييس الذى التزم بالابتعاد عنها . وهكذا تزداد نسبة مرتكبيها وتقل نسبة المبتعدين عنها، لانهم يكرهون الحق، ولايحبون معرفة الفلسفة من وراء تحريمها، والنهى عنها، فيقول الله عز وجل : " **وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله** "(1) ويقول : " **لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون** "(2) ويقول تعالى:" **بل هى فتنة ولكن اكثرهم لايعلمون**" (3) ويقول عز وجل:" **يلقون السمع واكثرهم كاذبون** "(4).

ولهؤلاء جزاء فى الدنيا حسب ماتنص عليه القوانين والاعراف المعمول بها فى كل بلد والتى تختلف من دولة الى اخرى . ولهم جزاء فى الاخرة يعلمه الله حيث يقول:" **فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون**"(5).

---

(1) الانعام، الاية، 116 .

(2) الزخرف، لآية، 78 .

(3) الزمر، الاية، 49 .

(4) الشعراء، الآية، 223 .

(5) التوبة، الآية، 82 .

ونعود للسؤال الثالث مرة اخـرى، هل المعـارف تعبر عـن حقـائق ؟ ولتقريب الاجابة اطرح السؤالين الاتيين : هل مانكتبه، ونقرأه يـعد معارف؟ اذا كانت الاجابة بنعم، اذن هل كل ماكتب من معـارف، يعبر عـن حقـائق ؟ فإذا كان الموضوع يعبر عن معارف مثبتة بوعى تكون المعارف حقائق، واذا لم فإنها لم .

فقد نلاحظ ونشاهد صورا وحركات، ومعارك، ومواقف، وعواطـف، ومحبة، واقدام، وانسحاب، ومناغاة، وتناغم بين طرفين او اكثر، الا انهـا قـد لاتعبر عن حقائق لانها لم تكن واقعية بل كانت حوارا فى المنـام (حلمـا ليس الا) ولهذا لايعد الحلم مصدر معرفة علمية، لانه لـم يكـن حقيقـة واعيـة، ولـو كان كـذلك لكان الذى حلم بان علاقـة محبـة تربطه بفتـاة سبق وان رآها فى شوارع المدينة، وانه التقى معها ولعب كثيرا وانسجم اكثر فهل يعد ماشـاهده، ولاحظه فى المنام حقيقة ؟ وهل اذا التقى بالفتاة مرة ثانية، يجدها تجرى نحوه بدفـء، وتبادلـه الاحاسيس والمشـاعر التـى بادلتـه اياهـا فـى المنــام ؟ وهـل ماجرى فى الحلم يعد معرفة كافية للتفاهم، وانهمـا طويـا المسـافة التـى كـانت تبعد بينهما؟ .

وهل الذى يصـرخ لدرجة انه ايقظ من كان نائما الى جنبه نتيجة حادث الم بـه وبترت احدى يديه واخطأ الطبيب اثناء اجـراء العمليـة لـه، بـان ركـب لـه يد الرجل الاسمر، الـذى هـو الاخـر بتـرت يـده فـى نفس الحـادث وركبت اليد البيضاء للرجل الاسمر، انه حادث مؤلم ولكنه تم فى المنام فهل يعتبر ماجرى حقيقة ؟ . مع ان فى الحلم مشاهدات، وملاحظات، وحركة وبطـولات، وكـر، وفر، والآم، الا انها لا تعبر عن واقع، ولذلـك ليس كـل مانشـاهده، ونلاحظـه يعبر عن واقع، وحقيقة . انها قضية كاذبة لفقدانها معطيات التصديق والتسـليم. بدليل ان الذى كان غارقا فى الحلم عندما يستيقظ لـن يجـد بجـواره مـن كـان

نائما معه ويجد الحسرة والندم وتبقى الامانى تراوده بكلمة اتمنى لو انه كان حقيقة، او يحمد الله على ان ماجرى له ليس حقيقة، حتى لايفقد يده . ولهذا نامل الاتكون دنيانا ساعة حلم ونشك فيما نحن عليه ويصبح وجودنا خرافا لامصداقية له . وتصبح مقولة الفيلسوف ديكارت " انا افكر فانا موجود "(6) لاوجود لها . واذا اصبحنا نفكر بعد ان استيقظنا، ساتجادل مع هذه المقولة من خلال المشاهد والمجرد ففى الحلم شاهدنا، وسمعنا، وتكلمنا، وفكرنا وانتهجنا (سلكنا)، الا ان نتائج ذلك غير موجودة . وفى الصحو يفكر الانسان فى اشياء كثيرة قد لاتتحقق، ولذلك اذا كان ما افكر فيه غير موجود، فان ذلك قد يعبر على عدم وجودى . فاذا كنت (انا) مو جودا ما اشك فى وجودى .واذا اشترطنا الوجود بالتفكير فهل من لم يفكر لم يكن موجود ؟ . الجبال، والانهار، والسحب، والسماء العظيمة، والزلازل، والرعود، والموت، كلها اذن غير موجودة لانها لا تفكر . هذا اذا اعتبر ديكارت ان الحيوانات تفكر لحد ما وحتى وان كان كذلك هل تستطيع ان تبرهن على وجودها لتثبته للاخرين ؟ ان ذلك لم يحدث ولكن الذى حدث انها موجودة والموجود لم يكن فى حاجة لمن يثبت وجوده، فالموجود هو الذى يحس بوجوده، او يحس الآخرون به. وهنا ايضا اتساءل هل الغائب موجود ؟ اذا كان ماثلا كان موجودا، واذا فقد كان موجودا . ويقصد بذلك اذا كان ماثلا فى اى مكان كان

---

(6) جوزيف بوخينسكى، مدخل الى الفكر الفلسفى . " ترجمة محمود حمدى زقزوق " القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الاولى، 1973، ص 39 .

موجودا . واذا فقد كان فى الزمن الماضى موجودا . اذن لم يكن اثبات الوجود التفكير , بل يتولد التفكير من الموجود فى الوجود . فاذا فقد الانسان القدرة على التفكير هل يعنى ذلك انه فقد وجوده ؟ وهل الانسان الطفل الذى لم تتفتح عنده القدرات العقلية بعد لايعد موجودا ؟ وهل العمل موجود ؟ وهل الدموع موجودة ؟ وهل الملاجئ والمغارات والمداخل موجودة ؟ نعم انها موجودة وهى لاتفكر . اذن لم يكن التفكير هو سبب الوجود يقول الله تعالى: " **ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك احدا** " (7) . ويقول عز وجل: " **لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه** "(8) اذن هناك وجود مشاهد، واخر مجرد، الدمع، والمغارات، والابل، والسماء، والجبال، والارض، مشاهد مثبتة، اماكيف خلقت، فهو امر مجرد، وهنا ينبغى التفكير فى الذى لايشاهد . وان الذى نشاهده علة لوجوده، والعلل لاتشاهد، مع انها موجودة، فعلة الوجود كله لاتشاهد . ام هل هناك وجود بدون علة لوجوده ؟ كل موجود وراءه من اوجده . فالذى اوجد الوجود هو الله الذى لايشاهد، (انه المجرد)، وطلب من الانسان كموجود ان يفكر فى الوجود، لكى يولد من الموجود وجودا، ولهذا من يفكر يعرف، ويبدع . اى يعرف ان وراء الموجود خالق، وبمعرفته للموجود يبدع، ويخترع منه الجديد لمن لم يعرف، ليذوّقه قيمة الموجود من المجرد، ولهذا اقول ان المشاهد هو من المجرد، ويقول الله القدير:" **افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت، والى الجبال كيف نصبت، والى الارض كيف سطحت، فذكر انما انت مذكر، لست عليهم بمسيطر، الا من تولى وكفر**"(9) ولايمكن ان يصل المفكر الى الابداع، والاختراع المجرد، الا اذا

---

(7) الكهف، الآية، 49 .

(8) التوبة، الآية 57 .

(9) الغاشية، الآية، 17 ـ 23.

كانت له فلسفة . لان بالفلسفة يفكر الانسان تفكيرا مجردا، وبالفلسفة يحقق (يحول) ماتصوره مجردا الى مشاهد (صور، واشكال) تعبر عن مجرد، باتباعه القوانين التى استلهمها منه، بفكره . واذا حاول تنفيذ ذلك بنفسه، فيكون الفيلسوف مجردا، ومجربا، لان تحويله للافكار المجردة الى صور، واشكال، تصبح ابداعات واختراعات مشاهدة، اى انه استطاع ان ينقلنا الى ماتعنيه افكاره، عن طريق المشاهد . اما اذا جاء احد من بعده، ليصمم لنا آلات،، او يخترع الات لتنفيذ افكار ذلك الفيلسوف، فان ذلك يعنى ان فيلسوفا اخر ارتقى الى مستوى الفهم المجرد للفيلسوف المجرد، وبرهن لنا على ذلك الفهم، بنقله المجرد الى المشاهد (المصنوع)، فالفيلسوف نيوتن، هو الذى اكتشف لنا قانون الجاذبية، والذين اتوا من بعده، ترجموا افكاره الى إبداعات، تقاوم الجاذبية بالقوة الدافعة، فركبنا الطائرة، وغزونا الفضاء، وعرفنا الجديد بافكار الفلاسفة . وعليه ان القانون الطبيعى فى اساسه مجرد، ثم جرب فاصبح مجربا . اذن الفلسفة هى مكمن البحوث والعلوم، وهى القوة المنظمة فى التفكير الانسانى، والموجهة الى اهداف تسموا بالانسانية من الجهالة الى اليقين . وهى الفن الذى يعزف على اوتار العقل الانسانى، فيخرج لنا انغاما، تطمئن النفوس، وتريض الاجسام، وتحقق الرضا، عندما ينسجم الانسان بين المجرد والمشاهد . وترتقى بالذواقين الى الوحدة، مع الانغام التى ابدعتها وتوجههم الى البحث فى اسرارها، وخفاياها الهائلة، التى تسعد البشرية . فينبغى على الانسان ان يكون فيلسوفا، لكي يفكر فى خلق السماوات والارض (الموجود) لينتقل من الموجود الى المجرد، من الصورة الى الجوهر، من الشكل الى المضمون. لان اى شيء بدون مضمون، يعنى انه بدون معنى، واى شيء بدون معنى، فانه بدون فلسفة، واى شيء بدون فلسفة، فانه بدون قيمة، اى انه تافه . فهل الانسان الذى خلق فى احسن تقويم، يود ان يكون

تافها ؟ ومن لم يود ان يكون تافها، عليه ان يفكر فى خلقه، ويكون من الذين يصدق عليهم قوله تعالى :

" **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام**" (10). والا " **يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى**" (11) والا لماذا خلق الانسان اكثر جدلا ؟ "وكان الانسان اكثر شئ جدلا" (12). لقد خلق سبحانه وتعالى كل شئ وكان الانسان اكثر الاشياء جدلا لما يمتاز به من قدرة على التفكير والفهم والتحليل والنقد والجدل، ولهذا خلق فى احسن تقويم . وكلمة تقويم هنا تعنى المشاهد والمجرد، فى احسن تقويم فى احسن صنعة فى احسن صورة وهيئة وهذه تعبر عن المشاهد. والمجرد هو قدرة الانسان على التذكر بالعقل او بالقلب الذى فى الصدر . ولهذا ينظر الانسان الى نفسه والى الاخر الابل والسماء والجبال، والارض وماعليها، ليفكر فى خلق الله ويتذكر ماقاله سبحانه وتعالى، والا سيكون فى اسفل السافلين. ومن هنا يكون الفرق بين المسلم الذى يجادل من اجل ان يؤمن بقدرة الله باعتبار ان ماينظر اليه هو ايات القوة الخالقة (الله) والتى اذا تأمل فيها ماعليه الا ان يوحد وجوده . اما المسلم الذى لايجادل فهو المسلم الذى لم يتذكر واذا لم يتذكر فان الايمان لم يدخل قلبه بعد، ولهذا يكون فى اسفل السافلين، مما يجعل الاجر للمؤمنين فقط، ذوى الحظ العظيم ويصدق الله حيث يقول: **لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم، ثم رددناه اسفل سافلين، الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون**"(13). ولهذا نجد فلاسفة علم الطبيعة اكثر الناس ايمانا لانهم يفكرون

---

(10) يونس، الآية، 10 .

(11) الفجر، الآية، 23 .

(12) الكهف، الآية، 54 .

(13) التين، الآية 4 ــ 6 .

فى خلق السماوات والارض من خلال ما يرونه فيها من ايات الا ان فيلسوف علم الطبيعة جزئى تخصصى . اما الفيلسوف المجرد شمولى ينظر الى الاشياء ويفكر فى علل وجودها . وعليه اقول ان الفلسفة تهدى وتقود الى التى هى احسن، اما الذى لم يهتد لم يكن فيلسوفا بل مدعيا لذلك . وهو الذى يصدق عليه قول الله: " **فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب باياته**" (14) . وتتضح اهمية الجدل باعتباره اسلوبا منهجيا لتبيان الحقائق ووسيلة بحث عن علل وجودها، وبالجدل تثرى العلوم وتتضح المعلومات ومراميها المباشرة وغير المباشرة . انه اسلوب تحليلى يعتمد على مصداقية الحجة، وبرهان يستند على القوانين ويستنتج، وبرهانه يتطلب موضوعا، واطرافا تتفاعل من اجل اثبات حقائق اوالبحث عنها، وقد تصل الاطراف الى اتفاق، وقد لاتصل. تصل عندما يكون الموضوع والتفكير علميين، ولن تصل اذا لم . مما يتطلب من المتجادلين الاتى :

ا - تحديد الموضوع المتجادل عليه بوضوح .

ب - تحديد الهدف من الجدل .

ج - تحديد المفاهيم المستعملة فى الحوار الجدلى حتى لا يتضمن الجدل الغموض.

د - الاعتراف بنسبية الحقيقة وعدم مطلقيتها، خاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية، فان ما تجيزه الاعراف قد لاتجيزه الاديان، وان ماتجيزه الاعراف والاديان قد لاتجيزه القوانين المعمول بها بين الدول، وان مايعاقب عليه القانون فى دولة ما قد لايعاقب عليه فى دولة أخرى.

هـ - ان تكون مواضيع الجدل قابلة للقياس .

و - تقبل النقد .

---

(14) يونس الاية 17 .

ز ـ الانتباه والاصغاء الواعي .

ولهذا الجدل عملية فكرية والفكر كما يقول الفيلسوف جوزيف يوخينسكي هو حركة التصورات والمفاهيم، ويؤكد على ان للشيء حالتين : اما ان يكون معطيات وبالتالي يشاهد ويوصف، واما ان يستنتج (15) فاذا قررنا ان نتجادل حول الزهرة، فينبغي ان نعرف ان للزهرة لونا، وانها تشغل حيزا (تشغل مساحة) ولها مكان ولها شكل، ورائحة، وتتطلب خلفية تميز لونها حتى لاتكون مطفأة او كأن لا لون لها .

الجدل كالايام دائما معطياته متجددة حتى وان تكررت الايام فان مضامينها متجددة ومتغيرة، ومع ان الايام مواقيت منتظمة لاتتداخل مطلقا إلاأنها كالضرات لاتتواجد بقلب واحد في مكان واحد، ولهذا اذا دخل السبت خرجت الجمعة واذا خرج الثلاثاء دخل الاربعاء . وكذلك الليل والنهار في جدال عنيف اذا دخل احدهما خرج الاخر بالضرورة، والشمس والقمر . والكل في فلك يسبحون. ومادامت قوانين الطبيعة هكذا فان الجدل هكذا . فاذا كان اليوم الجمعة فانه غدا السبت بالضرورة، ولكن هل بالضرورة سيأتي السبت غدا ؟ ليس هناك انسان يضمن ذلك، ولهذا على الانسان ان يتذكر لعل الذكرى تنفعه حتى لايكون من السافلين . كل هذه مسائل تقدير العزيز العليم "**والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم** " (16). ولكننا نعرف اذا غابت الشمس قامت القيامة ويكون الخيّرون منا " **متكئين على الارائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا**"(17).

---

(15) جوزيف يوخينسكي، مدخل الى الفكر الفلسفي ." ترجمة محمود حمدى زقزوق "القاهرة: مكتبةالانجلو المصرية، الطبعةالاولى، 1973، ص 62.

(16) ياسين، الآية، 38 .

(17) الانسان، الاية 13 .

اذن الجدل لم يقصد به المشاكسة بل التعرف بيقين وعلى يقين، مما يجعل للمعرفة عناصر لتبيانها . فلكى تتم المعرفة ينبغى ان يكون لها موضوع، وعارف، ومتعرف وان تكون لها وسائل التعريف المشاهد والمجرد (الحواس المباشرة، والتفكير) وان يكون لها زمن، زمن الاثبات، وزمن التعرف لكى تصبح معرفة . وعندما يتم التعرف وتخزن تصبح قابلة للاستدعاء حسب قدرات الافراد واستعداداتهم، مع انه لايمكن للانسان ان يستدعى كل معارفه جملة واحدة او فى وقت واحد . وينبغى ان تكون المعارف منطقية وفى نفس الوقت خالية من التناقض لان التناقض لا يبرهن على اثبات الحقيقة، فالقضية المنطقية التى تقول :

كل مسلم امين

وفريد مسلم

اذن فريد امين

هذه قضية منطقية ولكنها شكيه، لانه ليس بالضرورة ان يكون كل مسلم امين، والدليل ان هناك مسلمين غير امناء، ولاثقة فيهم، وهكذا فى كل الاديان . وكذلك القضية التى تقول :

كل مصل لايرتكب الفحشاء والمنكر

ونجاة مصلية

اذن نجاة لاترتكب الفحشاء والمنكر

هذه الاخرى ليست بالضرورة لان بعض المصلين يرتكبون الفواحش والمنكرات، مع انه بالمنطق ينبغى على كل مصل ان ينتهى عن ارتكاب الفواحش والمنكرات الا ان مانلاحظه على بعض المصلين انهم من مرتكبى مانهوا عنه. اذن المنطق وحده قد لايكفى للمعرفة، بل ينبغى ان تكون المعارف منطقية وصادقة فالقضية التى تقول :

كل الحيوانات تسير الى الامام والى الخلف

والاسماك حيوانات

اذن الاسماك تسير الى الامام والى الخلف

انها قضية كاذبة لان كل الحيوانات تسير الى الامام والى الخلف الا الاسماك فانها تسير دائما الى الامام مما جعلها تحصل في الشباك . والقضية الثانية التي تقول :

كل الحيوانات تحرك الفك السفلى

والتمساح حيوان

اذن التمساح يحرك الفك السفلى

انها هي الاخرى كاذبة لان كل الحيوانات تحرك الفك السفلى الا التمساح فانه يحرك الفك العلوى ولهذا من حيث البناء المنطقى فان هناك مقدمة اولى ومقدمة ثانية، ونتيجة، وان المقدمة الاولى كلية والثانية جزئية، الا ان وجود حيوان واحد يخالف العامة لاينبغي ان نضع مقدمة اولى تشتمل على مالم تحتويه . ولهذا المنطق لم يكن صورة يعتمد على المقدمتين والنتيجة بل ينبغي أن تكون له مصادق فعندما نقول:

كل الأرقام تقبل القسمة على اثنين

والصفر رقم

اذن الصفر يقبل القسمة على اثنين

من حيث المنطق البسيط للانسان العادى قد يتفق الجميع على ان كل الارقام تقبل القسمة على اثنين الا انه بالمنطق العلمى ان الصفر لايقبل القسمة على اثنين مع انه رقم مهم بدونه لا نصل فى تعدادنا الى الرقم عشرة، واذا حذفنا الصفر من الرقم 10 يصبح الرقم 10 واحدا فقط . اذن هذه القضية كاذبة كسابقاتها . وهكذا كل القضايا الفكرية، والمعرفية التى تستوجب وجود

افراد، او مجتمع، ووجود موضوع، وحدوث لقاء، ثم حدوث تفاعل، وتوفر الزمن المناسب لذلك، والمكان اللائق بذلك، مما يجعلنا نفكر بمنطق، ونتجادل بمنطق . ولكن لايفيد المنطق فى حد ذاته، لانه لم يكن الغاية المرجوة، بل انه الوسيلة الجيدة عندما يحتوى على مصادق . والمصادق ترتبط بالمحتوى، والمضمون والزمن الذى ظهرت فيه . فاذا قلنا :

كل من وقف بعرفة كتبت له حجة

وتوفيق وقف بعرفة

اذن توفيق كتبت له حجة

نحن نعرف ان بالوقوف على عرفة تكتمل فرائض الحج . ولكن هل كل من وقف بعرفة كتبت له حجة ؟ اذا كان كذلك فان كل المعتمرين كتبت لهم الحجة . ولهذا اذا كان زمن الوقوف بعرفة فى موسم الحج، كتبت لتوفيق حجة. واذا لم فانها لم . وهذه تختلف عن القضية التى تقول :

كل شهيد بطل

وعمر المختار شهيد

اذن عمر المختار بطل

هذه قضية منطقية وصادقة، ولهذا تكون معرفة صادقة وهكذا بالبحث نتعلم وبالعلم نتعرف، اى ان البحث هو وسيلة الاثراء العلمى، وان العلم هو وسيلة الاثراء المعرفى، وهكذا لولا البحث ما تعلمنا، ولولا العلم ماعرفنا (المعرفة المصنفة). بحواسنا عرفنا السحب والرعود والرياح، والزلازل، والبرق، وعرفنا ان فصل الصيف حار، وان فصل الشتاء بارد، وفى الربيع تخضر الارض، وفى الخريف نجنى ثمار النخيل . كل هذه معارف حسية، يعرفها المتعلم منا وغير المتعلم . اما المعرفة المصنفة، فهى المعرفة العلمية التى تعتمد على تتبع خطوات البحث العلمى، سواء البحث المشاهد، اوالبحث

المجرد ـ علوم المعامل والمختبرات والدراسات التطبيقية فى العلوم الاجتماعية والانسانية، اودراسة الفلسفة ـــ فى هذه العلوم والتى سبق وان بينا ان القيمة العلمية للعلوم الطبيعية والاجتماعية بما تحتويه على فلسفة، فاذا كانت لها فلسفة كان لها معنى واذا لم فانها لم .

الفصل الثانى

أساسيات البحث العلمى

البحث العلمى :

يعتبر البحث وسيلة منهجية للاكتشاف والتفسير العلمى والمنطقى للظواهر، والاتجاهات، والمشاكل ، وينطلق من فرضيات اوتخمينات يمكن التأكد منها باتباع سبل تحقق اهدافا ، ويمكن قياسها بقوانين طبيعية او اجتماعية يحتكم الناس اليها ، ويستهدف الوصول الى نتائج تحقق رغبات الباحث اوالجهة المتبنية للبحث سواء كان هذا البحث نظريا تفسيريا اوتحليليا نقديا او انه تطبيقى يلتجىء الى الميدان او المعامل والمختبرات . ومن مهمة الباحث ان يحدد اهدافه ، ومنهجه بوضوح لكى يصل اليها باقصر الطرق وافضلها . ولكى تتضح اهداف البحث ينبغى ان يكون الباحث ملما باسباب اختياره للموضوع . فقد يكون الهدف وقائيا وقد يكون علاجيا او انشائيا ، وقد يكون الهدف ابتكاريا او استطلاعيا . وتتعدد الاهداف بتعدد البحوث وتختلف البحوث باختلاف مواضيعها واهدافها . فقد يكون الهدف تصحيح اخطاء وملابسات علمية سابقة ، وقد يكون اثراء لما هو قائم ، او انه تجديد وابتكار. اذن يتحدد البحث بتحديد معالمه ، ومعالم البحث هى: الموضوع والاهداف, والفروض , والمنهج ، وان يكون للبحث العلمى ميدان بشرى اوجغرافى ، وان يكون له زمن البداية والنهاية . وان يقوم به باحث ماهر تتضح امامه اهمية البحث ومعالمه الاساسية والفلسفة التى يحتوى عليها . لان البحث هو تفتيش عن غائب حاضر (غائب عن الاثبات ، وحاضر فى الذهن) لانه النشاط العلمى المنظم فى ا لتعرف على الحقيقة .

وباعتبار الموضوع هو البحث العلمى ، فماهى العلاقة بين البحث والعلم ؟ يعتبر البحث هو وحدة الاثراء العلمى ، والعلم هو وحدة الاثراء

المعرفى ، والمعرفة اوسع مجالا من العلم ، والعلم اوسع مجالا من البحث ، فالعلاقة ترابطية . لولا العلم مابحثنا ولولا البحث ماتعلمنا .

أهمية البحث العلمى ومتطلباته:

تتضح اهمية البحث باثرائه العلمى من خلال الاكتشاف الجاد والتفسير والنقد المنطقى الذى يساهم فى تطور معارف الانسان وتهذيب سلوكه .

وترتبط اهمية البحث العلمي بمدى توفر الاطمئنان للبحث والباحث ، اى توفر المناخ اللائق الذى يطمئن نفوس الباحثين ويحفزهم على الانتاج العلمى الرائع. لان العلم كنوز، والبحث هو التفتيش عنها ، والبحث بدون اطمئنان لا يمكّن الباحث من اكتشافها نتيجة الشكوك والمخاوف . اذن من اهمية البحث العلمى توفر المناخ اللائق والاطمئنان الذى يحفز الباحث على الابداع والتألق . ونتيجة اهمية البحث العلمى قد تستهدفه مجموعة من المخاوف خاصة من المتعلمين الذين يعرفون اماكن كنوزه ، ويودون احتكارها خوفا من ان يشاركهم الاخرون فيها ، فالدول المتقدمة تخشى اهمية البحوث العلمية التى تقوم بها الدول المتخلفة لكى لاتشاركها كنوز العلم فتشكل خطورة عليها . لان البحث العلمى يؤدى الى الاكتشاف والاختراع الذى يجعل من المتخلف متقدما ، ومنافسا ومصارعا لمن كان سببا فى تخلفه، ولهذا فالدول المتقدمة لاتود لغيرها من الدول ان تكون قوية مثلها ، حتى لاتستوقف توسعها الاقتصادى ، والسياسى والعسكرى ، او تشكل خطورة عليها . وتتضح اهمية البحث بتوفر الاطمئنان لابتوفر الخائف والمخيف ، لان الخائف لايمكن ان يكون باحثا او مخترعا.

وأهمية البحث تتطلب ايضا توفر المصادر، والمراجع ، والمعامل وميادين التجريب التى تستنبط منها الحقائق وتستلهم منها العبر ، حتى لاتكون البحوث العلمية خرافا لاسند له من الحقائق والبراهين .

ان البحث العلمى يساهم كما نعرف فى تقدم الافراد والمجتمعات ، ولكنه يتطلب امكانيات مادية ، وبشرية قادرة ، ومقتنعة باهميته ، ومتطلعة الى نتائجه .

ان اهمية البحث العلمى تستوجب ايضا توفير الظرف الزمانى والمكانى المناسبين للموضوع وللباحث ، لما يتطلبه البحث من تحكم ، وانتباه، وتركيز ، وعزلة علمية (خلوة علمية) والخلوة العلمية تتطلب تهيئة الجو المناسب للباحث بحيث يكون مهيأ للبحث، لامشاغل له، ولا هموم له الا البحث ، وهى تختلف عن خلوة المغارات التى ينتظر اصحابها من السماء ان تدر عليهم اللبن كما يعتقدون ، ونسوا قول الله تعالى:" **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** "(1) وقوله: " **ان اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحا** "(2) وقوله: " **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا**"(3). ولهذا تختلف الخلوة العلمية عن خلوة البكاء والتضرع ، فالأولى ميدان عمل ، انتاجه يراه الله عز وجل ويراه المؤمنون ، وخلوة الباحث هى مكان ادرار تفكيره ، واستنباط معارفه واستيعاب الهاماته ، اما الثانية مغارة كسل وبكاء لا انتاج لها الا الدموع والاهمال . ولا اقصد بذلك الذين يذكرون ربهم ويسبحونه فى الابكار والغداوة والعشى شاكرين

---

(1) التوبة ، الأية ، 105 .

(2) سبأ. الآية، 11.

(3) الكهف ، الآية ، 7 .

له الحمد على ما احاطهم به من نعيم بل اعنى الذين يتكئون على الفراغ وهم فى الهاوية هاوون .

ومن اهمية البحث العلمى ألا يوضع سقف للتفكير الآنسانى. والسقف الذى اعنيه هو وضع كلمة قف امام المبدعين والمفكرين والبحاث التى تجعل المجتمع مكانك راوح ، وبدون تقدم وابداع . وهذا حال المجتمعات المتخلفة ، يطلب منها ان تسير الى الامام دائما، ودائما يضعون امامها اشارة قف ، فكيف يمكن لها ان تتقدم والطريق مسدود امامها ؟ . والبحاث فى هذه الحالة يكونون كمن تضرب له ابرة تنويم ويطلب منه ان يسهر مع الساهرين .

من اهمية البحث العلمى ايضا قبول التعامل مع ما هو كائن والتعرف عليه من اجل اكتشاف اسراره وكسب فوائده . واهمية البحث العلمى تكمن فى عدم حبه للسيطرة ، لان حب السيطرة من طبيعة الانسان لامن طبيعة البحث، وعليه ، ان الذين يعتقدون ان البحث هو وسيلتهم فى السيطرة على الطبيعة مخطئون ، ونسوا ان هذه المهمة ليست من مهمة المخلوق ، بل إنها من مهمة الخالق ، ومهما عمل الانسان على الارض لن يستطيع ان يغير مسارها، ومهما بحث فى الطاقة الشمسية لن يستطع ان يغير مواقيت شروق الشمس وغروبها ، وبرغم اننا عرفنا اسرارا هائلة من الطبيعة الا اننا لم نستطع السيطرة عليها ، لقد عرفنا الصواعق ، وعرفنا الزلازل ، وعرفنا اسبابها واكتشفنا امكانية تفادى مخاطرها ولازلنا نبحث ونحاول ان نكتشف الكثير ، الا اننا لم نستطع السيطرة عليها ، وعليه لن يضمن لنا اى مخلوق عدم ظهورها من جديد، الا اننا نعرف واثقين بان الذى يعلم ذلك هو الذى خلقها وخلق الذى يبحث فيها. يقول الله تعالى:

" اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها وقال الانسان مالها يومئذ تحدث اخبارها بأن ربك اوحى لها " (4) .

مشكلة البحث :

تواجه المهتمين بالبحث العلمى مجموعة من المواضيع التى تحتاج الى دراسات تستوجب جمع المعلومات عنها ، وتحليلها وتفسيرها ، وايجاد الحلول والمعالجات لها ، او على الاقل استطلاع اتجاهاتها ومؤشراتها التى قد تؤثر على حياة المجتمع او على فرد منه او على مجموعة افراد ، وعند اقدام الباحث على تحديد موضوع بحثه قد تواجهه حيرة كبيرة نتيجة تفكيره الجاد فى البحث العلمى ، ومع الحيرة قد يصاحبه قلق شديد يجعل الباحث بين الاقدام والاحجام عن الموضوع . ولهذا ينبغى ان نعرف ان الحيرة هى درجة متقدمة من التفكير العلمى المركز الذى ينبغى على الباحث تقبله وعدم الحياد عنه الى ان يصل بتفكيره المنظم الى الانتباه الذى يقوده الى الاختيار واتخاذ القرار بيقين .

وتحديد موضوع البحث ليس بالامر الهين مما جعل البعض يسميه بمشكلة البحث ، التى تستوجب من الباحث بذل الجهد العلمى من اجل ايجاد حلول تخرجه من الحيرة التى هو فيها ، وتدفعه الى البحث عن معالجات لموضوع دراسته . اذن الخروج من المشكلة تكون بدايته بتحديد موضوع البحث ، وتبيان معالمه الاساسية من تحديد الاسباب الى وضوح الاهداف .
اذن الحيرة هى نتيجة الشك وعدم وضوح التخمينات تجاه الموضوع

---

(4) الزلزلة ، الاية ، 1 ـ 5 .

المستهدف بالبحث ، وهى مرحلة هامة فى التفكير الانسانى عند انتقاله من الشك الى اليقين . ويقال للانسان الذى يضل طريقه بانه حيران نتيجة عدم تحديده الاتجاه الصائب الذى يود السير فيه . وعليه اول مشكلة تواجه الباحث كيف يتخلص من الحيرة التى تعيق تفكيره فى ان يحدد موضوع بحثه . وكيف ينتقل من الشك الى اليقين بان مشكلته تكمن فى القلق الذى يحيط به والغموض الذى يتطلب منه صبرا مكتبيا لاستطلاع ماكتب عن الموضوع قدر الامكان فى مجال تخصصه ، والاطلاع على المعارف المتوفرة لتساعده على صياغة وتحديد مشكلة بحثه ، والتى تنقله من الضلالة الى الهداية . وهكذا يتعلم الهداية والحكمة كمايقول الله تعالى:" **ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** "(5). ولهذا الحيرة مقبولة لان بعدها هداية وتعلم حكمة . ولاتتضح مشكلة البحث اذا لم يلم الباحث بفلسفة الموضوع الذى يود دراسته ، او انه لم يعرفها على الاطلاق ، وتتضح فلسفة البحث باجابة الباحث على السؤال لماذا اختار هذا الموضوع بالذات ؟ ولماذا لم يختر غيره؟.

فاذا كانت الاجابة واضحة فى ذهن الباحث بارتباطها مع وضوح الاهداف والغايات المرجوة منه ، كانت للبحث فلسفة ، واذا كانت له فلسفة ، كان له موضوع ومعنى يستوجب البحث فيه . وعليه يقول دارون : ان تحديد المشكلات البحثية اصعب من ايجاد الحلول لها (6). ولهذا ، وضوح الفلسفة ، ووضوح الاهاف ، وتوفر الامكانيات، ورغبة الباحث واهتماماته ، وتحفيز

---

(5) الجمعة ، الاية ، 2

6- R. Merton ,Notes on problem Finding in Sociology, in 'Sociology today ', 6-1959 . p .4 .

المجتمع للبحاث يذلل كل المشاكل البحثيـة، ويحقق نجاحا علميا رائعا . ولا يعنى ذلك ان كل مشكلة من المشكلات اليومية التى تواجه الانسان تتطلب بالضرورة اجراء الدراسات عليها . ولكن المشكلات البحثية هى التى نتائجها تجيب على طموحات عامة او تظهر ابداعات جديدة او تصحح ملابسات وغموضا .

ميادين اثراء الباحث العلمى :

هناك ميادين ومجالات عدة تساعد الباحث وتزوده بمواضيع علمية يمكنه الغوص فى اغوارها والكشف عن اسرارها . واهم هذه الميادين هى :

1 ـ ميدان التخصص :

بما يوفره من تعمق للباحث وانتباه ، وبما يزوده به من معرفة تسهل له اختيار موضوعاته بتمعن ، وروية ، وثقة ، يمكنه من خلالها استقصاء الحقائق وتبيان اسبابها وغاياتها والمستجدات التى طرأت عليها .

2 ـ الاهتمامات الخاصة:

تختلف اهتمامات البحاث كما تختلف اهتمامات الافراد نتيجة الميول والرغبة وتوفر الامكانيات وممارسة الهوايات الخاصة مما يثرى الباحث بمزيد من المعارف التي تحفزه على البحث وتزوده بالمعلومات التى تمكنه من اختيار موضوع بحثه بثقة .

3 ـ الاطلاع العام :

ان اطلاع الباحث على مايتوفر لديه من معارف وتجارب اجتماعية وطبيعية قد يثير لديه كثيرا من الاستفسارات التى تدفعه الى البحث الجاد وتسهل امامه مجالات الاختيار لموضوع بحثه . سواء باختبار نتائج ودراسات سابقة ، او محاولة الاجابة على استفسارات طرحتها بحوث علمية فى مجالات وميادين مختلفة ، واثارت لدى الباحث افكارا اخرى يمكن من خلالها الاجابة عليها او على بعض منها . ونتيجة الاطلاع العام تزيد معارف المطلعين ويتمكن البعض منهم من معرفة اكتشافات جديدة بما يقوم به من جهود علمية تثرى ميادين المعرفة الانسانية . وكذلك حضور الندوات والمؤتمرات العلمية او الاستماع اليها او مشاهدتها مرئيا ، تزود الباحث بمعلومات جديدة ، قد تثير لديه مواضيع تتطلب البحث والدراسة .

4 ـ ميدان العمل وميادين التدريب :

كثيرا ماتثار استفسارات امام البحاث من قبل الخريجين الذين انخرطوا فى الوظيفة العامة نتيجة التباين بين مادرسوه ، وبين ماهو مطلوب منهم ان يؤدوه كعاملين وموظفين . وكذلك نتيجة للممارسة الميدانية قد تثار قضايا او تظهر مشاكل تستوجب البحث فيها لتفادى معوقاتها ولتذليل الصعاب امام الاداء الناجح ، وهكذا تتطور العلوم النظرية والعملية ويزداد الانسان معرفة وخبرة . ولميادين التدريب والتاهيل الدور الكبير فى تفطين عقل الباحث ، وتوعيته بما يمارسه ، وبما تعلمه ، وبما يتطلبه الواقع، مما يحفزه على البحث ، والاستكشاف الجديد، واختيار مواضيعه بثبات ووضوح .

5 ـ حاجات المجتمع ومتطلباته :

نتيجة الظروف والمتغيرات التى يمر بها المجتمع قد تثار او تطرح مواضيع امام البحاث ، وقد يحدد المجتمع عددا من المشاكل التى تشد انتباه الباحثين وتدفعهم للبحث من اجل التعرف على اسبابها والنتائج المترتبة عليها، او من اجل التعرف على الحلول المناسبة لها ، او قد يثير الراى العام قضايا تلفت انتباه الباحثين وتدفعهم للبحث كلا وفق تخصصه ، واهتماماته ، والامكانيات المتوفرة لذلك.

اذن من خلال ماتقدم يتم تحديد الموضوع واختياره ، بالدراسة المتعمقة ، والملاحظة الواعية ، والمشاهدة الجادة ، التى تستهوى الباحث وتستفزه علميا، وتثير امامه جملة من الاستفسارات التى تحفزه على البحث والدراسة . ويتحدد موضوع البحث بعد الاطلاع الجيد ، والفهم المتعمق لمتطلبات البحث من حيث توفر المصادر، والمراجع الهامة للموضوع ، والامكانيات المادية ، والوقت المناسب لاستكماله ، والاسباب الرئيسية التى دعت الباحث الى اختياره وتحديده ، والاهداف المراد الوصول اليها ، حتى لايكون الموضوع فاقدا للمعنى، او انه بدون فلسفة .

استطلاع الدراسات السابقة

من خلال استطلاعنا للدراسات السابقة وتحديدنا للمفاهيم عرفنا ان الرقم 1 يحمل على ظهره كل الارقام التى تاتى من بعده ، دون ان يحس بثقلها ، لانها محمولة فيه ، فالرقم 2 ، يتم استخراجه من الرقم 1 ، اى ان الرقم 2 ، يعتبر هو المولود الاول للرقم 1 ، فلولا وجود الواحد ، لما وجد الاثنان على الاطلاق ، وهكذا يلد الواحد الاثنين ، ولم تلد الاثنان الواحد ، ومن يخالف ذلك نقول له ، لو ولدت الاثنان الواحد ، لانتهت الاثنان من الوجود الحى ، ولم يبق الا الواحد الذى ولد الاثنين .

وباستطلاع الدراسات السابقة نلاحظ ان العلوم بمختلف ميادينها ومجالاتها وروافدها تصب فى محيط المعرفة الذى يثرى بكل بحث علمي جديد ، وتثرى البحوث هى الاخرى بما ترتوى به من ينابيع المعرفة ، وهكذا تتاثر البحوث الجديدة ، بالدراسات والبحوث التى سبقتها ، وتؤثر فيها ، لان المعرفة واحدة ، وان اختلفت ميادينها ومجالاتها . فلكى يجد الباحث مكانا لبحثه بين البحوث التى سبقته ، عليه ان يطلع عليها قبل كتابة بحثه او اجراء دراسته حتى لايضيع جهده هباء مع هبات العواصف ، فاذا كان بحثه تكرارا لبحوث سابقة لايلتفت القراء اليه ، ولايجد مكانا له بين البحوث والدراسات التى سبقته فى ميدان تخصصه، او فى ميادين اخرى ذات علاقة ، اما اذا تم الاطلاع بوعى ، فان الموضوع يتحدد بانتباه ، ويجد الباحث مكانا لبحثه بين البحوث السابقة . وتعتبر مرحلة استطلاع الدراسات السابقة هامة **مرتين** : الاولى قبل ان يحدد موضوع بحثه، اى اثناء الحيرة التى تصاحبه عند البحث عن موضوع بحثه ، فعندما يكون الاستطلاع واعيا بالقراءة النقدية ، وتفسير النتائج والمعلومات المتوصل اليها من قبل سابقيه . ومن خلال شكه العلمى

الذى يحفزه على البحث عن الحقائق والحلول يستطيع الباحث ان يحدد موضوع بحثه بوضوح. والثانية بعد ان يحدد الباحث موضوع بحثه ، عليه ان ينتبه الى نقاط الضعف التى وقع فيها سابقوه ، من اجل ان يعرف عن بينة كيفية تفاديها فى بحثه لو واجهته اثناء تجميع المعلومات ، او اثناء تحليلها وتفسيرها ، واستخلاص النتائج منها ، ومن خلال مراجعة البحوث والدراسات السابقة بوعى وانتباه قد يكتشف الباحث ان الذى سبقه لأحدى المواضيع لم تكن نتائج بحثه صادقة لفقدانها العلاقة بين فرضياتها ونتائجها ، او ان الخطوات التى اتبعها الباحث لاتؤدى الى النتائج المتوصل اليها نتيجة لتحيز الباحث. او ان النتائج المتوصل اليها والموصى بها قد تم بطلانها بنتائج بحث اخر جديد ، او انه يكتشف ان تفسيراته مخطئة ، لتناقضها مع القوانين الطبيعية والاجتماعية ، التى تحكم الطبيعة والمجتمع . ونظرا للتطور والتغير المستمر فانه ليس بالضرورة ان بعض البحوث السابقة لايكتشف فيها عيب ، فالتقدم العلمى والتقنيات الحديثة ساعدت وتساعد على اعادة بعض الدراسات السابقة من اجل تصويبها وتطويرها . ونظرا لان العلوم تربطها علاقات مع بعضها البعض ، بمختلف تخصصاتها ومجالاتها ، لذلك يكون للاطلاع العام اهمية تفيد الباحث فى استكمال جوانب بحثه وتهيء لبحثه مكانا مرموقا بين البحوث . فاذا كان مجال التخصص هو تطور الفكر الاجتماعى ، مثلا ، فان ذلك يعنى الاهتمام بالجوانب الفلسفية ، والاجتماعية ، والدينية ، والاقتصادية، والسياسية والعسكرية ، نتيجة انتمائها لوحدة الفكر ، وميدان التطبيق الاجتماعى .

الفروض العلمية

يعتبر الفرض تخمينا مبدئيا يستدل به الباحث على ايجاد علاقة بين متغيرين او اكثر ، ولايعد الفرض حكما على الاطلاق الا بعد اثباته ، ولذلك الاشياء المثبته لاداعى لصياغتها فى شكل فروض . لان الاشياء المثبته تعبر عن حقائق ، والحقيقة لاشك فيها . وبالتالى اخضاع المثبت للفرض يعنى الشك فيه مع انه حقيقة فإذا افترض احد البحاث العرب ان هذا الشكل (.) هو نقطة ، هذا يعنى انه يشك أن تكون نقطة نتيجة وضعه لها فى فرض احتمالى . ولكن لان النقطة لم تكن موضع شك لانها مثبته بمثولها امام انظارنا ، وسبق وان استعملت ولازالت تستعمل فى تمييز الحروف من قبل القراء والكتاب ، فإن اخضاعها للفرض لن يهز الثقة فيها لانها مثبته ، ولذلك لاينبغى ان نخضع المثبت للاحتمال الفرضى. بل الفروض ينبغى ان تكون احتمالية الوقوع او الحدوث ، ولا تكون قطعية الاثبات (لاشك فيها) فإذا افترض احد ان الله هو الذى لم يخضع للمشاهدة . فهل يستطيع اثبات عكس ذلك ؟ انه لم يستطع ، لان الله حقيقة لن يخضع للمشاهدة ، لانه مثبت بالوجود ونحس به فى عقولنا ، ونحفظه فى مداركنا ، ويسمعنا ، ولانسمعه ، ونستمع الى اوامره ونواهيه ، " **لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء**"(7) والله مثبت برؤيته لنا ، ولأعمالنا " **والله بما تعملون بصير**" (8) أنه الواحد الذى يعلم ونحن الكثرة التى لا تعلم مايعلمه الواحد " **والله يعلم وانتم لا تعلمون** " (9) وبناء على ذلك لاينبغى ان تكون الفروض

---

(7) آل عمران ، الآية 181 .

(8) آل عمران ، الآية ، 156.

(9) البقرة ، الآية 232 .

قطعية بل ينبغي ان تكـون احتماليـة لان القطعـي مثبت امـا الشـكي محتمـل . وتتضمن الفروض في محتواها قرارا مبدئيا لحل مشكلة او محاولة لحلها ، او تبيان خصائصها وصفاتها مـن خـلال التعـرف علـى العلاقـات بيـن متغيراتهـا والكشف عنها بالبحث المتعمـد ، والتقصـي الهـادف ، والانتبـاه الواعـي الـذي يصـاغ في خطة مسبقة . ولهذا تعتـبر الفـروض هامـة للبحـث كأهميـة العمـود الفقري لجسم الانسان من خـلال انتظـام البحـث فـي فروضــه كأنتظـام الجسـم والتفافه على عموده الفقري.

الفروض العلمية هي التي تحمل ابعاد الموضوع فيها ، وتعتبر تفسيرا مبدئيا له (للموضوع او للظاهرة) اى انها تحمل مضامين التفسير فيهـا مـن خلال تحليل علاقاتها ومستهدفاتها لكي يتم التأكد من ايجابية الاثبات او سلبيته او بطلان الفرض بالنتائج المتوصل اليها . ويكون دور البـاحث هو اكتشـاف هذه الابعاد وتبيانها للاخرين لكي يعرفوا اهميتها واهمية الفروض في التفسـير والتعليل العلمي. وذلك بالوقوف عن وعي على حقائق كانت مفترضة . (10) الفرض العلمي هو الذي تكـون وراءه فلسـفـة حتـى تكـون لـه دلالـة ومعنـى ، وبعد علمي ومنهجي، ويحقق نتائج تهم الذين اجرى البحث من اجلهم . فـإذا اجرى بحث على الفرض القائل : العصا لمن عصـى ، ينبغـي قبل البـدء فـي عملية تجميع البيانات ، وقبل البرهنة على هـذا الفـرض الافـتراضـي ان نتفق على ماهي العصا ؟ ومن هو العاصي ؟ لكي تتضـح الفلسفة من ورائه . نحـن نعرف ان الاشياء العلمية تسـمى بمسمياتها نسبة للطينـة التـي تنتمـي اليهـا ، فالانسان سمى انسانا نسبة الى طينة الانس (طينته) ، والطير الى الطيـور ،

---

(10) سـالم يفوت ، فلسفة العلم المعـاصرة ومفهومهـا للواقـع . بـيروت : دار الطليعـة ، الطبعة الاولى ، 1986 ، ص 220 ـ 224 .

والحيوان الى الحيوانات والجن الى الجن ، والشجرة الى الاشجار وهى الطينة التى ينبغى ان تنتمى اليها العصا باعتبارها عود او فرع شجرة صغير . اذن لماذا لم تنتم العصا الى طينتها ؟ وانتمت الى الفعل الذى تعاقب عليه ؟ الا يكون من وراء ذلك فلسفة؟ فعصا موسى من الخشب يتوكأ عليها " **قال هى عصاى اتوكؤا عليها ، واهش بها على غنمى ، ولى فيها مئارب اخرى، قال القها ياموسى ، فألقاها ، فإذا هى حية تسعى** "(11) حية لعقاب من لم يؤمن بانها اية . اذن العصا وسيلة عقابية لمن يعصى . واذا كانت العصا من الخشب ، فكيف تبتلع عصا موسى حجج الاخرين لو لم يكن من ورائها فلسفة؟ " **فالقى موسى عصاه فإذا هى تلقف مايأفكون** " (12)" **فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق** " (13).

اذن العصا فى هذا الفرض وسيلة عقابية لمن يعصى (لمن لم يطع الاوامر) ولهذا تكون العصا لمن يعصى أمرا وراءه فلسفة ، وهى اية ووسيلة دالة على اظهار القوة فى الوقت المناسب لها ، وهى وسيلة تستعمل بإرادة ضد من لم يطع الحق المبين ، وحتى لا يزهق الباطل الحق ينبغى ان تكون العصا لمن عصى.

ولان الفروض احتمالية قد تصدق تخميناتها وقد لاتصدق ، وبالتالى لايعد العمل بها الا فى ضوء ماتحققه من نتائج . ولهذا يعتبر العمل بها كمشروع مبدئى يقرره الباحث ، ويصوغه بوضوح لكى يتمكن من تتبع خطوات منهجية منظمه تمكنه من اثباته او بطلانه . ومع ان للفروض اهمية

---

(11) طه ، الآية 17 ـ 20 .

(12) الشعراء ، الآية 45 .

(13) الشعراء ، الآية 63

كبرى تجعل الباحث ينتهج طريق بحثه بوعى وانتباه وتنظيم رفيع فى افكاره وتسلسلها العلمى والمنطقى، الا انه ليس بالضرورة ان يكون لكل بحث من البحوث العلمية فروض . فاذا طلب منا القيام ببحث للتعرف على المراحل التى تمر بها اسعار السوق للمنتوجات المحلية فان ذلك لايتطلب بالضرورة وضع فروض والتأكد منها ، وهكذا فى مجال البحوث الاستطلاعية والبحوث المسحية البسيطة . وتوضع الفروض للتأكد من العلل والاسباب التى تكون وراء الظاهرة (موضوع البحث) للوصول الى معرفة الحقائق والعمل على تفسيرها ، واستنباط الحلول المناسبة لها .

وبما ان الفروض تتضمن فى محتواها متغيرات ، فان المتغير الواحد قد ياخذ قيما مختلفة ، ويمكن ملاحظة التغيرات التى تطرأ على قيمه او السلوك المستهدف منه ، وقد ياخذ المتغير الواحد قيمتين فقط كالنوع مثلا (ذكر او انثى) (14). وحيث ان المتغير الفاظ ورموز ذات دلالة بما تتضمنه من معانٍ ومعارف فتكون الفروض هى العلاقة بين المتغيرات . فاذا افترضنا انه : كلما ارتفع المستوى الثقافى ، كلما تحسن المستوى الصحى . اذن هذا الفرض اشتراطى فاذا ثبت هذا الشرط كان الفرض صادقا ، واذا لم يثبت البحث تحسن المستوى الصحى بسبب ارتفاع المستوى الثقافى ، فيكون الفرض خاطئا ، مما يدعو الى اعادة صياغته من جديد ، وحسب ماتوصل اليه الباحث من نتائج . وكذلك اذا افترضنا انه : كلما ارتفع مستوى الدخل ارتفع مستوى التعليم . فان هذا الفرض هو الاخر اشتراطى ، اى انه اشترط ارتفاع المستوى التعليمى بارتفاع مستوى الدخل ، ولكن يجوز ان

(14) مصطفى عمر التير ، مساهمات فى اسس البحث الاجتماعى . بيروت : معهد الانماء العربى ، الطبعة الاولى ، 1989 ، ص 32 .

يثبت البحث بطلان هذا الفرض مما يجعلنا نقول ليس كل تخمين صادقا (ليس كل فرض صادقا) لانه لو كان كل فرض صادقا لما كان لنظرية الاحتمالات وجود ، وما كان بين افراد المجتمع كاذبون او صادقون . وتتضح الفروض عند الباحث باكتمال الاطار النظرى ، الذى يعد الخلفية العلمية الهامة ، والمعبر عن وضوح الموضوع فى ذهن الباحث او البحاث ، ولهذا يستوجب على الباحث ان ينطلق من خلفية علمية واضحة ، لكى يصوغ فروضه بدقة ووضوح متميزين . فاذا قسّم الباحث بحثه الى جزئين ، جزء نظرى واخر ميدانى ، ولتكن احدى فروضه ، كلما قل دخل الرجل كلما قلت فرص العمل امام المرأة . ثم قام باستكمال الجانب النظرى وبدأ فى تجميع المعلومات من الميدان الاجتماعى ووصل الى النتيجة الاتية ان فرص العمل تزيد امام المرأة عندما يقل دخل الرجل . اذا كانت النتيجة هكذا فان البحث قد ابطل الفرض ، وهذا لايعنى ان البحث لاقيمة له بل نتيجة اهمية البحث انه ابطل الفرض القائل (كلما قل دخل الرجل كلما قلت فرص العمل امام المرأة). مما يستوجب تغييره الى الصيغة الجديدة الاتية : كلما قل دخل الرجل كلما زادت فرص العمل امام المرأة . ويعتبر الفرض الاول فى مثل هذه الحالة هو الفرض الاصلى اوالاساسى ، ويعتبر الفرض الثانى الفرض البديل. ويصبح الفرض البديل بعد اثبات بطلان الفرض الاول الفرض الرئيسى أو الاساسى فى البحث ، ويعتبر الفرض علميا بالدراسة المثبتة . وظهور مثل هذا الفرض لم يكن غريبا بل انه مألوف فى العلوم الاجتماعية . لان البحث الميدانى فى هذه الحالة هو تصحيح لفرض نظرى . ونحن سبق وان قلنا ان الفرض هو تخمين مبدئى ، ولن يكون نهائيا الا بعد تجميع البيانات وتحليلها والوصول الى نتائج واضحة ومحددة .

وتنقسم اساليب البحث من حيث الهدف كما يقول سمير نعيم الى قسمين :

القسم الاول :

يهدف الى التحقق من صدق او خطأ فرض معين ، ويتضح هذا النوع فى الاسلوب التجريبى .

القسم الثانى :

ويهدف الى التوصل لفرض يمكن التحقق منه فى دراسة تاليه او لوصف حقائق قائمة(15) . ويتضح هذا النوع فىالاسلوب الاستطلاعى والوصفى . الا ان اتباع المنهج التاريخى يمكّن الباحث من الاستفادة من هذين الاسلوبين الواردين فى القسم الاول والثانى . والفرض يعتبر مقدمة من مقدمات القياس ، ونقطة البدء فى كل برهنة ، والمنبع الاول لكل معرفة ،اى انه المبدا العام الذى يستخدمه الباحث فى تقصى الحقائق(16). اذن الفرض هو الذى يرشد الباحث الى اهدافه ويسترشد به فى تبيان الحقائق من خلال انتظام البحث فى الفرض ، لان الفرض يحمل البحث فى احشائه فمن الفروض تولد البحوث ، ومن البحوث تستنبط الفروض ، وهكذا كل بحث جديد يصبح قديما باكتماله وخروجه الى حيز الوجود ، مما

---

(15) سمير نعيم ، المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية . القاهرة : المكتب العربى للاوفست ، الطبعة الخامسة ، 1992 ، ص 132 .

(16) عبد الباسط محمد حسن ، اصول البحث الاجتماعى . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، 1975 ، ص 160 .

يجعل بحوثا اخرى قد تترتب عليه من اجل استكمال جوانب اخرى تتعلق به ، او من اجل ضحده بحقائق جديدة ، او نتيجة اثارته لقضايا هامة قد تستفز بحاثا اخرين فى مجاله ، او فى مجالات اخرى .

اذن الفرض هو الخيط المنظم للبحث ، وينتسب الفرض للبحث كما ينتسب الخيط للمسبحة ، اى لاتنتظم حبات المسبحة مع بعضها البعض ولاتظهر فى شكل منظم مالم تنتظم فى خيطها اللائق بها ، والذى بدونه تصبح حبات المسبحه متناثرة لاعلاقة بينها . هكذا البحث لايمكن ان تكون له وحدة بنائية تظهره فى شكله اللائق به ، وتميزه عن غيره من البحوث الاخرى ، مالم تكن له فروض خاصة به .

ولهذا ، الفروض هى التى تعطى وحدة للبحث ، والتى بدونها يكون الباحث مشتت الافكار والمعلومات ، اذن ، الفرض هو الذى يتمحور عليه البحث . ويعتبر الفرض بالنسبة للباحث كالضوء بالنسبة لسائق السيارة ، فالفرض هو الذى ينير طريق الباحث اتجاه اهدافه كما ينير الضوء طريق السائق تجاه غاياته ، ويعتبر الفرض تفسيرا مبدئيا للظاهرة او المشكلة (موضوع البحث) من خلال الافكار التى استوعبها الباحث عن الموضوع ، والرؤية التى يعتقدها تبرهن على علله وتحقق اهدافا بينة . وهذا التفسير عبارة عن مقترح مؤقت للموضوع . هناك صيغتان أخريان لصياغة الفروض هما :

1 ـ صيغة الاثبات :

وهى التى تثبت وجود علاقة موجبة او سالبة بين المتغيرات الرئيسية فى البحث ، كأن يفترض البعض : هناك علاقة قوية وايجابية بين الادارة والانتاج . هذه صيغة الاثبات الموجب . ام صيغة الاثبات السالب تنص على: هناك علاقة سلبية بين الادارة والانتاج .

2 ـ صيغة النفى :

وتصاغ باسلوب لايثبت علاقة موجبة ولا سالبة، بل ينفى وجودها على الاطلاق بين المتغيرين الرئيسيين فى البحث ، كالصيغة التى تنص على الاتى : لاتوجد علاقة بين اسلوب الادارة الذاتية ، واسلوب الادارة الحكومية.

هذه فروض مبدئية يجوز ان تثبت مصداقيتها ويجوز العكس ، فاذا ثبتت كانت الفروض صادقة واذا لم فانها لن ، مما يجعل الباحث يعمل على تغييرها واستبدالها بالفروض البديلة .

أهمية الفروض :

مع ان الفروض لم تكن مسلمات الا انها تتضمن دلائل علمية وتفاسير للموضوع تبرهن عن اهتمامات وقدرات جادة فى البحث العلمى المنظم ومن اهمية الفروض الاتى :

1 ـ انها القاعدة الاساسية لتحديد ابعاد البحث والتى يعتمد عليها الباحث فى تفاسيره وتحاليله العلمية ، والتى يبنى عليها البحث بشكله النهائى .

2 ـ تعتبر الفروض المرشد الاساسى للباحث تجاه المنهج الذى يمكن ان يختاره ويساعده على تحقيق اهدافه .

3 ـ تعبر الفروض عن وضوح البحث فى ذهن الباحث ، وقدرته على صياغته وتبيانه للاخرين .

4 ـ تشكل الفروض وحدة البحث وترابطه العلمى والمنطقى وعدم تشتته وتناثر مكوناته ومعطياته .

5 ـ تبين الفروض اتجاهات البحث والباحث ، والتى تتضح بشكل نهائى عند اتمام البحث بصورته الشامله .

6 ـ تربط الفروض المبادئ بالاهداف ، من خلال ربطها المعطيات بالنتائج .

7 ـ تستوعب فلسفة البحث وتحقق اهدافه .

مصادر الفروض :

تتعدد مصادر الفروض نتيجة تاثرها بالمناهل التى ترتوى منها ، ومن هذه المصادر الاتى :

1 ـ **مجال التخصص** : كلما كان الباحث ملما بمجال تخصصه ، وتتبعه لكل جديد يصدر عنه ، من بحوث ودوريات ، كلما كان على وعى وانتباه بخفاياه واسراره التى تستوجب البحث من الحين الى الاخر ، وتولد عنده الجديد .

2 ـ **الاطلاع المتعمق** : كلما زاد اطلاع الباحث كلما زادت علومه وكلما زادت علومه زادت معارفه ، وكلما زادت معارفه زادت خبراته وقدراته واستعداداته ، التى تؤهله للتجديد العلمى .

3 ـ **ميدان العمل** : قد يتعلم الباحث علوما نظرية يستفاد منها علما وثقافة ، ولكن قد يستفيد بالمثل او اكثر من ميادين العمل التى تزوده بمعارف جديدة وخبرات جديدة ، تساعده على البحث وزيادة المعرفة المنسقة والمنظمة وتثير فيه روح التجديد والتوليد العلمى .

4 ـ **التأهيل والتدريب** : كلما تأهل الباحث او تدرب على مجالات جديدة كلما اكتسب خبرة او الم بعلم يطور به قدراته ومواهبه والتى بدورها تولد عنده التطلع الى الجديد والبحث عنه .

5 ـ **الاطلاع العام** : سواء من خلال وسائل الاعلام المطبوعة والمسموعة والمرئية ، او من خلال حضور الندوات والمؤتمرات ، او من خلال القراءة الحرة واهتمامات الباحث ، كل هذه عوامل مثيرة للافكار والجدل الهادف والبناء .

6 ـ **الاحداث والظواهر :** مع ان المعرفة العلمية منسقة ومنظمة الا ان للصدف دورا هاما فى اثارة الانتباه وشد انظار المفكرين والمهتمين والتى بدورها تدفعهم لامكانية التعرف على عللها واسبابها وخفاياها ، وذلك من خلال اكتشاف العلاقة بين متغيراتها .

7 ـ **خيال الباحث :** نظرا لوجود فروق فردية بين الافراد من حيث القدرات والاستعدادات والمواهب، فان من بينهم يظهر المبدعون والمخترعون ذوو الاكتشافات الجديدة . ونظرا لان خيال الانسان لاسقف يحده عن التفكير فان خيال الباحث قادر على ان يتصور وان يثبت مايتصوره للاخرين بالبرهان العلمى عندما تكون خيالاته ثاقبة وهادفه .

شروط الفروض العلمية :

حتى لايحدث الخلط بين ماهو علمي وبين ماهو غير علمي ينبغى ان نراعى اشتراطات العلم عند وضعنا للفروض ومن اهم هذه الاشتراطات مايلى :

1 ـ الايكون الفرض متعارضا مع القوانين الطبيعية والمسلمات البديهية . التى يحتكم الناس اليها .

2 ـ ان تكون الفروض قابلة للاثبات من خلال تقصى معطياتها وتفاسيرها ونتائجها ، والاتكون خيالية غير قابلة للقياس والتأكد العلمى .

3 ـ ان تكون واضحة اللغة والمدلول ، ولالبس فيها حتى لايصاحبها الغموض .

4 ـ ان تصاغ بايجاز ، وتكون لها دلالة ، فالقضايا العلمية ، لاتتطلب الحشو والتعابير الزائدة ، التى تضيع الوقت والجهد ، دون فائدة منها .

5 ـ ان ترتبط الفروض بما سبقها من معارف سواء لاثباتها او لنفيها وعرض البديل او الجديد عنها ، لان للعلم قوانين ونظريات مما يستوجب الانتباه اليها حتى لايقع الباحث فى منزلقات خاطئة نتيجة اتباعه لخطوات خاطئة .

6 ـ الاتكون الفروض متناقضة من اجل الوصول الى اهداف واضحة ومحددة .

7 ـ يفضل الايقتصر البحث على فرض واحد فكلما كان امام الباحث عدد من الفروض كلما فتح مجال البحث امامه (17) .

وبعد ان استعرضنا هذه الشروط كما استعرضها غيرنا من قبلنا ، يحق لنا ان نتساءل : هل تعد هذه الشروط سقفا امام تفكير الباحث والذى نحن نعارض وجوده (السقف) ؟ ام انها نقاط انتباه ترشده الى مايسعى الى الوصول اليه ؟ .

---

(17) المرجع ، السابق ، ص 164 .

منهج البحث

يعتبر المنهج هو الطريق الذى اذا حدد من قبل الباحث لابد وان تكون من ورائه فلسفة ، وتتضح فلسفة المنهج بالاجابة على السؤال لماذا يختلف البحاث او يتفقون فى التعرف على الموضوع الواحد ؟ يختلف البحاث ويتفقون حسب المواضيع ، والفلسفات التى من ورائها ، والاطار المرجعى لكل منهم ، والسبل التى يتبعونها فى تحقيق الاهداف . ولهذا تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع ، فيصبغ المنهج بفلسفة الموضوع ، كما تصبغ الاشياء بالألوان مما يجعل وحدة بينهما لدرجة يصعب علينا الفصل بينهما فالورقة الخضراء من أية شجرة اذا غمرناها مثلا فى محلول كيميائى قد يتغير لونها الاخضر الى لون سماوى او برتقالى او اى لون آخر غير طبيعى كما تحول لون مايكل جاكسون من اللون الاسمر الى اللون الاشقر فأصبح موضوعا بلا منهج لانه فقد فلسفة وجوده باللون الاسمر ، حتى وان كانت له فلسفة من وراء تغيير لونه . واذا غمرنا قميصا ورديا فى محلول كيماوى فإنه سيفقد لونه الذى اصطبغ به ، والذى ميزه عن غيره من القمصان والالوان . وعندما تزال الالوان عن اصولها تصبح كالمواضيع بلا منهج لان المنهج هو الطابع المميز للموضوع او وسيلة ابرازه علميا . من خلال السبل الفنية التى تتبع من قبل الباحث اثناء تجميع المعلومات والبيانات ، واثناء تصنيفها وتحليلها ، وتفسيرها ، وعرض نتائجها فى شكلها النهائى ، ولهذا إذا كان المنهج بلا فلسفة فهو عبارة عن مشروع ارتجالى لم يبن على اسس ثابتة.

ويعتبر المنهج هو الوعى بالموضوع من خلال الوعى بفلسفته وبالخطوات التى تتبع من اجل اكتماله وتبيانه . فإذا سألنا عابر ، ايهما اسرع

حركة الجسم الاثقل او الجسم الاخف ؟ فإذا اجبناه اجابة عابرة كما سألنا عابرا نقول له الجسم الاخف اسرع حركة من الجسم الاثقل . ولكن هل نحن واعون عندما نجيب ؟ لكى نكون واعين ، علينا ان نطرح الأسئلة الآتية ونحاول الاجابة عليها .

هل تتأثر حركة الاجسام بحجمها ام لا تتاثر ؟ اى هل تستوى سرعة جسم يزن 145 كيلو غراما مع سرعة جسم يزن 75 كيلو غراما فى مضمار كرة القدم ؟

هل تتأثر حركة الاجسام بالمسافة ام لا تتأثر؟ اى هل تكون سرعة الجسم واحدة اذا قطع فى المرة الاولى مسافة 200 متر ، وفى المرة الثانية 2000 متر؟

هل الاتجاهات تؤثر على حركة الاجسام ؟ اى هل الحركة الى الامام تساوى الحركة الى الخلف ؟ وهل الحركة من اسفل الى اعلى تساوى حركة الجسم وسرعته من اعلى الى اسفل ؟.

هل الزمن يؤثر على حركة الاجسام ؟ اى هل الذى قضى من الزمن 80 عاما يكون مساويا لمن لم يقض سوى 25 عاما فى سرعة حركته ؟ وهل اختلاف زمن السباق للمتساوين فى السرعة لا يؤثر فى المسافة المستهدفة بالمرور ؟ هل تتأثرحركة الاجسام بنوعية الارضية التى تتحرك عليها ؟ اى هل الحركة على الارض الرملية تساوى الحركة على الارض الممهده ؟

هل المناخ يؤثر على الحركة ؟ اى هل الحركة فى اتجاه الريح تساوى الحركة التى ضده ؟ وهل للحرارة تأثير على الحركة ؟

هل للثقل اثر على الحركة ؟ اى هل كلما زاد ثقل الجسم كلما قلت سرعته الحركية ؟

هل شكل الجسم يؤثر على حركته ؟ اى هل كرة دائرية الشكل وتزن كيلو جراما تسقط قبل من اعلى الى اسفل ام مظلة دائرية الشكل وتزن 3 كيلو جرامات تسقط قبل ؟

كل الاسئلة السابقة تحمل اجاباتها فيها ، نتيجة منهج التوليد الذى حدد متغيراتها والعلاقات المتكونة بينها وتأثيراتها الموجبة والسالبة ، وعناصر الاثبات والنفى المحمولة فيها . اذن طريقة عرض هذه الاسئلة تعبر عن وجود منهج له فلسفة . ويكون المنهج فى هذه الحالة هو الطريق الذى يسلكه الباحث فى تبيان المعلومات والحقائق الكامنة والظاهرة وتوضيح البحث كوحدة واحدة لا انفصام فيها ، وبانسياق ثابت ومحدد . ويكون المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من الفه الى يائه .

المنهج لم يكن قالبا ثابتا لصهر الافكار تحت درجات حرارة عالية وكأنه فرن لإذابة الحديد او الخامات الاخرى الصلبة ، بل المنهج هو الذى يكون قابلا لإستيعاب الجديد ، ويسعى للكشف عنه .

المنهج لم يكن تكرارا روتينيا كما يعتقد البعض الذين يحاولون قصره على دراسة الماضى بالتحليل والتفسير ، او البعض الآخر الذى يقصره على دراسة الحاضر المشاهد . بل المنهج ينبغى ان يرتبط بالزمن لكى يستوعب المستقبل ويتطلع الى افاقه المرتقبة . اذن بالمنهج نستطيع اخذ العبر من الماضى ، ونستوعب الحاضر الجميل من اجل المستقبل ، ولكى لاتكون المناهج تكرارا مملا نتيجة اقتصارها على الجاهز فقط ينبغى ان تكون تطلعية لكى تفتح افاق الابداع امام العلوم باستيعابها تطلعات المجتمع وآمانيه وتتابع

عن كتب مراحل نموه وتطوره وتستوعب التغيرات الطارئة عليه، وان تبحث المناهج دائما عن الجديد والاهم(18).

ان المناهج التى تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكى تجد مواضيع للبحث والدراسة مناهج عقيمة وقوالب جاهزة لاطعم ولارائحة ولالون لها ، فالاهم ان تكون تطلعية لكى تكون سباقة لتحقيق امانى المجتمع وواقية له من التخلف والمرض ومندفعة به الى التقدم والرقى . واخذة الحيطة والحذر من ان ينتكس اذا ماتم علاجه من مرض قد سبق وان وقع فيه وشفى منه . ولهذا لاينبغى ان تقف المناهج عند الذى كان ، او ماهو كائن ، بل ينبغى ان تطلع الى ماهو متوقع.

المناهج العلمية هى المناهج التحسينية التى لا تقف عند قبول الواقع فقط بل تعمل على تحسينه الى ماينبغى أن يكون عليه ، حتى لاتكون بمرور الزمن جامدة او متحجرة لامرونة فيها ، وتصبح هرمة كالعجوز لاحيوية لها، متكئة على عصا لافلسفة من ورائها ، إلا اثبات عدم قدرة من يتكئ عليها، لانها لم تكن عصا موسى عليه السلام.

والمنهج العلمى هو اسلوب فنى ، يتبع فى تقصى الحقائق وتبيانها ، ويحتوى على عناصر التشويق ، التى تحفز القراء على البحث ، وتمكنهم من التعرف على اسراره ، ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض ، بل هى اساليب تختلف بالضرورة من موضوع الى آخر ، ومن باحث الى آخر ، وحسب الظرف الزمانى والمكانى والفلسفة التى دفعت الباحث الى اختيار الموضوع والبحث فيه . ونتفق مع الفيلسوف ديكارت فى قوله "ليس غرضى ها هنا ان أعلم المنهج الذى ينبغى على كل امرئ

Whewell, w. history of the inductive sciences, vol, 11.P.11 (18)

اتباعه من اجل اقتياد عقله على النحو الصحيح ، بل فقط ان ابين الطريق الذى سلكته لارشاد عقلى"(19) . فالغرض من تقديم المنهج هو تبيان النقاط الهامة والاساسية فى استيضاح المعلومات والبيانات ، حتى لايضيع جهد من يحاول البحث فى التخبط العشوائى ، الذى تجاوزه العلم الحديث . ولهذا تتكون للمنهج قاعدة علمية ينطلق منها البحاث ، ويعودون اليها عند الحاجة ، دون ان تجردهم من خصوصياتهم الذاتية ، والموضوعية التى وضحناها عند تحليل المعلومات والبيانات .

(19) عبد الرحمن بدوى ،"موسوعة الفلسفة . الجزء الاول ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، 1984 ، ص 493 .

الفصل الثالث

المنهج التاريخى

التاريخ :

تتضح أهمية المنهج التاريخى بتحديد مقاصده وتمييزه عن التاريخ، من حيث الاستعمال، ويعتبر التاريخ هو الموضوع للمنهج، ومن يريد دراسة التاريخ والتعرف على متغيراته، عليه استنباط منهجه واستعماله فى البحث من أجل المعرفة العلمية. ويعنى بالتاريخ كما ورد فى لسان العرب المحيط هو " تعريف الوقت"(1). وبما أنه "الوقت" فهو المحتوى على الزمن الماضى، والحاضر، والمستقبل، أى أنه الوقت الذى تستغرقه التجارب، والظواهر والحياة بشكل عام، ويعتبر التاريخ السجل العام، والميدان الذى تسجل فيه الأحداث والمستوعب لكل ما يحدث، ولهذا يكون التاريخ ملكا عاما ليس للأحياء فقط بل للماضين وللآتين. إنه المتضمن للمواقف، والظواهر والأحداث التى نعتز بها، ونفتخر بما هو إيجابى فيها، ونأسف على بعض المواقف الفردية السالبة التى ارتكبت نتيجة الطمع والخوف والتقرب زلفى، ومع أنها مواقف سلبية إلا أنها تحتوى على ايجابيات هامة للحياة الحاضرة بأخذها عبرة، وينبغى علينا دراستها لمعرفة أسبابها وتفاديها.

ويعتبر التاريخ هو السجل المفتوح للحاضر والمستقبل والمستوعب للماضى، وبذلك يعتبر ملكا عاما لأنه صناعة عامة، فمهما حاول البعض أن يطمس بعضا من معالمه لم يستطع، لأن البعض الآخر قادر على ابرازها.

وبناء على ذلك يختلف التاريخ عن العلوم الأخرى وفق الآتى:

التاريخ زمن ووقت، والعلوم الأخرى مادة.

التاريخ مستمر ثانية بثانية، والعلوم مستمرة بانتاجها ولم تستمر بوقتها.

---

(1) لسان العرب المحيط، المجلد الأول، ص 44.

التاريخ متصل زمنا وأحداثا، والتشبيه التقريبي لذلك هو المسبحة، الذى يعتبر الزمن خيطها المتصل وحباتها أحداث يحملها الزمن، وبذلك تكون العلوم كحباة المسبحة ويكون الزمن هو الحامل لها.

وعليه يكون التاريخ زمن ومحتوى، والزمن بدون محتوى يعتبر فراغا، والمحتوى بدون زمن استحالة. ويصبح الزمن كموجود علة وجود المحتوى فلولا الزمن ما كان المحتوى، ولولا المحتوى ما صنعنا تاريخا.

اذن يتكون التاريخ الذى نقصده من زمن، ومحتوى، وبالزمن يحدث المحتوى، وبالمحتوى يراجع الزمن، وكلاهما فى زيادة مستمرة الا أن الزمن متصل، والمحتوى منفصل، ومن الزمن والمحتوى تتحقق الحياة التى هى الفترة المؤقتة من التاريخ بالنسبة للأفراد، وهى الدائمة بالنسبة للأفعال التاريخية، مصداقا لقوله تعالى : "ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون(2)لأن الأفراد يعيشون فى الدنيا لفترة بسيطة وينتهون من الوجود. أما الأعمال الخيرة تبقى، وصدر التاريخ خير حافظ لها، ولهذا الذين ضحوا بأجسادهم فى سبيل الحق والآخرين أحياء عند ربهم فى الآخرة وأحياء عند التاريخ فى الدنيا وتعتبر الحياة هى العيش فى التاريخ. ولهذا قيمة التاريخ بحياته، مما جعلنا نقول حياة التاريخ عبر " **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**"(3). أى لقد كان فى تاريخ الأنبياء والأمم السابقة عبر كثيرة يمكن الاستفادة منها اذا استطعنا استقراء التاريخ وفهمه واستنباط العبر منه.

---

(2) آل عمران، الآية 169.

(3) يوسف، الآية 111.

وقد عـرف هومـر هوكيت Homer.Hockett التـاريخ بأنـه " السـجل المكتوب للماضى والأحداث الماضية"(4).

اذا اعتمدنـا علـى هذا التعريـف فيكون التـاريخ مـاضيـا أى أنـه وقـع وانتهى، أى أن السجل التاريخى قـد امتـلأ بـالأحداث، وقفل، واذا سلمنا بهـذا يعنى أننا سلمنا فى زمنى الحاضر والمستقبل اللذّين يعدان من مكونـات الوقت الذى عرف به التاريخ كما سبق ذكره.

وايضـا اذا سلمنا بأن التاريخ هو السجل المكتوب، مـع أننـا نعـرف أن التنقيب عن الآثار والبحث عن الحفريات لازال مستمـرا، وكل عثور علـى أيـة بصمات حملها التاريخ، أو جسدها يتم تسجيله فى الزمن الحاضر مع أنه وقـع فى الزمن الماضى ليأخذ مكانا له مع التـاريخ المكتـوب، وبمـا أننـا نعـرف أن التاريخ الذى وقع فى الزمن الماضى لم يتم اكتشافه كـاملا. اذن لا داعـى بـأن نعرف التاريخ بأنـه السـجل المكتوب للمـاضـى والأحـداث الماضيـة، وبمـا أن الدنيـا لـم يقفل سـجلها، اذن بـالضرورة لـم يقفل سـجل التـاريخ، ولا تنتهـى الأحداث، وبما أنها كذلك فإن التاريخ لم يكن سجلامقفلا. بل يكون التاريخ هو السـجل العـام المفتـوح، والميـدان الواسـع الـذى يسـتوعب الأحـداث فـى زمـن وقوعها، سواء كانت هذه الأحـداث قد وقعت أو تحت القيـد أو لـم تقـع بعـد، وسواء كانت مكتوبة أو لازالت فى صدور الرواة أو أنها لم تكتشف بعد، ممـا يجعل السـجل التاريخى دائما مفـتوحا، ويجعل التاريـخ حاضر الماضين، واذا تساءل البـعض كيف؟ تكون الإجابة مـا ندرسه نحن كمـاضٍ يعتبـر للماضين حاضرا أى أن حاضر الماضين هو ماضيا بالنسبة للحاضرين.

---

(4) Homer. Hockett, the critical. methed in historical research and wzition. new youk: the mac millan co, 1968, p,3.

ويقول ابن خلدون " يعتبر التاريخ معمل التجارب الهائل الذى تسجل فيه تجارب الانسانية، والمتحف الطبيعى للظواهر فى مختلف درجات تطورها، والتاريخ يتكفل بعرض تجارب الانسانية بصورة منوعة، قابلة للنقد، والتفسير فى ضوء التجارب، والمشاهدات الحديثة"(5).

يوضح هذا التعريف مرونة التاريخ ورحابة صدره فى تقبل النقد والتفسير لما يحتويه سجله الملىء بالتجارب والظواهر الماضية وعلاقتها بالمشاهدات والتجارب الحديثة بفتحه صفحاته أمام الاكتشافات الحديثة. إلا أن كلمة معمل صغيرة جدا على التاريخ، انه أوسع من ذلك بكثير لأنه ميدان الحياة وسجل نتاجها. انه الزمن والمحتوى والحياة.

وللتاريخ بصمات يمكن مشاهدتها والتعرف عليها وعلى ما وراءها. فدلائل التاريخ كثيرة، ومن خلالها يمكن معرفة الوقت الذى انتجت فيه والعهد الذى تدل عليه، والفن الذى تميزت به. واذا عددنا شواهد التاريخ لا تحصى، الأثار، والحفريات بمختلف أنواعها، والمخطوطات والتماثيل، والنقوش، والزخارف، والكتب، والمطبوعات كلها دلائل يمكن دراستها وملاحظتها والاستشهاد بها. فاذا أخذنا المساجد كشاهد فى أى منطقة من المناطق أو اذا عثرنا على آثارها فى أى بقعة من العالم فعلى ماذا تدل؟.

انها تدل على انتشار الدين الاسلامى وأن هناك مسلمين فى تلك البقاع أو أنهم كانوا. فى روسيا بعد الماركسية منعوا المسلمين من الصلاة فى المساجد الا أن المساجد بقيت ماثلة يمكن مشاهدتها علامة دالة على انتشار الاسلام، وفى المانيا الشرقية سابقا عندما كانت تحت الحكم الشيوعى منعت هى الأخرى الصلاة فى المسجد وحولت مئذنته إلى خزان للمياه، ومع ذلك

---

(5) عبدالرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 17.

بقى الى اليوم علامة دالة علـى أن هنـاك مسـلمين فـى برليـن الشـرقية سـابقا. وبهذا يصدق قول ابن خلدون أن التاريخ " فى ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمق لها الأقوال، وتصـرف فيها الأمثال، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها(6).

ونتساءل:هل هناك فرق بين التاريخ والمنهج التاريخى؟

نعم. فالتاريخ كما بيناه بأنه ميدان عام تنهل منه كل العلوم، وتعتمد على سجله فى البحث والدراسة. وهناك فرق فى هذا الخصوص بين التاريخ، والدراسات التاريخية المتخصصة. فالتاريخ ملك عام لكل العلوم والميدان الذى يستوعبها وتثريه ويثريها. أما الدراسات التاريخية المتخصصة تستهدف التعرف على فترة أو فترات حسب اهتمامات البحاث، وكثيرا ما تكون دراسات للأحداث والمواقف الفردية والجماعية، وكل الدراسات التاريخية عبارة عن جزء من بقية العلوم التى تشكل جزءاً من التاريخ، وعادة تكون الدراسات التاريخية للتنقيب عنها وتبيانها للاخرين. وقد يكون المؤرخ ناقلا أو سرديا، وحسب الأداة المستعملة من قبله فى تجميع البيانات وحسب تقصيه للحقيقة يتم عرض ما وصل اليه " وهو تحصيل حاصل " وقد يحدث التحريف لبعض المعلومات من قبل بعض البحاث لأسباب ذاتية، أو أسباب سيادية أو نتيجة تأثير أداة الحكم على المعلومات أو على الباحث، من هنا تحدث محاولات تزوير فى التاريخ لكنها صعبة جدا لأن التاريخ لا يمثله أحد لأنه ملك عام وليس للحاضرين فقط بل للاحقين والسابقين، مما يجعل الأجيال قادرة على تصحيح ما يعلق به.

---

(6) المصدر السابق، ص 71.

المنهج التاريخي :

هو الطريق الذى يختاره الباحث فى تجميع معلوماتـه وبياناتـه العلميـة فى دراسة الموضوع، والذى يسلكه فى التحليل والتفسير، وتبيان الحقائق ولأن هذا المنهج موضوعه الواسع هـو التـاريخ، فيكـون المنهـج هـو الطريـق الـذى يربط بين الحاضر والماضى والمتوقع. انه المنهج الاستقصائى فى الدراسـات العلمية، والاجتماعية، والانسانية، أى أنه لم يقتصر على الدراسـات التاريخيـة كعلم التاريخ فقط بل أهميته تسع دراسة كـل العلوم، ولكـن لمـاذا أطلـق عليـه المنهج التاريخى؟.

ان ذلك لا يعنـى ارتباطـه بالدراسـات التاريخيـة " علـم التـاريخ " كمـا يعتقد البعض، بل لوضوحه فى التاريخ العام الـذى يعتـبر علـم التـاريخ جـزءا منه، مما جعله يرتبط بكـل العلـوم وجعـل العلـوم بمختلـف تخصصاتهـا تسـلك طريقه فى التعرف العلمى. ولذلك يكون المنهج التاريخى هو الطريـق العلمـى المتفحص الذى يتبعه الباحث أو يسلكه بنور التاريخ، والإهتداء به الى غايـات المعرفة العلمية.

ويعتمد المنهج التاريخى على أدلة وأدوات، ومصادر يمكن اسـتعمالها بعد التأكد منها، وهو لا يعتمد كما يتصور البعض على السرد والنقل بل علـى التفحص، والقياس المعتمـد علـى قوانين اجتماعيـة أو طبيعيـة ممـا يجعلنـا أن نطلق عليه طريق العلوم، وجعل د. سمير نعيم يقول: " ان أى بحث مهما كان الأسلوب المتبع فيه لا غنى له عن الاستعانة بمعطيات المعرفة التاريخيـة"(7). لأن التاريخ ملىء بالتجارب والبراهين، والحجج، والمعالجـات، والعبر، وكـل

---

(7) سمير نعيم، المنهج العلمى فى البحـوث الاجتماعيـة. القـاهرة: المكتـب العربـى للأوفست، الطبعة الخامسة، 1992، ص 130.

هذه تفيد كل باحث وهو فى حاجة لأن يعرفها. لأن دراسة أى ظاهرة أو مشكلة لابد وأن يكون لها تاريخ، ونتيجة لذلك ظهرت أهمية المنهج التاريخى فى العلوم بشقيه النظرى والتطبيقى.

أى ظاهرة أو موضوع، أو مشكلة وفى كل العلوم لابد وأن لها تاريخا، ففى حالة التعامل معها والتعرف عليها علميا لابد من معرفة أسبابها وعللها واذا تتبعنا ذلك بتمعن نجد أنفسنا نسلك طريقا منيرا بالتاريخ فى اتجاه الأهداف، ومن هنا يتضح أن المنهج من التاريخ ويسند إليه، فيكون تاريخا. وعليه اذا أردنا معرفة الأسباب لأى موضوع أو ظاهرة ينبغى معرفة التاريخ، لأن فى التاريخ تكمن الأسباب، وفى الأسباب تكمن الحلول.

ولم يكن الغرض من اتباع المنهج التاريخى سرد المواقف، وتكرارها من باحث الى آخر أو حفظ ونقل القصص والروايات، بل الهدف هو التعرف عليها وتفحص عبرها وتبيانها للآخرين واستخلاص القوانين الاجتماعية وآليات حركة المجتمع والطبيعة، والتغيرات التى طرأت عليها أو تأثرت بها، والتعرف على النتائج التى تفيد التفسير العلمى، وأخذ العبر منها.

صيغ المنهج التاريخى :

هناك صيغتان هامتان للمنهج التاريخى هما :

1- صيغة الزمن.

2- صيغة الموضوع.

ولتوضيح ذلك أتناول كلا منهما على حدة :

1- **صيغة الزمن :** ويقصد به الهيئة التى يبنى عليها الباحث بحثه تتعلق بالتتبع الزمنى ويتحدد طريق الباحث أو منهجه فى اعتماده على الزمن، وتتبعه له حتى يجيب على الأسباب أو الافتراضات التى حددها كمنطلقات لتحقيق أهدافه العلمية. وتنقسم هذه الصيغة الى قسمين :

أ - دراسة الظاهرة أو الحدث أو الموضوع من الماضى الى الحاضر وذلك بعد تحديد فترة البحث أو الدراسة، وتحديد نقطة البداية من الزمن الماضى وحسب الموضوع " موضوع البحث " مما يجعل أسباب الموضوع كامنة فى الماضى وأهدافه واضحة فى الحاضر، وغاياته ماثلة فى المستقبل.

وهذه تختلف عن أسباب اختيار الباحث للموضوع. فأسباب الموضوع شيء وأسباب اختيار الباحث له شيء آخر.

فاذا افترضنا الموضوع هو " الظروف التى جعلت الاستعمار يتكرر فى الوطن العربى، أو فى قطر منه". فإن صيغة المنهج هنا ترتبط بتحديد بداية الاستعمار أى تحديد الزمن. ولكن يركز الباحث خلال تلك الفترة على الظروف والمعطيات التى سادت المجتمع العربى أو قطرا منه وهيأته للإستعمار، ثم يأتى حسب التتبع الزمنى الى دراسة الفترة الثانية التى عاد فيها الاستعمار للوطن. ويهتم بدراسة ظروفها، والمتغيرات التى كانت فيها، ثم

يقارن بين الفترة السابقة وظروفها لتتضح أمامه اشتراطات دخول الاستعمار، وهكذا يأتي من الماضى الى الحاضر وهو ينتقل الينا من خلال التتبع الزمنى المتواصل للموضوع لكى يبين لنا تلك الظروف والاشتراطات والتى اذا ظهرت أو تكررت يعود الاستعمار. مما يجعل المجتمع يتفادى تلك الاشتراطات وذلك بأخذ العبر من الماضى ولتأمين المستقبل منه.

ب – دراسة الظاهرة ،أو الموضوع من الحاضر الى الماضى: وهذه تتطلب عودة الى الزمن من خلال دراسة الأحداث التى وقعت فيه بتسلسل وقت حدوثها.

فإذا اعتبرنا الموضوع السابق هو موضوع البحث وهو الظروف التى جعلت الاستعمار يتكرر فى الوطن العربى، أو قطرا منه". ولو حددنا هذا القطر بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى وبدأنا الدراسة فى الوقت الحاضر، ونهتم بدراسة الظروف التى جعلت القواعد الاستعمارية تستمر فى ليبيا حتى سنة 1970 ثم نتتبع ذلك الى معرفة الظروف التى أوجدت الاستعمار الايطالى عام 1911. ودراسة الظروف التى جعلت الاستعمار التركى يجثم على التراب الليبى بعد خروج فرسان مالطا عنه عام 1551 ومقارنة تلك الفترة مع الفترات السابقة واللاحقة لها، أى مقارنتها مع الظروف التى أوجدت الاستعمار الايطالى، والقواعد الأمريكية والانجليزية والاحتلال الفرنسى لجزء من الجنوب الليبى كفترات لاحقة، ومقارنتها مع الفترات السابقة، وهى الاحتلال المالطى، والأسبانى الذى خرج

بقوة السلاح كغيره من أنواع الاستعمار لليبيا سنة 1510، ثم دراسة الظروف التى جعلت أطماع أمريكا فى احتلال ليبيا عام 1805، وهكذا يستمر البحث والتتبع الزمنى فى دراسة الظواهر والظروف، والمشاكل والمواضيع مع مراعاة الفترة الزمنية المستهدفة بالدراسة(8)، ولهذا كانت دراسة الموضوع منطلقة من الحاضر الى الماضى فى تتبع وتسلسل زمنى واضح.

2- **صيغة الموضوع :** كثيرا ما نجد هناك تشابها فى المواضيع وكثيرا ما نجد وحدة بين المواضيع مع أن زمن حدوثها غير متصل من الناحية الزمنية مباشرة أو أنها لم تقع فى مجتمع واحد، ولا أرض واحدة، ولا زمن واحد، ومع ذلك تظهر بنفس الظروف، والمعطيات،هذه التى تستوجب البحث عن طريق الاتصال الموضوعى. أى وحدة الموضوع هى التى أوجبت الربط.

وقد يتبع الباحث طريقة دراسة الموضوع من الحاضر الى الماضى أو بالعكس كما تم توضيحه، وذلك بالاعتماد على الصلة الموضوعية وليس على الصلة الزمانية.

فلو افترضنا أن موضوع البحث هو (أسس تنظيم المجتمع الفاضل) وبدأنا بما هو متوفر لدينا فى المجتمع العربى، وحددنا المجتمع العربى الليبى واعتمدنا على النظرية والمحاولات التطبيقية التى تستهدف تنظيم مجتمع فاضل، وانتقلنا الى دراسة المدينة الفاضلة عند ابن خلدون والفارابى،

---

(8) عقيل حسين عقيل، الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع الجماهيري . طرابلس : جامعة الفاتح ، 1992 ، ص 16.

وابن مسكوية، ثم افلاطون، وأرسطو، وسقراط، وبركليس، وكليتنيس، وسولون. فإن الذى ربط بين هذه المحاولات هو الموضوع وليس المجتمع الواحد، والأرض الواحدة ولا الدين الواحد، ولا الزمن المتصل بينهما. ويعتمد المنهج التاريخى على التحليل المنطقى والعلمى فى تفسيره للظواهر، والأحداث ويركز من خلال ذلك على النقد البناء الذى يزيل الشكوك ويثبت اليقين، ولهذا المنهج التاريخى هو منهج المعلومة الواضحة سواء كانت مسلمات، أو قوانين أو حقائق أو نتائج بينة.

أدوات المنهج التاريخى :

من أهم أدوات المنهج التاريخى الملاحظة والمشاهدة، والمقابلة، والاستبيان لأن للتاريخ شواهد وأدلة يمكن التأكد منها، ولم يكن خرافات لا أساس لها من الصحة، فالخرافات لا أدلة ثابتة لها مما يجعل صعوبة فى تتبعها واختبارها وبالتالى لم يكن التاريخ الذى له السند العلمى الثابت، وكل شيء لم يكن له سند وأدلة يعتبر خرافة. ولأن التاريخ لم يكن الشيء المجرد كما سبق وأن حددنا معالمه بالزمن، والمحتوى، والحياة، اذن الخرافات لم تكن التاريخ لأنها بدون محتوى، وبدون حياة حتى وان كان لها زمن النسيج والتكرار. وعليه كل ظاهرة أو حادثة أو رسالة وقعت يمكن بالتتبع التاريخى العثور عليها، أو على معالمها، أو مؤثراتها، فالوثائق مادة، والمخطوطات مواد للباحث العلمى يمكنه الاستناد اليها، والتحقق منها. المتاحف وما تحتوى عليه من مواد دالة على أحداث وحضارات وثقافات، تعتبر أدلة وشواهد يمكن ملاحظتها ومشاهدتها والتحقق منها. وهذا يعنى أن التاريخ قادر على الاحتفاظ بالبصمات والأدلة، وأن المنهج التاريخى قادر على البحث عنها واستقرائها والتميز بين بصماتها والتحقق منها لأن الآثار مواد دالة على

معان، فالحدث، أو الظاهرة، أو الحضارة تقع فى فترة من التاريخ، وقد تنتهى، إلا أن دلائل وجودها تبقى ماثلة أمام المشاهدة، والملاحظة كوسيلتين علميتين يعتمد عليهما الباحث. وعليه إن الذين يعتقدون أن المنهج التاريخى يعتمد على السرد والنقل، مخطئون فشواهد المنهج التاريخى لا تختلف عن شواهد المنهج التجريبى، الذى يعتمد على المشاهدة والملاحظة.

فالجيولوجى يعتمد على التجريب كثيرا لدراسة الأرض ومكوناتها من أجل التعامل مع كل مرحلة، وعلى الأعماق الممكنة، أى أنه يدرس التربة والأحجار، والمعادن ويدرس أعمارها، ويبحث عن تاريخها، وكذلك الباحث الجغرافى الذى يدرس المناخ، والسطح، والطبيعة، والتغيرات التى طرأت عليها، إن ذلك يستوجب اتباع المنهج التاريخى فى المقارنة واثبات الحجج بالشواهد. وكذلك للتاريخ شواهد يمكن ملاحظتها ومشاهدتها.

لقد احتل الرومان ليبيا منذ زمن قديم، ومن يكذب ذلك عليه زيارة ليبيا لمشاهدة وملاحظة آثاره فى مدينتى لبدة، وصبراته. ان بيت المقدس محتل الى هذا اليوم ومن يكذب ذلك أو يريد أن يتأكد عليه زيارة الأرض المحتلة " فلسطين". وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات، وأن الرسالة باقية ومن يريد أن يتأكد عليه بزيارة بلاد المسلمين ليشاهد الكتاب، والمساجد، والقراء، والمتعبدين، وأن يزور بيت الله، وقبر الرسول صلىالله عليه وسلم اذا دخل الايمان قلبه. ان باليمن سدا عظيما بفنه، وهندسته وتاريخه، فمن أراد أن يتأكد منه عليه زيارة اليمن السعيد ليشاهده، ويلاحظه اذا كانت ثقته مقتصرة على المشاهدة والملاحظة وكأنهما غايتين فى حد ذاتهما. اذن المتتبع للمنهج التاريخى يمكنه مشاهدة، وملاحظة ما يحمله التاريخ من شواهد عندما تتوفر دلائلها، وتعتبر المشاهدة، والملاحظة من الأدوات المهمة فى دراسة التاريخ. ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد " إن الأخبار اذا اعتمد فيها على

مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الانساني، ولا قيس الغائب بالشاهد، والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور وزلة القدم والحيد عن جادة الصدق(9)، اذا مهم جدا أن نربط الحاضر بالسابق. وأن نقارن بين المعطيات والدلائل، وللتأكد من التاريخ المدروس " قيد البحث"، أو المكتوب قد يتطلب اجراء مقابلات مع من لاحظوا أو اشتركوا أو شاهدوا. فإذا أردنا دراسة تاريخ عمر المختار، بما أنه مجاهد وشهيد، فانه من الأفضل للباحث إجراء مقابلات مع من تبقى على قيد الحياة من مجاهدين أو الذين عايشوا فترة جهاد عمر المختار، ومقارنتها مع أقوال كل الذين يتم الالتقاء بهم، ومع ما كتب عنه، أو قاله، هذه الوسيلة هامة في دراسة التاريخ القريب. لأنه ليس بالامكان دراسة كل التاريخ أو التأكد منه عن طريق المقابلة، ولكن يجوز لجزء منه. مثل الثورة الجزائرية يمكن دراستها عن طريق المقابلات مع المجاهدين الأحياء. لأن الإنسان دائما أكبر دليل على إثبات الحقائق عندما تتعلق بالموضوع، ولكن قد يشوبها شيء من الشك إذا كانت متعلقة به مما يستوجب على الباحث أخذ الحيطة بجعل ما يقوله الفرد عن شخصه ليس يقينا ويكون خاضعا للاختبار.

ويكون هذا ردا على بعض أساتذة علم الاجتماع، وهم قلة لعدم ثقتهم في التاريخ والمنهج التاريخي بحجة عدم التسليم فيما تقوله أو تنقله مصادر البحث المعتمدة على أقوال الإنسان. ولكن اذا تساءل البعض في ماذا اذن يثقون؟.

---

(9) عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار الكتاب اللبناني، المجلد الأول، 1986، ص 12.

يجاب : انهم يثقون فى المنهج التجريبى الاجتماعى. وبما أنه تجريبى اجتماعى إذن مصدره فى المعلومات الإنسان. ومن هنا نتساءل هل الإنسان واحد أم إنه إنسانان واحد للتاريخ وآخر لعلم الاجتماع؟ بالتأكيد الإنسان واحد ولأنه واحد إذن كيف لا نثق فيه فى دراسة التاريخ، ونثق فيه فى دراسة علم الاجتماع؟.

واذا كان الشك فى الإنسان كمصدر للمعلومات إذن الشك وارد فى كل باحث باعتباره أيضا سيكون مصدرا للمعلومات، وإلا هذا البعض كمن يمتلك حق الفيتو، يحق له أن يفعل ما يشاء ويحق له حرمان الآخرين منه. مما يجعلنا نقول إذا كانت هناك أحقية للفيتو في الميدان العلمى يجب أن تكون للتاريخ.

وأذا أردنا أن نتفحص استعمالات المشاهدة والملاحظة، والمقابلة فى التحاجج معهم فأيهما أصدق للمشاهدة والملاحظة وأيسر، أن تلاحظ، وتشاهد سد مأرب، أم تشاهد وتلاحظ سلوك منحرف يعرف أنه تحت البحث والدراسة؟.

ان المنهج التاريخى عند استعماله من قبل الباحث فى تجميع المعلومات عن سد مأرب، فإن إخضاع السد من قبله للمشاهدة، والملاحظة وكتابة كل ما يتراءى له أيسر بكثير من إخضاع حقيقة الإنسان للمشاهدة والملاحظة التى يعتمد عليها الأمبريقى. لأنه من الممكن مشاهدة سلوك الإنسان، وملاحظته، ولكن من الصعب التسليم بما يلاحظ عنه. إذن أيهما أصدق وأيسر مشاهدة وملاحظة حقيقة الإنسان من خلال سلوكه، أم سد مأرب وما يحتوى عليه من جهد وفن، وعلم؟.

واذا استعملت وسيلة المقابلة فى التحاجج أيهما أصدق: ما يقوله مجاهدون عن جهاد عمر المختار، باعتبارهم عاصروه وجاهدوا معه، أو ما

يقوله المبحوثون عند اجراء المقابلات معهم عن سلوكهم الإنحرافى؟. أعتقد أن ما يقال عن جهاد عمر المختار من قبل المجاهدين الأحياء الذين جاهدوا معه أصدق بكثير عما يقوله المنحرف عن شخصه.

ومع أننا حددنا أسلوب المقارنة فى الاستفسارين السابقين إلا أنه يصعب مقارنة المناهج البحثيه مع التاريخ لأنها لم تستقل عنه تماما حتى التى تدعى بذلك لا يحق لها هذا الادعاء سواء كان المنهج التجريبى، أو دراسة الحالة، أو المسحى جميعها تبحث فى التاريخ كميدان وسجل عام مفتوح يعتمد على الزمن والمحتوى والحياة. والى جانب ذلك لا يمكن لأى منهج من المناهج العلمية أن يستغنى عن معطيات المعرفة التاريخية، والتى يؤكدها الدكتور سمير نعيم فى قوله:" إن أى بحث مهما كان الأسلوب المتبع فيه لا غنى له عن الاستعانة بمعطيات المعرفة التاريخية بالمجتمع "(10). ولذلك يكون الإتجاه الامبريقى الذى يهتم بالزمن الحاضر، ولا يهتم بالماضى كثيرا لم يعرف أن الزمن الحاضر عبارة عن نقطة لا إتساع لها ولا ميدان إلا الماضى والمستقبل. فإذا أردنا أن نميز الزمن من خلال الكلمة نجد أن الزمن الحاضر هو زمن نطقها، والزمن الماضى مباشرة بعد اتمام نطقها، أو إخراجها أما المستقبل فيكون لكل الكلمات التى ستبنى عليها، ويكون الزمن كالحبل ما جذب منه أصبح ماضيا، وما لم يجذب بعد يكون فى المستقبل، وما هو على البكرة هو الحاضر، ولهذا كل الزمن لابد وأن يمر على الحاضر كبكرة لجر الحبل عليها. أى أن ما يعتقده البعض فى الحاضر عليهم أن

---

(10) سمير نعيم، المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية. القاهرة: المكتب العربى للأوفست، الطبعة الخامسة، 1992. ص 130.

يعرفوا ضرورة وقوعه فى الماضى سريعة جداء وإذا أنكروا الماضى، فإنهم أنكروا حاضرهم بالضرورة. وبما أن ذلك يرتبط بحياة الانسان، فإن حياة كل الناس لا تتكون إلا بالزمن الماضى والزمن الحاضر، أما المستقبل لم يكن فى حياة الناس لأن مستقبل الناس بعد الموت وهو المستقبل المعروف، أما ما دونه بالنسبة للإنسان لا يمر إلا بزمنين هما الماضى، والحاضر.

وبناء على ما سبق: إن ملاحظات ومشاهدات الامبريقى بعد اكتمالها ستقع فى الزمن الماضى بالضرورة الطبيعية. وان دراستها لأى ظاهرة أو سلوك فيما يسمونه بالوقت الحاضر لا قيمة ولا محتوى له إلا بالماضى، لأنه لأى موضوع تاريخ، يتراكم فيه، وينعكس فى سلوك والذى يستوجب من الباحث معرفته، إذا أراد أن يتعرف على العلل والأسباب التى تفيده فى التغير العلمى والتحليل بأمانة، والوصول الى نتائج وحلول من وسط الموضوع لا من خارجه.

علاقة المنهج التاريخى بالمناهج الأخرى :

تتداخل المناهج مع بعضها البعض من حيث أنها طريق علمى واضح المعالم فى دراسة المواضيع، والتى تكون نقطة بدايته الأسباب، ونقطة نهايته الأهداف، ولم يكن من الضرورة أن تستقل كل دراسة أو بحث بمنهج معين، بل قد تتداخل المناهج فى الظروف والمشاكل والمواضيع، وذلك من أجل استكمال جوانب البحث أو الدراسة، ولتوضيح ذلك أتناول الآتى:

1- علاقة المنهج التاريخى بالمنهج المسحى :

كلا المنهجين يبتدئان بتحديد الموضوع، واتباع خطوات البحث العلمى فى استكمال دراسته أو بحثه فقبل بداية الباحث باجراء البحث الميدانى يعود

من الناحية النظرية والعملية باستطلاع الدراسات السابقة، ليطلع على تلك الجهود، والمحاولات العلمية فى مجال بحثه أو تخصصه، والتعرف على الأصول التاريخية لموضوع دراسته، والتى تعتبر منطلقا علميا للتراكم المعرفى والزاد العلمى من خلال الاكتشاف والاختراع الذى يعتبر نتاجا علميا جديدا، ومنطلقا لدراسات أخرى.

وبما أن كل ظاهرة أو موضوع هو نتاج أسباب متعددة وهذه الأسباب قد وقعت فى الماضى وتجمعت مع بعضها الى أن أظهرت لنا سلوكا شاذا أو حميدا وذلك حسب النتائج المترتبة على كل منهما مما يجعل أهمية الإستطلاع والاستبيان فى تحديد علله بحيث نتمكن من ترسيخ الحميد والخير منها، وتفادى أسباب الانحراف والشذوذ. ومثل هذه المواضيع يساعدنا المنهج المسحى على دراستها فى ميدان ظهورها.

2- علاقة المنهج التاريخى بمنهج دراسة الحالة:

يهتم منهج دراسة الحالة بالبحث المتكامل فى تناول المواضيع العلمية، وقد تكون الحالات المبحوثة تحتاج الى وقت طويل وتتبع دقيق من قبل الباحث، وقد لا تحتاج الى وقت طويل وذلك حسب موضوع البحث. وبدون شك إن لكل حالة أسبابا لظهورها أو وجودها، ولابد أن يكون لها تاريخ قد مرت به، وقد حدث عليها تغير من فترة الى أخرى مما يجعل دراسة هذه الحالة خاصة اذا كانت جماعية أو مجتمعية تتطلب اعداد استمارة مقابلة وتوزيعها على المستهدفين بالدراسة أو البحث، أو ملاحظة سلوكهم وتصرفاتهم، أو مشاهدة مناشطهم. وعليه يتداخل المنهج التاريخى مع منهج دراسة الحالة فى دراسة الظواهر، والحالات الفردية والثنائية، والجماعية، والمجتمعية. وبما أنهما منهجا بحث ويسعى كل منهما لتقصى الحقائق،

ومعرفة الأسباب الكامنة وراء الظاهرة أو موضوع الدراسة، فانهما على علاقة علمية ومنهجية، تنطلق من أسباب وتحقق أهدافا. وما الاختلاف الذى قد يكون بينهما إلا لخصوصية الموضوع، خاصة وان منهج دراسة الحالة يهتم كثيرا بتجميع المعلومات والبيانات ثم بعد ذلك يركز أكثر على تشخيصها وتحليلها من أجل حلول ومعالجات خاصة اذا كانت الحالات المدروسة غير سوية.

3- علاقة المنهج التاريخى بالمنهج التجريبى :

يسعى المنهجان الى التقصى العلمى فى البحث والتثبت أثناء الغوص فى أغوار الظاهرة المدروسة أو موضوع البحث. إلا أن ميادين التجربة وعناصرها تختلف. فالمنهج التجريبى ميدانه المعمل والمختبر، وعناصره الحيوانات، والطيور، والأسماك، والنباتات، والجماد. أما المنهج التاريخى فإن ميدانه أكثر اتساعا إنه التاريخ، والبيئة وعناصره الإنسان وما ينتجه عقله المبدع، وبهذا يكون المنهج التجريبى جزءا بسيطا فى التاريخ. يشترك المنهجان فى استعمال الوسائل خاصة المشاهدة، والملاحظة والمقابلة، والاستبيان فى تجميع البيانات والمعلومات، ويعتبر التاريخ هو السجل العام الذى تحفظ فيه كل التجارب، والعلوم، ويعتبر المنهج التجريبى من أهم المناهج فى زيادة التراكم العلمى والمعرفى عن طريق الاكتشاف، والاختراع، ويعتبر المنهج التاريخى من أهم المناهج المستندة على التجريب. لأن كل الأحداث، والتغيرات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والعلمية الماضية أصبحت مثبتة ونستطيع التمييز بين خيرها وشرها لأنها جربت مثل الرسالات السماوية، والثورات، وكل المحاولات الاصلاحية السابقة التى كان لها التاريخ ولازال الميدان الواسع الذى جربت فيه وهى حية، وبما أن تجارب التاريخ

دائما حية فإن أخذ العبر منها تعتبر قدوة. وبناء على هذا تعتبر تجارب الحياة (التاريخ) العلمية أوسع وأفضل من تجارب المختبرات والمجموعات التجريبية والضابطة.

ويسعى التجريب الى الوقوف مباشرة على مكونات الظاهرة وعناصرها والمتغيرات التى تؤثر فيها، ويسعى المنهج التاريخى أيضا الى معرفة المصادر مباشرة لاستقراء واستيضاح مكونات الظاهرة وعناصرها والمتغيرات التى أثرت فيها، إلا أن نتائج المنهج التاريخى واضحة لأنها مثبتة. أما نتائج المنهج التجريبى غير واضحة قبل اثباتها.

خطوات المنهج التاريخى :

تعتبر خطوات المنهج التاريخى هى خطوات المنهج العلمى وهى:

1- تحديد موضع البحث.
2- تحديد الأهداف.
3- استطلاع الدراسات السابقة.
4- تحديد الفروض وصياغتها.
5- جمع المعلومات والبيانات.
6- تحليل المعلومات وتفسيرها.
7- استخلاص النتائج وعرضها.
8- كتابة التقرير.

عليه كل منهج يتبع هذه الخطوات يعتبر منهجا علميا. ولا يعتبر تحديد الأسباب خطوة من خطوات البحث كما يدعى البعض. بل هى تبرير للخطوة الأولى وهى تحديد الموضوع. أى أنها تحصيل حاصل ولم تكن مرحلة مستقلة بذاتها. وهى الاجابة على السؤال لماذا اخترت هذا الموضوع

أو ذاك؟ فالاجابة على هذا السؤال هى الأسباب التى دعت الباحث الى اختيار موضوعه.

وعليه ان تحديد الأسباب مهم لاقناع المطلع أو القارىء على التبرير الموضوعى لاختيار موضوع البحث وكذلك تحديد الأهمية لم تكن خطوة من خطوات البحث بل إنها توضيح لمضامين الموضوع، وما سيقدمه من نتائج، وما سيترتب عليه من حلول أو معالجات. ولذلك ينبغى توضيح الأهمية لما لها من ميزة فى ابراز الموضوع وجعله كبحث يأخذ مكانه بين البحوث. ولأن الأهمية كامنة فى الموضوع فإنه كفيل بايضاحها من خلال اكتماله.

مصادر معلومات المنهج التاريخى : وتنقسم الى الآتى :

1- مصادر بشرية : وهم شهود العيان، والمعاصرون، والمشتركون فى الموضوع قيد البحث والدراسة.

2- مصادر مكتوبة ومشاهدة: وتنقسم الى الآتى :

أ - المخطوطات : بعد اخضاعها للنقد الداخلى بما تتضمنه من نصوص ولغة، وأسلوب، وشواهد، وبراهين، وتعرضها للنقد الخارجى من حيث الزمن الذى كتبت فيه، والذى تتحدث عنه، وعلاقتها بما كتب فى مجال نصوصها ومضامينها أو ما كتب عنها.

ب - الوثائق الرسمية من مقالات، وأفكار، وأشعار وسجلات، وتقارير، وصحف معتمدة، والمذكرات والمراسلات الرسمية والمذكرات الخاصة والتى تعتبر هامة لحياة الفرد اذا وقعت فى يد الباحث خاصة اذا كان صاحب الحالة المدروسة من الذين يعانون من

أمراض نفسية واجتماعية من خلال البحث التتبعي لتاريخ حياته والظروف المسببة والمحيطة بحالته.

ج - الآثار، والتحف، والرسومات، كشواهد مادية يمكن مشاهدتها وملاحظتها.

الفوائد العلمية للمنهج التاريخى :

1- أخذ العبر من تجارب الماضيين المثبتة.

2- اعتبار التاريخ الميدان الواسع الذى يحتوى على كل مجرب. والبحث عن المجرب، وفى المجرب هو البحث عن الحقيقة التى يسعى الباحث للتنقيب عنها كدلائل ومثل علمية.

3- اعتبار الزمن الحاضر نقطة انطلاق للبحث فى الموضوع الحاضر أو السابق مع مراعاة التتبع الموضوعى أو الزمنى أو كلاهما فى استقصاء المعلومات والبيانات، ومراعاة المتغيرات التى كانت والتى استجدت على الموضوع سلبا أو ايجابا والتعرف على مسبباتها، وآثارها الرئيسة والجانبية.



4- يعتبر التفسير التاريخى محور المنهج التاريخى فى ربط العلاقات بين المتغيرات المستهدفة بالبحث. وأن يهتم الباحث بالأحداث التى تكون همزة وصل، والأفكار التى يجسدها التاريخ، وعدم الاعتماد على تفسير الأحداث التاريخية بسبب واحد، لأن الحدث التاريخى تتداخل فيه عدة أسباب لا ينبغى التغافل عنها، أو اهمالها. وأن يكون تفسير القضايا حسب وقوعها، وظروفها.

5- عدم ترويم المنهج التاريخى لأى موضوع، لأن المواضيع هى التى تستنبط منها المناهج. فإذا استطاع الباحث أن يستنبط منهجه من

موضوع الدراسة يستطيع أن يحقق أهدافه العلمية والمنهجية بوضوح، وإذا اختار المنهج التاريخي، واتضح أن موضوعه لم يحتوِ على معالمه فإن الباحث لا يستطيع أن يحقق أهداف البحث بوضوع.

6- تحرى الصدق، والنزاهة، والتأكد من صحة ما يسجله الباحث من أحداث، وأفكار، ومواقف، وظواهر(11) والابتعاد عن التحيز الذى يضعف الموضوع أو يحرفه.

7- الاعتماد على المصادر فى كتابة التاريخ، أو فى أخذ العبر منه، والابتعاد قدر الإمكان عن التتبع الهامشى الذى قد لا يصاحبه اليقين. والمصادر قد تكون بشرية، وقد تكون مكتوبة كالوثائق والمخطوطات والمطبوعات الرسمية، وقد تكون مادية كالتحف، والآثار، والرسومات.

8- التركيز على النقد البناء فى تناول القضايا والأفكار، وفى آراء شهود العيان وأقوالهم أو آراء الناقلين والملاحظين، والتأكد من الوثائق، واخضاعها الى النقد الداخلى والخارجى.

---

(11) عمر التومى الشيبانى، مناهج البحث الاجتماعى. طرابلس: الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، 1975، الطبعة الثانية، ص 91.

الفصل الرابع

المسح الاجتماعى

المسح الاجتماعى:

انه أحد المناهج العلمية المعينة على اكتشاف العلاقات الناتجة عن تداخل عدد من المتغيرات والتى تؤثر سلبا أو إيجابا على الظاهرة مما يستوجب تقصى الحقائق عنها بإجراء مسح شامل للمجتمع المستهدف بالبحث أو بالدراسة، والذى يطلق عليه بالمسح العام عندما لا تستثنى أى مفردة من مفردات المجتمع.

أما اذا حدث الاستثناء فيعنى ذلك أنه حدث التخصيص والتحديد الذى ينحصر فى إختيار عينة من المجتمع ويتضح الفرق بين المسح الشامل والعينة من حيث الأهداف، ومن حيث الفلسفة، ومن حيث الأهمية.

ان أهداف دراسة المجتمع بدون استثناء أى مفردة بشرية منه، يعنى الإعتراف بأثر المتغيرات على كل فرد، والإعتراف بأن هناك فروقا فردية، ينبغى مراعاتها، بدراسة المجتمع ككل دون استثناء مما يجعل الدراسة تستهدف الجميع بالمسح الشامل.

وأن فلسفة دراسة المجتمع كله تعنى عدم الإعتراف بالتمثيل السلوكى والاجتماعى، والوجدانى. ولا مبرر لأن يمثل المجتمع بجزء منه وهو قادر على إعطاء الحقيقة دون وسيط. لأن المجتمع حاضر ولم يكن غائبا حتى يقبل بمن يمثله، وأن التبريرات بصعوبة دراسة المجتمع عن طريق الحصر الشامل استوجبت تمثيله بالعينة عملية لا تليق بدراسة الانسان مع أنها تليق بدراسة الجماد، والحيوان، والطيور والنبات.

واذا تحدثنا عن أوسع مسح لن نجد أوسع من يوم الحشر الذى يقف فيه كل انسان بما عمل، ولا يحق لأحد أن يمثل الآخر فيه. هذه عبرة ينبغى أن نأخذ بها فى تنظيم حياتنا الاجتماعية والعلمية. اذا كان ربنا العظيم الذى

يعلم بكل شيء لا يقبل بالعينة أن تمثل المجتمع فكيف نحن الذين لا نعلم بما فى الصدور نقبل بأن نغيب المجتمع ونعمم عليه نتائج العينة.

ولذلك عندما يستهدف الباحث نتائج علمية من بحثه على الانسان فى المجتمع، عليه دراسة كل مفردات المجتمع، واذا تساءل البعض كيف يمكن لنا دراسة المجتمع بكامله؟.

يجاب على ذلك : أن حجم المجتمع يختلف من دراسة موضوع لآخر، أى أن الحجم يحدده الموضوع، وبما أن الموضوع غايته التعرف على معالم المجتمع، وظواهر المجتمع، ومواقف المجتمع، وأنماط المجتمع وقيمه، فإن التعرف على المجتمع أمر ضرورى من الناحية العلمية، وبما أنه لم يكن هناك تحديد مسبق لحجم معين، فإن تحديد المفاهيم هو الذى يحدد المعنى المقصود بالمجتمع.

فكلمة مجتمع عامة غير محددة، وغير واضحة بالمفهوم البحثى (العلمى)، اذن ما هو المجتمع؟

هل نعنى بذلك المجتمع البشرى (الانسانى)؟.

أم هل نعنى المجتمع المسلم؟.

أم هل نعنى المجتمع العربى ؟.

أم المجتمع الليبى؟.

أم نعنى به مجتمع مدينة طرابلس. أم مجتمع المدينة القديمة. أم مجتمع المنحرفين. أو مجتمع المهندسين. كل هذه الدلائل تحتاج الى تحديد المفاهيم المقصود بها المجتمع.

وبما أن الباحث لا يقصد بذلك مجتمعا مطلقا اذن يقصد بكلمة المجتمع هو المجتمع المستهدف بالبحث. وبما أن للبحث موضوعا. اذن للموضوع مجتمع. فاذا كان موضوع البحث هو أنحراف الأحداث فى مدينة طرابلس

فيكون مجتمع البحث هو كل المنحرفين فى مدينة طرابلس، وليس كل سكان مدينة طرابلس، اذن المسح الشامل يكون لكل المنحرفين، وعادة يتم التعامل فى مثل هذه المواضيع مع الحالات المسجلة فى المؤسسات الاجتماعية الاصلاحية، ومهما كبر العدد ليس من الصعب دراسته. واذا كان من الممكن أن يجزأ موضوع الانحراف الى مواضيع أخرى حسب نوع الانحراف تكون الدراسة أكثر دقة وعلمية مثل حالات السرقة، وتناول المخدرات، والقتل عمدا، والهروب من المنزل، وتخريب المؤسسات العامة. هذه المواضيع عندما يرتكبها الأحداث تندرج تحت موضوع عام وهو انحراف الأحداث.

وعليه دراسة المواضيع الانحرافية السابقة بطريقة المسح الشامل تكون متيسرة وبدون صعوبة. ولو أخذنا موضوعا آخر وليكن (حالات الطلاق فى سوق الجمعة بطرابلس)، فإن جميع حالات الطلاق مسجلة ويمكن معرفتها عن طريق المؤسسات الرسمية ذات العلاقة ويمكن اجراء مسح شامل عليها، والوصول الى نتائج علمية محددة لا تخضع للخدعة الاحصائية، والنسب المقربة والمصورة فى منحنيات تكرارية هابطة وصاعدة يتم الالتجاء اليها عند دراسة العينات لتغطية بعض نقاط الضعف فى البحث أو الدراسة.

ولكن اذا كان من الضرورى أن يتم اختيار عينة للبحث أو الدراسة بناء على الموضوع المحدد للبحث فإن النتائج المتوصل اليها عن طريق العينة لا يمكن أن تمثل المجتمع الذى أخذت منه، بل أنها تمثل جميع أفراد العينة فقط.

ويمكن أن تكون النتائج مؤشرات هامة لدراسة المجتمع ككل، أو دراسة مواضيع أخرى ذات علاقة بالنتائج المتوصل اليها.

هذه فلسفة المسح الشامل ودراسة العينات.

أما أهمية المسح الشامل فانه يتم التعرف على علل الظاهرة أو علل موضوع البحث مباشرة من قبل الذين تربطهم علاقة به دون استثناء لأحد منهم.

وتكتمل المعلومات ويتم التعرف عليها، وربط العلاقات بين العوامل المكونة لها باكتمال آراء أفراد كل المجتمع (مجتمع البحث) وأحكامها قاطعة وفق المعلومات المتحصل عليها. أما العينة فإنه من الصعب الثقة في معلوماتها والاعتماد عليها في وضع الخطط العامة لأنها جزء من المجتمع وقد تكون آراؤها مخطئة، حتى وإن تم قبول الدراسة أو البحث باجتيازه نسبة الأخطاء المعتمدة أو المتوقعة من قبل الباحث. ومن الأهمية أيضا قد يتحقق الرضا العام لنتائج المسح الشامل، والذى لا ترتقى العينة لتحقيقه.

ان المسح الاجتماعى كمنهج عبارة عن طريقة تتبع فى التعرف على صفات ظاهرية موجودة فى الزمن الحاضر، وهذه الصفات يعترف بالتعبير عنها وفق المعلومات المجمعة فى استمارة مقابلة أو استبيان أو مشاهدة سلوك.

تجمع المعلومات وفق خطة تراعى فيها الأهداف، والفروض المصاغة وتحلل حسب معطياتها العلمية وتساهم فى عملية الاصلاح الاجتماعى والسياسى، والاقتصادى.

ولكن بما أنه يهتم بالظاهر عند الانسان، فهل يستطيع أن يظهر هذا الانسان كل ما فى وجدانه كما هو للعيان، دون أى تأثر أو دون أن يراعى نواميس المجتمع ودينه؟.

ولذا، وصف ما هو ظاهر وبكل دقة قد لا يكون هو الباطن، وأعنى بالظاهر الأقوال، والأفعال.

فقد يقول الفرد عندما يسأل أثناء المقابلة معلومات خاطئة تماما مع حقيقة الأمر الذى يعرفه. لأن الانسان بطبعه الاجتماعى يصدق، ويكذب. فقد كذب البعض على الله فكيف لا يكذب المبحوث على الباحث.

وبناء على ذلك، هل الدراسات التى تعتمد على المشاهدة والاستبيان فى دراسة الحالات الفردية، والجماعية يعتمد عليها فى العلاج، والاصلاح؟ خاصة ونحن نعرف أن فى خطة البحث التى سينتهجها الباحث للوصول الى الأهداف تقبل بنسبة خطأ لإجازة المعلومات والنتائج المتوصل اليها. وغالبا ما تكون هذه النسبة 5٪ ويتم التصديق بالنسبة 95٪، ومع ذلك لم يكن للباحث برهان لاثبات صحة ما قاله 95٪ من المبحوثين بأنه الحق. لأن الاستبيان عبارة عن أسئلة نابعة من فروض ومحتوية على مجموعة من المتغيرات، ومعدة مسبقا من قبل الباحث، وبالتالى الاستجابات أو المعلومات المطلوب الحصول عليها لم تكن جدلية، ولم يحدث تفاعل بين ورقات الاستبيان والمبحوث.

والمعلومات بدون جدل واستيضاح، وتقبل من خلال الاحساس بأهميتها للمبحوث لا تخدم أغراضا علمية، ولا اجتماعية ولكن يجوز أن تخدم مصلحة خاصة للباحث بأن ينجز بحثه لينال عليه مقابلا ماديا أو معنويا وبما أن نتائج البحوث ينبغى أن تترتب عليها حلول، ومعالجات ومقترحات قد تكون على مستوى الدولة السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى فيجب اخضاع 95٪ للاختيار، والذى لا يتحقق عن طريق الاستبيان، بل عن طريق المقابلة مصداقا لقول الله تعالى: " ليسأل الصادقين عن صدقهم"(1).

---

(1) الأحزاب، الآية 8.

ليس من العيب أن يسأل الانسان عما يقول للتأكد من براهينه على ما قاله حتى يؤخذ رأيه مع الآراء الأخرى المتأكد من صوابها وفرزها عن الآراء التى لا تستند على ما صدق، بل أصبح البحث المجاز بأخطاء 5٪ يحتوى على أخطاء 55٪.

وبما أن استمارة الاستبيان تعد مسبقا فانها بالنسبة للمبحوثين توزع جاهزة، وما على المبحوث إلا قبولها كما هى وبأخطائها المعتمدة من قبل الباحث ومع أنها مجربة على نسبة قليلة من المجتمع المستهدف بأخذ العينة منه، ومنقحة بعد تجربتها من حيث اللغة، والأسلوب والمفاهيم، إلا أنها لازالت تحتوى على غموض يتضح بعد توزيعها على المجتمع أو العينة، وهو الذى قدر له الباحث أخطاء متوقعة ولتكن 5٪ كما سبق أن وضحنا. وحتى إن سلمنا بمصداقية المعلومات المتحصل عليها من خلال استمارة الاستبيان فإن الأخطاء المتوقعة لها لا تجيزها فى دراسة المسح الشامل والاخطاء المتوقعة هى:

1- عند التجريب تتضح أخطاء الاستمارة ولكن لوجود فرصة التعديل والتصحيح يحدث التصويب والضبط.
2- عند تعميم الاستمارة على أفراد العينة بأخطاء مقبولة تساوى 5٪، تصبح نسبة الأخطاء أكثر عند تعميم النتائج على أفراد المجتمع.

مثال : لو افترضنا أن حجم المجتمع = 50.000 نسمة، وأن نسبة العينة = 5٪ فيكون حجم العينة يساوى 2.500 مفردة.

وبما أن الأخطاء التى ظهرت فى استمارة الاستبيان بالفعل كانت 5٪ كما هو متوقع من حجم العينة الذى يساوى 2.500 مفردة نتيجة غموض فى بعض الأسئلة، أو التباس فى المعنى أو المفاهيم أو نتيجة عدم تركيز المبحوث على محتوى الاستبيان، أو عدم قدرة المبحوث على القراءة المدرسية التى

تختلف عن القراءة والكتابة المتعارف عليها فى الكتاتيب، وعدم وجود تجربة أدبية تجعل المبحوث على مقدرة لسؤال الباحث. اضافة الى ما سبق ذكره لو عمم هذا الاستبيان على المجتمع فقد يجد الباحث أن هناك البعض الذى لا يقرأ، ولا يكتب مما يزيد فى غموض الاستبيان، حتى وإن إستعان بشخص آخر يقرأ ويكتب له إستجاباته على استمارة الاستبيان، وهذه الأخرى تزيد نسبة الأخطاء خاصة اذا كان التوزيع للاستمارة غير مباشر.

نستنتج مما سبق أن نسبة أخطاء الاستبيان تزيد اذا عممت نتائج العينة على المجتمع الذى أخذت منه.

فحسب المثال السابق أن حجم المجتمع 50.000 مفردة وحجم العينة 2.500 مفردة وأن نسبة الخطأ عند دراسة العينة كانت 5٪، وبما أننا سنعمم نتائج العينة على المجتمع، اذن علينا أن نعمم أيضا نسبة الخطأ المقبول والذى تحقق من العينة 2.500 مفردة. هذا يعنى أن كل 2.500 مفردة قد تقع فى أخطاء 5٪. وبناء على ذلك لو جمعنا نسبة أخطاء الاستبيان بعرضه على أفراد المجتمع 50.000 مفردة يكون مجمل نسبة أخطاء الاستبيان تساوى 100٪. لأنها تساوى حجم العينة 2.500 مفردة.

وهذه النسبة لم يدخل فيها اختبار المضمون، أى لم يتم من خلالها اختبار نسبة الصواب المتحصل عليها وهى 95٪ والتى يمكن أن تكون نتائجها أكبر من قبولها الظاهرى كنسبة مئوية لو تعرضت لاجراء مقابلات مع الأفراد المتكونة منهم، وهكذا تنقص هذه النسبة الى أن تصل الى 0٪، وترتفع نسبة الأخطاء الى أن تصل الى 100٪، مما يجعلنا نتساءل هل يمكن بعد ذلك الاعتماد على تعميم نتائج الاستبيان؟ وهل تصبح دراسة العينة التى يهدف من ورائها التعميم دراسة علمية يعتد بها ويعتمد عليها؟.

وهل العينة فى هذه الحالة تمثل المجتمع؟.

وبما أننا نجيز المسح الاجتماعى العام فهل يفضل أن يدرس الباحث المجتمع دون سابق معرفة به؟. أم يفضل التعرف على خصائصه وصفاته أولا؟. أى هل يمكن للباحث أن يدرس مجتمعا لا يعرفه، أو لا يعرف عنه شيئا؟.

إن أى بحث لابد أن يبنى على معرفة نظرية أو عملية، لأنه بدون سابق معرفة لا يمكن أن يتحدد الموضوع، ولا يصاغ الاستبيان، وإذا حدث فإنه عبارة عن حبر على ورق. ففهم المجتمع، ومعايشته، والقرب منه هو الاستطلاع العلمى الذى يساعد على اختيار المواضيع وصياغة فروضها واستمارات استبيانها أو مقابلاتها. لأن أهداف المسح الاجتماعى هى التعرف على معدل توزيع بعض الخصائص الاجتماعية كالمهنة، والسن، والنوع، والحالة الاجتماعية. ويهدف الى تقويم أوضاع قائمة، ومعرفة ما هو كائن، يقول د. محمد الجوهرى، و د.عبدالله الخريجى " يهدف المسح الاجتماعى الى تحديد كيف ترتبط الخصائص الاجتماعية بأنماط سلوكية أو اتجاهات معينة"(2). فإذا كان الاهتمام بالكيف، ينبغى التعرف على الأسباب والعلل التى كانت وراء السلوك، أو الظاهرة، أو الحالة، أما اذا كان الهدف التعرف على معدل توزيع بعض الخصائص، فهذه مسألة مختلفة، فالأول مضامين وعلل، والثانى أرقام ونسب، واذا تعاملنا مع المجتمع وقيمه، على أساس كمى، فإنه من الصعب علينا معرفة المجتمع وقيمه، لأن مضامين المجتمع معان، وقوانين طبيعية، وأديان، وأعراف، وأصل وإنتماءات، ولهذا يقول د. سمير نعيم " يبنى هذا المنهج على بحوث سابقة سواء كانت استطلاعية أو وصفية،

---

(2) محمد الجوهرى، وعبدالله الخريجى، مناهج البحث العلمى طرق البحث الاجتماعى. القاهرة: مطابع سجل العرب، الطبعة الثانية، 1980، ص 160.

وذلك من أجل التحقق ووضع تصورات، ومقترحات مستقبلية"(3).

اذن يهدف المنهج المسحى أيضا الى وضع تصورات، ومقترحات للمستقبل، وبما أنه يهدف الى ذلك ينبغى فهم الحاضر جيدا وبعمق لا بوصف فقط، لأن الوصف للظاهر والمشاهد. لأن المجتمع كما وضحنا سابقا يتكون من مضامين ونواميس لا يمكن وصفها الا بفهمها، ولا يمكن فهمها الا بالغوص فيها وتتبعها، إذن لابد للمنهج المسحى من الرجوع الى الماضى، ولا يكفيه التعرف على الحاضر فقط، لكى يستطيع الباحث من خلاله وضع تصورات ومقترحات مستقبلية، يعتمد عليها فى وضع الخطط والحلول. لأن المستقبل لا يبنى على الحاضر فقط بل نصيب الماضى دائما أكثر وأكبر من الحاضر، لأنه دائما فى تزايد، وأما الحاضر فهو يمر مرور الكرام.

فمن أراد أن يقتدى أو يعتبر أو أن يتصور، عليه أن يعود للماضى الذى يحتوى على التجارب الانسانية، والاجتماعية بحيث لا يكرر جهودا غير مثمرة، أو أن يضع تصورات سبق وأن جربت ولم تحقق نجاحا، وحتى لا يضيع جهده ووقته هباء، عليه أن يطلع على سنن الأولين.

إن أى أسلوب أو منهج اذا انعزل عن المحتوى الفكرى للموضوع فإن نتائجه لا تؤدى الى نظريات، وقوانين، وهذا ما يلاحظ على المسح الاجتماعى الذى يهتم بالأوصاف، والأشكال، والأرقام دون الاهتمام بالعلل التى انتجت المتغيرات والتى تكثر فى البحوث المسحية ولم يكن هناك اعتراض على الأرقام، والكميات بشكل عام عندما تستعمل فى تعداد السكان، أو تعداد الانتاج لكن الارتكاز عليها فى التحليل الكيفى، والاستشهاد بها فى دراسة المواضيع

---

(3) سمير نعيم، المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية. القاهرة: كلية الآداب، جامعة عين شمس، الطبعة الخامسة، 1992، ص 118.

الاجتماعية والانسانية، تجعل الباحث ينحرف عن مركز الموضوع ولبه ويميل الى الهوامش، والحواشي. إن الذى يهمنا فى دراسة حالات السرقة، على سبيل المثال هو لماذا تفشت فى المجتمع ظاهرة السرقة؟. ولا يهمنا عدد حالات السرقة، ونسبة السراق لحجم المجتمع وفق نتائج العينة المدروسة. وأيها أفيد للمجتمع، وللمخططين له، أن يعرفوا أسباب السرقة ليتفادوها بمعالجات، أو أن يعرفوا عدد السراق ونسبتهم فى المجتمع؟. إن هذا لا يفيد المجتمع فى شىء إلا اذا اعتبر الأرقام والنسب مؤشرات لإعادة دراسة المجتمع من أجل معرفة الأسباب والعلل.

ولهذا لا يمكن أن يؤدى المسح الاجتماعى من خلال نتائجه الوصفية الى نظريات، اذا لم يتوحد مع المحتوى الفكرى للموضوع يوصف المسح الاجتماعى بأنه اصلاحى،والصلاح ضدالفساد كما يقول لسان العرب المحيط. ويقول عز وجل: " **وما كان ربك يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**"(4).

واذا تساءل البعض هل يمكن أن يتم اصلاح الفساد أو المفسدين بمعرفة أسباب الفساد؟. أعتقد أنه لا يمكن.

اذن هل يجوز لنا أن نسلم بأن المنهج المسحى إصلاحى، وهو لا يهتم بمعرفة العلل والأسباب المكونة للظاهرة أو الموضوع، والتى تراكمت من الماضى الى وقت ظهورها؟ لأن إصلاح ذات البين يحتوى على معرفة الآتى:

أ – معرفة الظرف الزمانى بماضيه وحاضره.

ب – معرفة الظرف المكانى الذى ظهرت فيه المشكلة.

ج – معرفة طرفى المشكلة ليتم الصلح بينهما.

د – معرفة لب المشكلة من خلال معرفة أسبابها ومعطياتها، ومضمونها.

---

(4) سورة هود ، الآية 117.

ولأن الإصلاح يحتاج الى حكم يجمع عليه الطرفان بالتراضى فإن الحكم يحتاج الى معرفة المعطيات والأسباب التى جعلت للمشكلة طرفين سواء كان الطرفان شخصين أو شخصا، أو جماعة، أو مجتمعا. فى كل الحالات طرفان يحتاجان الى اصلاح بينهما مصداقا لقول الله تعالى:

" وهل أتاك نبؤا الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط"(5).

وبعد معرفة الظاهرة أو المشكلة وأسبابها، وظروفها وتحديد أطرافها يمكن أن يحدث الاصلاح ويصدق قوله تعالى : " **لا حجة بيننا وبينكم** "(6) والتى فسرها البيضاوى بمعنى لا خصومة، اذا الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة مجال(7).

يتضح مما تقدم الأسس التى ينبغى مراعاتها اذا أردنا أن يكون المسح الاجتماعى إصلاحيا والا لا داعى لاطلاق هذه الصفة عليه.

ان تحليل المعلومات والبيانات بطريقة المسح الاجتماعى تأخذ منحى وصفيا، وفى ربطه للعلاقات بين المتغيرات يهتم بإبراز النسب ووضع رسومات لها من خلال درجة نزوعها أو تمركزها أو تشتتها، ومن خلال اشتراكنا فى دراسة امبريقية مع بعض أساتذة جامعة الفاتح حول جرائم العنف ببلدية طرابلس عام 1986م، أظهرت الدراسة توزيع أفراد العينة بالنسبة للأسباب التى أدت الى الجريمة وفق الجدول رقم (1).

---

(5) سورة ص ، الآية 22 ، 23.

(6) الشورى ، الآية 15.

(7) تفسير البيضاوى للقرآن الكريم، ص 640.

جدول رقم (1)

الأسباب	٪
اقتصادية	4
اجتماعية	5
مشاجرات ودفاع عن النفس	20
جنسية	14
تغرير وتشرد	7
هروب من السجن	–
خمر	10
أخرى	5
غير مبين	35
المجموع	100
مجموع أفراد العينة 307	

واكتفينا آنذاك بعرض الأسباب التى توقعناها والأخرى التى حددت نسبتها من المبحوثين 5٪، وحددنا نسبة بقية الأسباب التى ظهرت من دراسة العينة البالغ عددها 307 مفردة(8).

(8) مجموعة من الأساتذة، دراسة جرائم العنف ببلدية طرابلس، اللجنة الشعبية للعدل بالبلدية، طرابلس : 1986م ، ص 67 ، 68.

ولكن أتساءل الآن، هل عرفت الجهة التى كلفتنا بالبحث، وهى اللجنة الشعبية للعدل ببلدية طرابلس، الأسباب التى يمكنها الوقوف عندها لايجاد حلول أو معالجات لها؟.

لا أعتقد أن يتحقق ذلك من خلال المنهج الذى اتبعناه فى دراسة الظاهرة، ولكننا بينا لها معالم يمكن الرجوع اليها كما هو مبين فى الجدول رقم (1)، والذى إهتم بالأسباب العامة، ونسبها وعرضها فى جدولة تبين درجة نزوع كل نسبة أو تشتتها عن مركز الظاهرة، التى وضعت فى أرقام، والتى يحفها الغموض، وعدم التحديد، فعند تحديدها للأسباب الاقتصادية، لم نحدد مثلا نوع الأسباب الاقتصادية، هل هى عدم وجود فرص للعمل، أو نتيجة عدم عدالة التوزيع للثروة؟ والتى لا يمكن الاجابة عليها الا بالسؤال لماذا؟.

أى لماذا عدم وجود فرص عمل؟ ولماذا عدم وجود عدالة فى توزيع الثروة؟. كل ذلك لم تحتويه الجداول التى ترتبت على الجدول السابق باقتصارها على المهن التى سبق له مزاولتها، ومدة العمل، والدخل الشهرى، والاقتراض فى حالة الاحتياج.

وحتى هذه تحتاج الى معرفة الاجابة عليها بالسؤال لماذا؟.

لأن النسب التى ظهرت لم تكون معطيات، بل إنها نتيجة وجود معطيات، وبما أنها نتيجة أو نتائج فإنها ليست الأسباب، وبما أنها لم تكن الأسباب فإن تحديد أنواع المعالجات لا يؤدى الى نتيجة شافية.

بل الذى يؤدى الى ذلك اجراء دراسات تتبعية للاجابة على السؤال لماذا؟. لأن الدراسات والبحوث الاجتماعية يصعب عليها الوصول الى أحكام محددة عن أحداث اجتماعية جزئية إلا بالمفاهيم الأساسية أو المقولات

والقوانين المكونة للعلاقات الاجتماعية، والتوافق الاجتماعى(9). ولهذا إن الوصف بالنسب والمتوسطات والمنحنيات لم تكن الا مؤشرات ونتائج تحتاج الى البحث فيها والبحث من خلالها. إنها هامة فى اعطاء مؤشرات لإعادة الدراسة وفق نتائجها العامة أو اقامة دراسات أخرى ذات علاقة.

وهذا يجعلنا نميل الى أن المسح الاجتماعى كما هو عليه يكون منهجه أقرب الى الاستطلاع منه الى المسح العلمى الذى يستوجب معرفة الأسباب، وتحليلها وتوجيه النقد اليها من خلال ابراز قوة الروابط بين المتغيرات وتأثيراتها الأساسية والجانبية. مما يهيء مناخا جادا لتحديد الحلول والمعالجات التى ينبغى الأخذ بها فى ضوء معطيات الموضوع.

وهكذا لو حللنا الجدول السابق من حيث الأسباب الاجتماعية أو الجنسية، أو أسباب التشرد. كل هذه تحتاج الى الاجابة على السؤال لماذا؟ بعد تحديد نوع الحالة التى أظهرت هذه النسب اذا سلمنا بصدق هذه المؤشرات أو النتائج، والتى يقول عنها مصطفى التير " يعتمد صدق البيانات اعتمادا كبيرا على درجة صدق الأفراد عند اجاباتهم على الأسئلة"(10). وبما أن لكل شيء من سبب فإن للصدق والكذب أسبابا والتى حقيقتها قد لا تكون مساوية لظاهرها.

فإذا أخذنا الجدول رقم (2) الذى يبين توزيع أفراد العينة بالنسبة للرأى فى بعض العبارات. كما أوردته دراسة جرائم العنف ببلدية طرابلس(11).

---

(9) محمد الجوهرى، وعبدالله الخريجى: مناهج البحث العلمى، طرق البحث الاجتماعى، القاهرة: مطابع سجل العرب، 1979، ص 42.

(10) مصطفى عمر التير: مساهمات فى أسس البحث الاجتماعى. بيروت : معهد الانماء العربى، الطبعة الأولى، 1989م.

(11) فريق من الأساتذة : دراسة جرائم العنف ببلدية طرابلس، اللجنة الشعبية للعدل ببلدية طرابس، 1986م. ص 74.

جدول رقم (2)

العبارات	نسبة الآراء موافق	لا أوافق	لا أعرف	المجموع
– المال السايب يشجع على السرقة	43	47	8	98 (307)
– فى حالة الحاجة السرقةعمل مشروع	20	74	4	98 (307)
– لا بأس من شرب الخمر أحيانا	26	70	3	99 (307)
– لا بأس من تعاطىالمخدرات أحيانا	2	93	3	98 (307)
– استعمال السيارات العامة عمل غير منافى للأخلاق	16	76	7	99 (307)
– يجب طاعةالقانون فىجميع الأحوال	87	8	3	98 (307)
– المواد القانونية التى لاتخدم الفرد لا تستحق الطاعة	46	46	6	98 (307)
– القيم التى تحض على طاعة كبار السن لا تصلح لمجتمع اليوم	10	85	4	99 (307)
– القيم التى تحض علىاحترام ملكية الآخرين لا تصلح لمجتمع اليوم	13	83	3	99 (307)
– سرقةالسيارات للاستعمال المؤقت عمل مشروع	4	93	2	99 (307)
– القيام بأعمال شخصية خلال ساعات العمل مناف للأخلاق	68	28	3	99 (307)
– فى بعض الحالات لكىتحصل على خدمة معينة لابد من تقديم رشوة	13	82	4	99 (307)
– يجب احترام حرية الآخرين	98	–	–	98 (307)
– يجب احترام عرض المواطنين	98	–	–	98 (307)
– يجب احترام عرض الآخرين	94	2	2	98 (307)
– للحصول على النجاح يجوز استخدام أى وسيلة	12	85	2	99 (307)

نلاحظ أن نسبة 87٪ من مجموع أفراد العينة البالغ عددها 307 مفردة قد وافق على وجوب طاعة القانون فى جميع الأحوال. وأن 98٪ وافقوا على وجوب احترام حرية الآخرين، واحترام أعراض المواطنين، وأن 94٪ وافقوا على وجوب احترام أعراض الآخرين، ومع أن هذه النسب حقيقة أظهرتها الدراسة من الواقع الميدانى والمعلومات المجمعة من استمارات الاستبيان، والمقابلة، إلا أننا لا نثق فى مصداقيتها من خلال الفعل المرتكب، لأنه لو كانت هذه النسب تطيع القوانين وتحترم أعراض وحرية الآخرين ما كان مرتكبوها من فئة المجرمين.

أى أن هناك تناقضا، من جهة ترتكب جريمة أو أكثر، ومن جهة أخرى عندما تسأل تقول: يجب طاعة القوانين واحترام حرية الآخرين.

وأيهما أصدق القول أم الفعل؟.

بالتأكيد سيكون الفعل أكبر دليل على عدم طاعة القوانين وعدم احترام حرية، وأعراض، المواطنين، والآخرين.

أنواع المسوح الاجتماعية:

لقد صنف بعض المهتمين بمناهج البحث الاجتماعى المسوح الاجتماعية الى عدة أنواع(12)، منها الآتى:

أولا – من ناحية مجال الدراسة: وتنقسم الى مسوح عامة، ومسوح خاصة.

1- المسوح العامة: وهى التى تهتم بمسح الظاهرة أو الموضوع بشكل شمولى كمن يمسح الأرض ليقيم عليها بناء أو انشاء، وذلك بدراسة نوع التربة،

---

(12) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى. القاهرة: مكتبة الأنجلوا المصرية، 1975م، ص 213.

ومكوناتها، ودرجة تحملها، وأهمية موقعها فى المخطط العام، ومعرفة المعالجات السابقة إن وجدت، والتوقعات المستقبلية لعمرها الزمنى وأهميتها الاقتصادية، والاجتماعية. لأن المسوح العامة تستهدف معالجة عدة أوجه من خلال دراسة الموضوع فتهتم بالجانب التعليمى، والصحى، والسكنى، والانتاجى، والخدمى كعوامل تتداخل فى أهمية دراسة المواضيع ووضع خطط مستقبلية بشأنها.

2- المسوح الخاصة : وهى التى تركز على جوانب محددة كبؤرة إهتمام وتقتصر على جانب من الحياة الاجتماعية بكل دقة ووضوح، وتتسع دائرة التركيز هذه بتبيان العوامل المتداخلة فى الموضوع كالتعليم، أو الصحة، أو الاقتصاد، أو قطاع المرافق والخدمات.

فلو أخذنا التعليم كمثال يكون التركيز على أهميته للمواطن أو للمتعلم من حيث إيجاد فرص للعمل، أو من حيث الدخل أو من حيث الكمية المفيدة للحياة، أو من حيث الوعى، أو من حيث الانتاج أو من حيث استيعاب التقنية الحديثة، ومن حيث تكوين علاقات داخلية وخارجية.

ثانيا - من حيث المجال البشرى: وتنقسم الى نوعين شاملة أو عامة، ومسوح محدودة تقتصر على اختيار العينة.

1- المسوح الشاملة، وهى التى تستهدف دراسة كل مفردات المجتمع دون استثناء، وتسمى طريقة المسح الشامل والتى تمتاز بأهميتها العلمية فى جمع المعلومات، والبيانات، واستخلاص النتائج وايجاد الحلول والمقترحات، وكلمة (شامل) فى الدراسات الاجتماعية يقصد بها المجتمع المعنى بالدراسة أو البحث وحجمه، ولا يقصد به كل مجتمع الدولة بل مجتمع الدراسة، والذى يختلف حجمه باختلاف قدرة وامكانيات الباحث

والفريق المساعد له. فلو اخترنا مجتمع الدراسة سكان المدينة القديمة بطرابلس، يعنى أننا نستهدف اجراء البحث على كل المقيمين فى المدينة القديمة دون استثناء، إلا ما تحدده الدراسة، كأن تبعد الأجانب من الدراسة وتقتصر المسح على السكان المواطنين.

إن المسح الشامل هو الذى يعكس الواقع الفعلى للمجتمع قيد البحث، وأن النتائج المتوصل اليها تخص مجتمع المدينة القديمة المتكون من المواطنين الليبيين فقط، وبالتالى إن نتائجه لا يمكن تطبيقها على مجتمع آخر حتى ولو كان من الليبيين.

لأن نتائج المسح الشامل تطبق على المجتمع الذى تجرى عليه الدراسة، ولا يجوز أن تطبق على غيره، لأن خصوصيات المكان والوسط الثقافى يختلف عن خصوصيات القرى، والأرياف، والمدن الأخرى المختلطة، مما جعل عمر التومى الشيبانى يقول: " إن النتائج التى يمكن التوصل اليها عن طريق المسح الشامل لمجتمع معين لا يمكن تطبيقها على أى مجتمع آخر غير المجتمع الذى أجريت عليه الدراسة"(13).

2- المسح بالعينة، وهو الذى يحدد حجم مجتمع معين وفق اختيارات منهجية لأنواع العينات تقربا الى اختيار تقل فيه نسب الأخطاء والتحيز قدر الإمكان.

---

(13) عمر التومى الشيبانى، مناهج البحث الاجتماعى. طرابلس: الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، الطبعة الثانية، 1957، ص 126.

وتعمم نتائج العينة على بقية أفراد المجتمع الذى اختيرت منه عينة البحث والدراسة، وتقترب صفاتها من صفات وخصائص المجتمع كلما زاد حجمها وتبتعد كلما قلت، وسواء اقتربت أو ابتعدت الصفات والخصائص فإن نتائجها تعمم على من لم يشتركوا أو يستهدفوا مباشرة بالدراسة، وبما أن هناك خصوصيات للفرد، والجماعة، والمجتمع، فإن تعميم نتائج البحوث فى العلوم الاجتماعية والانسانية على من لم تجر عليهم الدراسة مسألة غير علمية لفقدانها واقعية اعطاء المعلومات والبيانات.

أدوات المسح الاجتماعى : من أهم أدواته

1- المشاهدة والملاحظة 2- المقابلة. 3- الاستبيان

خطوات المسح الاجتماعى :

مع أن منهج المسح الاجتماعى يعتبر وحدة واحدة فى تناول المواضيع ودراسة الظواهر والمواقف، والمشاكل إلا أنه منظم فى ترتيب خطواته حسب الآتى:

1- رسم الخطة.
2- كتابة الاطار النظرى.
3- جمع البيانات والمعلومات بالوسيلة الملائمة للموضوع.
4- تحليل المعلومات والبيانات.
5- عرض النتائج .
6- كتابة التقرير.

جوانب القصور فى المسح الاجتماعى:

1- أنه يركز على دراسة الحاضر مع العلم أن الظواهر والمشاكل كمواضيع للبحث هى نتائج لأسباب ماضية، مما يجعل صعوبة دراسة الظواهر بمنعزل عن الأسباب التى أظهرتها، ويتطلب العودة الى الماضى، والمقارنة مع الحاضر وفق المعطيات، والتوقعات المستقبلية.

2- أن نتائج المسح الاجتماعى لا تؤدى الى نظريات اذا انعزلت عن محتواها الفكرى الذى أثر فى الظاهرة قيد البحث فى الوقت الحاضر.

3- ان تكرار المسوح الميدانية عن طريق الاستبيان على المجتمع قد يسبب الملل والقلق والتهرب لدى المجتمع أو عينة الدراسة خاصة اذا لم يلمس المجتمع نتائج ايجابية من الدراسات والبحوث التى أجريت عليه فى السابق.

4- ان الدراسة المسحية لا تهتم بتفاعل المبحوثين مع موضوع البحث بل الذى يركز عليه تجميع معلومات وبيانات كمية من خلال متغيرات محددة. ان أهمية البحث لا يحس بها المبحوث من خلال الأسطر البسيطة التى يكتبها الباحث فى مقدمة الاستبيان بل المبحوث يحس بها عندما يتقبل الباحث ويتفاعل مع الموضوع عندما يستوعب أهميته.

5- المسح الاجتماعى يكثر من دراسة العينات ويعمم نتائجها على من لم يشترك مباشرة فى البحث، ومع أنه يؤكد على كثرة عيوب دراسة العينات إلا أنه لازال مستمرا فى الاعتماد عليها.

6- انه يهتم بالظاهر ويصدر أحكامه بناء عليه، مع أننا نعرف أن الظاهر غير الباطن.

الفصل الخامس

المنهج التجريبى

المنهج التجريبى :

يعتبر التجريب موقفا مصطنعا لإثبات حقائق أو التأكد منها، وفى العلوم الاجتماعية والانسانية تكون الحقائق كامنة وتظهر فى تصرفات وسلوك يمكن مشاهدته أو ملاحظته، ولكن ليس من السهل إظهار الكامن للمشاهدة، والملاحظة. وهنا تكمن الصعوبة العلمية التى تواجه العلوم غير الطبيعية. لأن ما نود مشاهدته وملاحظته يقع تحت سيطرة المبحوث وظروفه الخاصة التى قد لا يسمح بإظهارها للمشاهدة أو يسمح لجزء بسيط منها فقط، وقد يظهر عكس حقيقة الموقف أو الحالة أو الظاهرة لاعتبارات قدرها بذاته، وفى هذه الحالة تكون المعلومات المتحصل عليها عن طريق أداة الملاحظة والمشاهدة غير صحيحة وبالتالى غير علمية.

وحتى التجريب عن طريق المجموعة الواحدة أو المجموعتين أو أكثر اذا اعتمدنا فيه على المشاهدة والملاحظة قد تكون أحكامنا غير صائبة مائة فى المائة لأن المجموعة أو المجموعات التجريبية والضابطة وإدخال المتغيرات عليها أو على بعضها يجعل المجرب عليهم تحت تأثير مباشر من الباحث، وهنا قد يتصنع البعض أو الكل إظهار التزام أو انضباط أكثر أمام الباحث، وأقل من ذلك بكثير أحيانا فى حقيقة الأمر، أى أن السلوك مصطنع. الى جانب ما سبق ذكره، يتم تعميم نتائج المجموعات أو الجماعة التجريبية على آخرين لم يشتركوا فى البحث.

وبما أن دراسة الانسان من حيث مشاعره وأمانيه، واستعداداته وحبه، وأمله، وكرهه مسألة يصعب التحكم فيها والتأكد منها لذلك من الصعب إخضاع كل ذلك للتجريب المباشر.

أعنـى لا يمكـن اخضـاع المشـاعر للتجريـب وللمشـاهدة، ولهـذا يتـم الالتجاء فـى دراسـة الانسـان عن طريـق الأسـاليب الاسقاطية بـالطرق غير المباشرة، بل بالاستفسار والاستدراج والاستنتاج وعن طريـق المقابلـة التـى تمكن الباحث من الاستفسار والجدل الجاد مع المبحوث. وبالرغم من ذلـك لـم يكن التجريب عيبا لكن العيب اعتبار العلوم الاجتماعية والانسانية على درجـة من التجريب الناجح الذى يساويها مع العلوم الطبيعية.

إن التجريب التقليدى، أعنـى المحـاولات التـى قـام بهـا بعـض أسـاتذة العلوم الاجتماعية والانسانية فى هذا المجـال لا يمكـن أن تخلـق قـاعدة علميـة للعلوم الاجتماعية بل محاكاة فقط للغير وتقليدا قد يعبر عن النقص فـى الحجـة الدافعة لهـؤلاء الأسـاتذة والمتتلمذيـن عليهم، ومـن الأفضـل أن يتوجهـوا الـى اكتشاف أساليب جديدة تمكنهم من اجراء تجارب تنسجم مع طبيعـة البشـر، لا مع طبيعة الطيور، والحيوانات والجماد والنبات التى لا تجادل ولا تعقل.

وبما أن الانسان عاقل ومجادل إذن يمكن أن يخفـى مـا فـى نفسـه ولا يعلمه لأحد. ولهـذا يكـون الجـدل والنقـاش والمقابلـة مـن أفضـل الوسـائل فـى الحصول على المعلومات من البشر. والتجربة الاجتماعية تحتاج الى ظـروف زمانية، ومكانية تختلف عن ظروف التجارب المعملية وتجارب المختبرات.

تجارب المعامل والمختبرات قد تعطى نتائج فورية، أما تجارب البشـر فتحتاج الى زمن أطول لكى تعطى حقائق وأدلة يحتكم بها أو يحتكم إليها، كلنا نريد الخبز ساخنا، ولكن هل يمكن الحصـول عليـه بـدون فـترة تخمير؟ هكـذا التجارب الاجتماعية تحتاج الى زمن التخمير لتكون متكاملة، ولهذا تكون حياة السجن تجربة للسـجين، وللبـاحث اذا أراد أن يعـرف المآسـى فـى الزنزانـات، والسجون العامة.

العزوبية تجربة ويمكن البحث فيها، والتعرف على همومها. الزواج تجربة يمكن التعرف على ميزاته وعيوبه فى حالة التراضى وحالة الاختلاف، الطلاق تجربة مرة، وأسبابه مختلفة، وأضراره كثيرة على الأطفال وبنية الأسرة، الكفر تجربة، والاسلام تجربة، الهروب من المدرسة تجربة، البطالة تجربة، العمل تجربة، العمل الخاص تجربة، تختلف عن تجربة العمل العام. والاستعمار تجربة، والجهاد تجربة وعبادة بالنسبة للمسلمين. الحكم تجربة، سواء تحكم أو يتحكم فيك. الديمقراطية بمختلف أساليبها تجربة. النظم الاقتصادية تجارب عندما تنتظم المجتمعات وفق فلسفتها، الحرية تجربة، العبودية تجربة، فترة التعلم تجربة، والالتزام تجربة. هكذا تتعدد التجارب الاجتماعية وتتجدد، وهى أفضل ميدان ومادة تجريبية. وتثرى العلوم بها اذا استهدفتها بالبحث والدراسة. ويمكن معرفة الأسباب الفعلية التى كانت وراءها، ويمكن تحديد المعالجات والاصلاحات وايجاد الحلول لها.

ان احترام العلوم الطبيعة والاعتراف برسالتها العلمية هى التزامها بإجراء التجارب فى ميادينها، والتى بالضرورة هدفها الانسان مع التزامها بالمنهج التجريبى المحقق لذلك. أما العلوم الاجتماعية فلم تستنبط منهجها التجريبى من ميدانها الاجتماعى، بل اعتمدت على استعمالات المنهج التجريبى فى العلوم الطبيعية وادعائها بأنها ارتقت به الى مستوى علمي يمكن قياسه والتحكم فيه وفق استعمالاتها للاحصاء، والتعميم العينى على المجتمع، هنا يكمن الخطأ الكبير، لأن تحويل من يجرى عليهم التجريب الى أرقام ونسب كمية لا يجيب على التكوين الكيفى للفرد، والمجتمع.

ان العلوم الطبيعية تستهدف بوضوح في تجاربها الانسان أى كل ما تقوم به من بحوث وتجارب تكون نتائجه من أجل الانسان، وعندما تجرى التجارب على أرنب أو حمامة أو شجرة ورد، لم تستهدف فى حد ذاتها مع

انها المستعملة فى التجريب، أو هى المجرب عليها، ولكن نتيجة احترام العلوم الطبيعية للانسان وتقديسها له لم تخضعه للتجربة ولم تعرضه للخطر لأن أى اكتشاف هو من أجل الانسان فرداً أو اثنين، أو جماعة أو مجتمعا. ولهذا تعتبر العلوم الطبيعية أكثر انسانية من العلوم الاجتماعية التى تحاول اخضاع الانسان الى التجريب بحيث يقال عنها علوم. واذا أردنا للعلوم الاجتماعية والانسانية أن تتقدم يجب أن نسخرها بوضوح لخدمة الانسان لا للتجريب عليه مثلها مثل العلوم الطبيعية التى تسخر لخدمة الانسان لا للتجريب عليه.. ومهما يحاول البعض أن يفصل العلوم الطبيعية عن الاجتماعية لا يتحقق له ذلك، وما الفصل الظاهرى بينهما الا لتبيان المسار المنهجى لكل منهما لأن كلا العلمين يستهدفان الانسان ومن أجله، لأن حياته معقدة وتحتاج الى تخصصات متعددة لدراستها ومعرفتها، ونحن نعلم أن للاكتشاف والاختراع العلمى آثارا ايجابية وسلبية أحيانا على حياة المجتمع أو بعض أفراده نتيجة التقبل والرفض، والتكيف، وهذه تزيد حياة الانسان تعقيدا أكثر، مما يستوجب الاهتمام بدراسة النتائج المترتبة عن ادخال أو دخول متغيرات الاختراع، والاكتشاف. الى جانب الميدان الأساسى لتتبع حياة المجتمع وظروفه الخاصة والمتغيرات الطارئة عليه من خلال نموه الطبيعى، والاقتصادى، والثقافى.

مثال : مجتمع كان عدد سكانه قبل عشرة سنوات مليونى نسمة، ثم أصبح الآن خمسة ملايين نسمة نتيجة الزيادة العادية ونتيجة الهجرة من الخارج اليه. وأن المستوى الاقتصادى للفرد وللأسرة كان تحت المقبول نتيجة اعتماده على المجهود العضلى الذى يبذله الفرد فى الزراعة، والصيد، والصناعات التقليدية، ثم خلال هذه الفترة (عشرة سنوات) انتقل البلد الى الانتاج الصناعى الحديث، ونتيجة اكتشاف النفط كمورد اقتصادى كبير، وانتشرت المدارس والمراكز الثقافية. فى هذه الحالة نلاحظ زيادة عدد السكان، وارتفاع الدخل،

وارتفاع المستوى الثقافى، مما أدى الى تغير فى حياة المجتمع من البساطة الى التعقيد التى كان سببها المتغير الاقتصادى، والعددى، والثقافى.

ان مثل هذه الحالة تحتاج الى دراسة علمية لمعرفة لماذا لم تستمر البساطة مع التقدم والتطور الذى حدث على حياة المجتمع وظروفه؟.

هذه هى ميادين العلوم الاجتماعية فى البحث والتجريب لمعرفة الأثر السياسى والاقتصادى، والعلمى نتيجة الاختراع والاكتشاف، والثقافة، وغيرها من المجالات الأخرى المستهدف بها الانسان.

وعليه تكون للعلوم الاجتماعية مهمتان :

أ – استيعاب العلوم الطبيعية من حيث تأثيراتها والنتائج المترتبة على تطبيقاتها فى الميدان الاجتماعى، واستنباط الحلول للمشاكل المترتبة عليها أو للظواهر الناتجه عنها، والتى تعتبر تجربة هامة للعلوم الاجتماعية والانسانية من خلال دراسة مجتمع الظاهرة أو المشكلة.

ب – ملاحظة ومتابعة النمو الاجتماعى والتطورات أو الانحرافات الطارئة عليه. لأن حياة المجتمع طبيعيا قابلة للتغيير والتغير حسب المؤثر وليس بالضرورة أن يكون المؤثر الدخيل أو التابع أو المستقل نتيجة الاختراع والاكتشاف الذى حققته العلوم الطبيعية، بل أن من أكبر المتغيرات التى أثرت فى حياة البشرية لم تكن مصطنعة أو مكتشفة. فعلى سبيل المثال الأديان : لليهودية أثر وتأثير، وللمسيحية كذلك وللاسلام أكبر الأثر كدين على حياة مجتمع كان متعدد الآلهة، والعبادات، ومتفرقا، فأصبح موحدا ومترابطا بعامل الدين، ولا ننسى أثر الأفكار على حياة المجتمعات، للبوذية، والكنفشيوسية، والثورة العربية آثار على حياة المجتمعات وتوجهاتها. وقد أثرت هى الأخرى فى العلوم الطبيعية ايجابا وسلبا، تطورا وتخلفا، ولا ننسى أن للفلسفة

الأثر الهام جدا فى بناء حضارات سادت وبادت ولكنها لازالت تؤثر فى تقدم الشعوب وتخلفها وذلك حسب استيعاب مقاصدها ومراميها والغوص فى أغوارها وتنقية الشوائب منها.

كل هذه، عند دخولها على حياة المجتمع ونظمه، لها تأثيراتها التى تستوجب البحث والدراسة بكافة الطرق الممكنة باعتبارها تجارب لا تحتاج الى تقمص أساليب التجارب المعملية والمختبرية بل تستوجب مراجعة تجارب العلوم الاجتماعية بمراقبة العلل والأسباب التى كانت وراء الظواهر والمشاكل الاجتماعية والانسانية من خلال دراسة الأفراد الذين انعكست على سلوكهم آثار متميزة سلبيا أو ايجابيا أو الاثنين معا لمعرفة عوامل أو أسباب التأثير الايجابى والتأثير السلبى لتأكيد الموجب وإبعاد السالب عنها.

ومن الصعوبة التى تواجه مصداقية العلوم الانسانية هى كيف نتأكد من صحة ما نشاهده أو نلاحظه أو نتحصل عليه من معلومات من خلال استمارة مقابلة أو استبيان مسحى؟.

ليس كل الظواهر الانسانية والاجتماعية مبنية على التحيز وعدم المصداقية فدراسة أثر الدين أو التعليم، أو الصحة أو القانون، أو السجن، أو الديمقراطية، على حياة الأفراد والمجتمعات عندما تعيشها كتجربة لم تكن بالضرورة متأثرة بتحايل المبحوث أو انحيازه لأن الرأى الذى تبحث عنه العلوم من خلال التجربة الاجتماعية هو نظرة المبحوث الى المؤسسة الاصلاحية لا نظرته الى نفسه أى أن موضوع الدراسة هو أثر السجن على حياة السجين وليس أثر حياة السجين على السجن.

فلو أجزنا هذه الأسئلة المتعلقة بأثر السجن على حياة السجين حسب الأتى:

1- هل تحب السجن؟ ولماذا؟.

2- هل يؤثر على صحتك ونفسك أو لا يؤثر؟ ولماذا؟.

3- ما رأيك فى نظام الرعاية داخل السجن؟.

4- هل تفضل حياة السجن على الحياة داخل الأسرة برغم ما تلاقيه من قيود؟.

5- هل تعتبر حياتك لفترة حبيسا بين أربعة جدران تجربة فى حياتك العامة؟.

6- ما هى الآثار السلبية والايجابية على حياتك فى السجن؟.

7- هل تعتقد أن السجن مؤسسة اصلاحية أم عقابية؟ ولماذا؟.

8- من خلال تجربتك لحياة السجن وظروفه هل تنصح بالالتزام الذى يبعد عن دخول السجون؟.

9- يقال أن السجن للرجال هل تصدق ذلك؟ ولماذا؟.

كل الاجابات على مثل هذه الأسئلة تعبر عن تجربة نتائجها لا تتأثر بخصوصية المبحوث، لأن موضوع التجربة يتعلق بالمؤسسة الاصلاحية ولا يتعلق بشخصية الفرد، وعليه إن اجابات المبحوث عن المؤسسة لا تحتاج الى تحايل من المبحوث ولا تحايل من الباحث بأساليب اسقاطية على المبحوث. أنها واضحة الأسباب وواضحة الأهداف، وعليه تعتبر الدراسة علمية وتجريبية فى وقت واحد.

أما اذا كانت الأسئلة مندسبة على شخصية المبحوث برغم معايشته للتجربة الايوائية (داخل السجن)، فإن هذه الأسئلة المحددة من خلال المشاهدة أو الملاحظة أو الاستبيان أو المقابلة والتى تستهدف الجوهر تختلف تماما عن أسلوب الأسئلة السابقة من حيث الهدف والفلسفة.

مثال : أسئلة المبحوث حول الآتى، اذا كانت الحالة سرقة مثلا :

السؤال الأول :

لماذا سرقت؟. قد تكون الاجابة لم أسرق. وهذه الاجابة لها احتمالان: الصدق، والكذب، فاذا كانت صادقة يستوجب التسليم بها، واذا كانت كاذبة، يجب معرفة أسباب الكذب. وهذه هى طريقة الأسئلة المباشرة.

ويمكن صياغة السؤال عن الظروف. ما هى الظروف التى جعلتك تسرق؟. وهذا السؤال أيضا يمكن أن تكون الاجابة عليه بلم. وهى أيضا تحتاج الى التأكد منها. وهذا النوع من الأسئلة شبه مباشر.

وقد يصاغ السؤال بشكل آخر. هل من حق المواطن أن يسرق اذا لم تشبع حاجاته؟. أو اذا لم تتوفر له فرص العمل؟.

هذا السؤال غير مباشر عن حالته الخاصة. فإذا كانت الاجابه بلا، ينبغى أن يلحق هذا السؤال بسؤال آخر هو. ما هو الحل من وجهة نظرك؟.

السؤال الثانى :	لا	نعم
- ان الالتزام الدينى لا يشجع على السرقة	[ ]	[ ]
- ان البطالة تشجع على السرقة والانحراف	[ ]	[ ]
- السارق يجب أن تقطع يده [نعم] [لا] ولماذا؟		
- أفضل البقاء فى السجن عن الحياة خارجه اذا لم تحل المشكلة	[ ]	[ ]
- أفضل الخروج من السجن عن البقاء فيه	[ ]	[ ]
- الحياة الطبقية تستوجب من الفقير أن يسرق	[ ]	[ ]
- القتل حق اذا تحكم آخر فى حاجاتك	[ ]	[ ]
- السرقة لا تعبر عن الاحتياج دائما	[ ]	[ ]
- الاعتراف بأننى سارق يعنى لا أخلاق لى	[ ]	[ ]
- أنا لا أحترم السراق [نعم] [لا] ولماذا؟		
- السرقة أقصر طريق لتوفير متطلبات الحياة	[ ]	[ ]
- سرقة المواطن عيب [نعم] [لا] ولماذا؟		
- سرقة الحكومة جائزة [نعم] [لا] ولماذا؟		

معظم مثل هذه الأسئلة تعتبر اسقاطية ويمكن أن يتحايل فيها الباحث، والمبحوث على السواء. يتلاعب الباحث من حيث الصياغة ويتلاعب المبحوث من حيث اعطاء الاجابات. فتكون النتيجة كلها مبنية على التحايل، والتلاعب.

ولهذا يتضح الفرق بين أهداف التجارب فى المثال السابق. فى كلا الحالتين. جرب الانسان حياة السجون. لكن نتائج التجربة التى تستهدف الظاهرة يمكن معرفة أسبابها ويمكن ايجاد حلول علمية لها ومعالجتها. أما التجربة التى تستهدف جوهر الانسان فى وجود عقاب وقوانين لا تحمى المغفلين كما يقال عنها، فإن الاجابات المتحصل عليها شكية وليست يقينية، وعليه يتعذر وصف نتائج تجربتها بأنها علمية سواء باستعمال المجموعة أو الأكثر، وسواء اعتمدنا على مشاهداتنا أو ملاحظاتنا أو مقابلاتنا أو استبياناتنا أو أساليبنا الاسقاطية، كل نتائجها موضع شك، وبالتالى الادعاء بالتصديق التجريبى فيما يقوله المبحوث أو يلاحظه الباحث مسألة لا يمكن الركون اليها ولا التسليم بها. وهذه عبارة عن أمانى الباحثين ذوى الاتجاه الامبريقى الذين لا يصدقون الا ما تراه الأعين ويكذبون ما يحتويه الجوهر. وبما أن الجوهر لا تراه الأبصار والمصدر هو الجوهر فكيف إذن نسلم بالشكل ولا نسلم بالجوهر؟.

إن التصديق بكل ما يقوله اللسان مسألة غير علمية وحسب التجربة قد تختلف الأقوال عن السلوك ومع ذلك نقول لهم لا جناح عليكم اذا كان ذلك قابلا للتعديل والتغيير، أما اذا كان التعصب هو دينكم فنقول لكم ما قاله الله العظيم : " **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**"(1).

---

(1) الأحزاب، الآية 5.

وقوله عز وجل " " **إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**"(2).

إن السلوك الظاهر يمكن أن يكون مصطنعا ولا يعبر عن طبيعة الموقف أو الظاهرة المنعكسة فى الفرد أو الأفراد. وعليه اذا تساءل البعض هل تكون أسباب الظاهرة أو المشكلة فى طبيعتها تماما كالأسباب المحققة للموقف الاصطناعى؟. وبصيغة أخرى، هل هناك فروق بين الطبيعة والاصطناع؟ فإذا كانت الاجابة بنعم، إذن لماذا الاحتكام الى التجريب على مواقف لا تستوجب ذلك، ويكون الحكم على الظواهر والأشياء الطبيعية بطبائعها، لهذا يصعب الحكم على ضمائر الناس بنوايا الباحث أو البحاث، بل الحكم عليها بها وليس بخارجها.

واذا كانت الاجابة بلا فإن النتيجة تكون طبيعية أو اصطناعية لا الاثنين معا، وفى هذه الحالة لا خلاف على شىء ويفرق الفيلسوف توماس هوبز ذلك بقوله: (ان الطبيعى هو ما نجده على ما هو عليه، أما المصطنع فهو ما يقع داخل حدود الفعل البشرى)(3).

واذا تحدثنا عن السلوك الفردى أو الثنائى أو الجماعى أو المجتمعى يكون حسب ما يتراءى لنا، وهذا ليس بطبيعى، ويكون السلوك صناعة وأحيانا افتعالا، ولهذا لا يمكن أن يكون الفعل هو المفتعل، فالطبيعى هو الموجود الحق وكما هو عليه لا كما يجب أن يكون حسب رؤيانا كبحاث فى الفعل الاجتماعى والظواهر الاجتماعية. أما اذا كان كما ينبغى أن يكون عليه وفق تصوراتنا فيكون السلوك اصطناعيا.

---

(2) الحج، الآية 46.

(3) د. امام عبد الفتاح، توماس هوبز فيلسوف العقلانية. دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985م. ص 293.

والفرق بين الطبيعي والاصطناعي : أن الطبيعي يوجد أولا ويكون التفكير فيه ثانيا. أما المصطنع فيكون التفكير فيه أولا ثم يحدث ثانيا. ويكون الطبيعي، سواء كان ظاهرة أو سلوكا أو موقفا مثيرا. أما اذا كان مصطنعا فتكون الظاهرة، أو السلوك، أو أى فعل مثار.

فالأولى مثيرة بذاتها ، أما الثانية مثارة من خارجها.

مما جعل حسن الساعاتي يقول : "(نكرر تحذيرنا من الانخداع المراهق فى أن التجريب فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية هو التجريب فى العلوم الطبيعية)(4).

الفرق بين التجربة والتجريب

أولا - التجربة :

يقول لسان العرب المحيط (التجربة من المصادر المجموعة. ومجرب قد عرف الأمور وجربها. أو الذى قد جرب فى الأمور وعرف ما عنده)(5).

وتعتبر التجربة أحكاما ناتجة عن أفعال. وخطوات حققت أهدافها فأنتجت تجربة يمكن تكرارها للتأكد من صحة فروضها. وهى أوسع مجالا من التجريب مع أنه الميدان الذى أنتجت فيه ونقحت به، أو لم تكتمل الا بخطواته. ونتائج التجربة يمكن أن تكون موجبه ويمكن أن تكون سالبة، وذلك

---

(4) حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية، نسق منهجى جديد. بيروت: دار النهضة العربية، 1982م، ص 236.

(5) لسان العرب المحيط ، المجلد الأول، دار لسان العرب، بيروت : ص 429 - 430.

حسب المستعمل لهـا. اكتشـاف الذرة مثلا تجربـة ساهمت فـى التقدم التقنـى والعلمى للبشرية، وفى نفس الوقت تساهم فى ابادتها. والتجربـة دائمـا ماضيـة والتجريب دائما حاضر. أى أن التجربة تعبر عن مـاض ويمكـن أن تستعمل فى الحاضر والمستقبل على السواء، فلولا خطوات حدثت ما حصلت التجربة، ولولا تطبيقاتها ما نجحت أو فشلت، ولولا نجاحها أو فشلها مـا كـانت تجربـة، وبما أنها كانت فهى ماضية.

ان الحياة الاجتماعية مليئـة بالتجـارب. الزواج، والطـلاق، والترمل، والعزوبيـة تجـارب وكـل حيـاة اجتماعيـة وانسـانية مليئـة بالتجـارب القديمـة والجديدة وتعتبر التجربـة الاجتماعيـة أكثر شـمولية مـن التجربـة فـى العلـوم الطبيعية. ومن السهل اخضـاع أحشاء الطبيعـة وأديم الأرض للتجريـب، ومـن الصعب اخضـاع الانسان لذلك. وتعتبر التجربة حكما لا شك فـى نتائجـه لأنـه ناتج عن تجريب له مصداقية.

والتجربـة الاجتماعيـة يمكـن مراجعتهـا ومعرفـة عللهـا وخطواتهـا ونتائجها، وهى كثيرا لا تكون مصطنعة، بل تمارس وفق معطياتها، وظروفها وتتأكد بقيمها، وتترسخ بحوارييهـا الذيـن آمنـوا بهـا، مثـل الحيـاة العربيـة بعـد الاسلام بحدوث متغير الدين الذى جعل للعرب تجربة اجتماعيـة فـى مـاضيهم بما هو سابق عليه، وجعل لهم تجربة جديدة باعتناقهم له. فكانت الحياة السابقة للرسـالة تجربـة للعـرب تختلـف عـن التجربـة الاجتماعيـة الجديدة وبـالتراكم المعرفى وبالتقدم العلمى يحدث التغيير، وبما أنه حدث ويحـدث، فـإن مـا قبـل التغيرات تجربة تختلف عمـا بعدهـا، فالمجتمعـات التـى عاشـت فتـرة مـا قبـل الثورة البلشـفية تعتبر حياتهـا تجربـة اجتماعيـة تختلـف عـن تجربـة الحيـاة الاجتماعية فى ظل الماركسية، والتى انهارت بحملها عناصر فنائها فيها.

ومع أن عقل الانسان وأحاسيسه ومشاعره لا يمكن اخضاعها للمشاهدة التجريبية، إلا أن ما ينتجه العقل الانسانى يمكن أن يكون تجربة لأن العقل الانسانى وتكوينه الداخلى لا يمكن أن يكون مادة طيعة للمعامل والمختبرات، ويمكن الحصول على ابداعات العقل الانسانى والاحساس بنواياه.

وبناء على ما تقدم يمكن لنا أن نقول أن الحياة الاجتماعية هى التجربة الواسعة التى تفوق أى تجربة فى العلوم التجريبية.

ثانيا – التجريب :

ويقصد بذلك التجريب المقصود المبنى على خطة لها خطوات حدثت، وفق أسباب، وتسعى الى أهداف يمكن الوصل اليها من خلال فروض محددة. ومع ذلك التجريب لم يكن يقينا لأنه اذا أصبح يقينا صح عليه قول تجربة. إنه المحاولات الجادة من خلال اعتماده مبدأ التعديل، والتغيير، والنجاح، والفشل، فإذا فشلنا كان تجريبا، واذا نجحنا أصبح تجربة من خلال معرفتنا لقوانينها وقدرتنا على اعادتها.

ولهذا يكون التجريب فى العلوم الطبيعية خاضعا لضوابط، ويقبل التضحية بالمجرب عليه عندما يستهدف به خير البشرية. سواء كان المجرب عليه حيوانا أو نباتا أو طيورا أو من باطن الأرض أو من قشرتها.

كل ذلك مجاز أما التجريب على بطون البشر وأجسادهم فمحظور. لأن التجريب مبنى على الشك الذى تتساوى فيه كفتا النجاح والفشل التى لا يسمح بتعرض حياة الانسان لمخاطرها، ولهذا يكون التجريب فى العلوم الاجتماعية بالانسان وليس عليه.

ويحتوى التجريب على ديمومة واستمرارية يكون فيه الزمن الحاضر كبيرا أى أنه المتصل المستمر. ما ينجح منه (التجريب) يصبح تجربة وفق اشتراطاتها، وما لم ينجح منه تتم تنقيته وفق الأهداف المحددة له. والتجريب أقل شمولا من التجربة وهى أوسع دائرة منه ويعتبر التجريب هو خطوات التجربة. ولهذا التجربة تحمل التجريب مع أنه لولا التجريب ما كانت التجربة، ولولا التجربة ما تكرر التجريب، وبما أنه المتكرر إذن هو المستمر.

وبناء على ما تقدم تتضح أهمية المنهج التجريبى فى دراسة الماضى والحاضر من خلال دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية المكونة للبيئة وللبشر لمعرفة ما عندهم من مخزون معرفى، وما جسدوه من حضارات وما يسلكوه من عمل أو فعل أو سلوك.

فلسفة المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية والانسانية :

فلسفة المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية تهدف الى التعرف على الظواهر وعللها، وتأثيراتها، وتحديد مقاييس لتقنينها والتحكم فيها، وهى تختلف عن فلسفة التجريب فى العلوم الطبيعية التى تستهدف الاكتشاف والاختراع الفنى والتقنى من أجل تسخير امكانيات الطبيعة، والعيش من ثمارها الظاهرة والكامنة (من أحشائها أو من ظهرها). ومن هنا تتضح فلسفة التجريب فى العلوم الاجتماعية بأن يواكب الانسان ونظمه حركة الاكتشاف العلمى ولا يفرط فى القيم التى صنعها الماضون وهى خبرة ولا تتعارض مع المكتشف الجديد. وأن يستفيد من هذه الاختراعات والابتكارات وأن يوجه عنايته واهتمامه للطبيعة مصدر رزقه، وميدان تدريبه وتجريبه من أجل تقدمه ليصل الى الفضيلة وينتظم فى مجتمع فاضل حسب انتمائه الاجتماعى بود ومحبة وتعاون مع الاخرين الذين تربطه علاقة بهم.

وبما أن التجريب حسب ما قاله عبد الباسط محمد حسن يبدأ بملاحظة الوقائع الخارجية عن العقل(6). اذن هل كل ما يستنتجه العقل عن الخارج عنه صوابا؟.

هذا سؤال احتمالي وفلسفي فتكون الاجابة عليه بكلمة واحدة وهي: قد. لأنه من الصعب التصديق والتسليم بكل ما يستنتجه العقل عما هو خارج عنه، وهنا تكمن فلسفة البحث، وهي التعرف بالعقل على الخارج عنه والخارج منه. وذلك بعد اخضاعه للقياس الكيفي والكمي وتعرضه للنقد الداخلي والخارجي. وللطبيعة الفضل على العقل لأنها الميدان الواسع للتجريب بها وعليها فلولا الطبيعة ما كان للعلم من تجريب ولولا العقل ما كان للطبيعة من قيمة. وعليه لولا الطبيعة ما بحثنا ولولا البحث ما اكتشفنا، ولولا الاكتشاف ما تقدمنا. أي أن فلسفة البحث لم تكن اكتشاف الطبيعة لأن الطبيعة مكتشفة أصلا (ماثلة أمام الناظرين) وبما أنها مكتشفة إذن ما هو دور العقل (الانسان) حيالها؟. دوره التعرف عليها وما يظهر منها، وما يستفاد منها. والتعرف على الأسس المنتظمة عليها لاستنباط أهمية النظم في العلاقات الاجتماعية والانسانية. ومن هنا تتضح فلسفة البحث كأداة تستعمل في التعرف على الأشياء وفق خطوات يمكن مراجعتها والتأكد منها أو تصويبها، وهذه تقنيات متوفرة في الكتب. أما الذي لم يتوفر فهو: هل هناك غرض من البحث أم لا؟. اذا لم يكن هناك غرض منه لم تكن له فلسفة ولا أهمية. لأن البحث العلمي هو البحث الذي في مضمونه فلسفة تظهر أهمية الموضوع ووجوب

(6) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1975، ص 174 - 175.

البحث فيه ويتحسس منها القارىء هذه الأهمية. ولا يمكن أن تكون لأى موضوع أهمية مالم تكن له فلسفة، وعليه لا قيمة لأى بحث اذا لم يكن له فلسفة، لأن البحث بدون فلسفة وهدف،بحث بدون معنى، فالفلسفة فى المعنى والمعنى فى البحث، فبدون بحث لا يتم المعنى، وعندما يتم المعنى تتضح الفلسفة.

وترتبط الفلسفة بالهدف، وهى مكمن انطلاقه، ويرتبط الهدف بالفلسفة وهو غاية طموحاتها. ولهذا يكون للهدف فلسفة وهى الانطلاق منه والوصول اليه، الانطلاق منه كفرضيات وتساؤلات وتوقعات، والوصول اليه كنتائج ومعالجات.

وحسب المنهج التجريبى نتساءل بما أننا سنجرب، لماذا إذن ننطلق من فرضيات ولماذا نحدد أهدافا؟.

فتكون الاجابة بتساؤل آخر. إذن من أجل ماذا سأجرب؟. كل ذلك من أجل أن أتعرف أو أكتشف. واذا عرفت ماذا أفعل؟ أوصى، أقترح، أعالج. ومن أجل ماذا أيضا؟. من أجل التقدم، أتغير، أتطور، أنتظم. إذن من المستهدف من كل ذلك؟. المستهدف بذلك المجتمع. لأن تقدم أو تغير فرد منه أو اثنين أو عينة لا يعنى تقدم المجتمع وتطوره، ولهذا يكون المستهدف بفلسفة المنهج التجريبى هو المجتمع. وبما أنه المجتمع هل يمكن إخضاعه جملة للتجربة المختبرية أو حتى فرد منه؟. إنه من الصعب. وبما أنه من الصعب هل يمكن أن يكون للمجتمع تجربة؟. نعم. وهل يمكن أن يكون له منهجا؟. نعم . كيف؟.

أولا – تجربة المجتمع :

تجربة المجتمع هى التى يخوضها بكامله وفق قدراته، واستعداداته وحسب المتغيرات المستقلة، والتابعة، والمتداخلة. وقد تشترك أجيال متلاحقة

فى تجربة المجتمع، وفى هذه الحالة لا معنى للمجموعة التجريبية والضابطة. فالمجتمع هو الضابط وهو المجرب، وهذه التجربة تفوق كل التجارب فى العلوم الطبيعية والسلوكية، لأنها أوسع مجالا وأكثر أهمية. فإذا قرأنا التاريخ نلاحظ أن هناك حضارات سادت ثم بادت، ولسيادتها أسباب ولإبادتها أسباب. واذا تأملنا حياة أممها وشعوبها نجد أنها عاشت ومارست تجارب كبيرة جدا اذا ما قورنت بتجربة جربت على فأر، أو قطعة قماش، أو رأس بصل، أو شريحة ثوم. وبدون تحيز فإن تجربة يقوم بها مجتمع بكاملة أهم وأعظم من تجربة على شجر، أو حيوان.

والتجربة التى يقوم بها المجتمع بأسره لا يمكن أن يلتصق بها تحيز أو تعمد. لأنها تجربة علمية وبدون باحث الذى قد يكون من قبله التحيز، والتعمد.

ومن خلال مراجعاتنا لحياة الأمم والشعوب نجد أنها عاشت تجارب اجتماعية وانسانية جعلتها فى صدارة التقدم، فللمجتمع اليونانى تجربة لا يمكن إغفالها أو التغافل عنها، وللمجتمع الرومانى تجربة اجتماعية وسياسية، واقتصادية، وللمجتمع الصينى والهندى تجارب وللمجتمع العربى تجاربه، السياسية، والاقتصادية، والدينية التى جعلت له نمطا وحياة اجتماعية وانسانية متميزة ومتغيرة من فترة لأخرى حسب العوامل والمتغيرات التى نبعت منه أو دخلت عليه فللمجتمع العربى قبل الرسالة تجارب وبعدها كانت له تجربة أكبر باعتبار الدين كمتغير تصحيحى للقيم الاجتماعية باثبات الخير منها وابعاد السيء عنها وفق منظور المتغير الجديد (الدين). ولا ننسى التجربة الحديثة التى أجراها المجتمع الماركسى على أوروبا الشرقية. ولكن نلاحظ النجاح والفشل فى هذه التجارب، فقد نجحت التجربية العربية الاسلامية داخل محيطها الاجتماعى والمكانى والزمانى ونجحت خارجه لما لها من معطيات،

ومسلمات، وبراهين تستهدف الانسان كقيمة ثابتة فى الوجود، وقد فشلت التجربة الماركسية لأنها لم تقم على اختيارات ورغبة بل تأسست على اجبار واكراه فلم يتحقق لها الرضى الذى يؤدى الى النجاح بالضرورة. ولأن التجربة الاجتماعية تختلف عن تجارب العينات، والمجموعات، والمختبرات التى تخضع لاشتراطات، وتحكم الباحث، وعليه المناداة التى تبناها البعض من أساتذة علم الاجتماع، والمتتلمذين عليهم بأنه لا يمكن دراسة المجتمع بأسره أصبحت باطلة لأن المجتمع يمكن له أن يعيش ويمارس تجربة من خلال تفاعله، واستجاباته ورفضه، وتقبله للمتغيرات، كل حسب تأثيرها والأسلوب المتبع من قبل المتأثرين بها.

ان حياة المجتمعات تحت وطأة الاستعمار تعتبر تجربة، ويكون التأثير والتأثر بها حسب الأسلوب المتبع، فطول الفترة الاستعمارية تعتبر فترة تجربة على المجتمع المستَعْمَر من قبل المجتمع المستَعْمِر أو الإدارة المستعمرة له.

ثانيا - منهج المجتمع :

اذا تحدثنا عن المنهج يكون بالضرورة الحديث عن الموضوع، فالمنهج هو الطريق الذى ينتظم فيه المجتمع تجاه أهدافه العامة، والموضوع هو الذى يحدد نوع المنهج المتبع من قبل المجتمع. أى أن الموضوع دائما يتضمن منهجا، مما يجعل المنهج كامنا فى الموضوع، أى لا يمكن للمنهج أن يستقل عن الموضوع، لأنه جزء من تكوينه. اذن ما موقع الفلسفة من المنهج والموضوع؟.

تعتبر الفلسفة كالنواة بالنسبة للمنهج والموضوع، فهى المركز الذى ينطلق منه المنهج والمركز الذى يدور حوله الموضوع، مما جعل الفلسفة

عامل توحيد بين الموضوع والمنهج، والذى كل منهما يتطلب الاجابة على السؤال لماذا؟.

لماذا اخترت هذا أو ذاك الموضوع؟. ولماذا اخترت هذا أو ذاك المنهج؟. ولهذا لا يمكن الاجابة على هذين السؤالين الا بفلسفة لأن السؤال لماذا لا يمكن أن يجاب عليه الا فلسفيا. أى أنه يبحث عن الفلسفة التى كانت وراء الاختيار الموضوعى والمنهجى مما جعلنا نقول أن الفلسفة هى نواة الموضوع والمنهج.

ونعود لنسأل هل هناك مجتمع بدون موضوع (بدون رسالة أو مهمة)؟. بالتأكيد لا، إن لكل مجتمع أو أمة رسالة أو مهام تؤديها (أى موضوعا) وبما أنه للأمة موضوع إذن لابد أن يكون لها منهاج. ويؤكد ذلك قول الله تعالى: "***لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا***"(7). أى لكل أمة موضوع ومسلك، تحتكم بالأول وتنتهج الثانى.

وقد تميز المجتمع الهندى مثلا بالموضوع عن غيره من الشعوب والأمم فكان له منهج يميزه عن غيره، وحسب الموضوع الذى تميز به، وهكذا المجتمع اليونانى والروسى، والرومانى، والعربى ولكل منهم شرعة ومنهاج، ولا يمكن أن تتحقق وحدة المجتمع إلا بوحدة الموضوع، والمنهج وهذا هو الأمر الطبيعى. أما اذا كان المنهج لا علاقة له بالموضوع فتكون الطريق المؤدية للأهداف مليئة بالكثبان وسماؤها عواصف ويكون الباحث كالأعمى فى قيادة السيارة. واذا فرض على المجتمع منهجا لا علاقة له بالموضوع فتكون النتيجة فى الآية الآتية:

---

(7) سورة المائدة، الآية 48.

"*تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى*"(8). اذن وحدة الموضوع والمنهج تؤدى الى وحدة المجتمع.

ولهذا يكون البحث الناجح هو البحث الذى يتوحد منهجه مع موضوعه، أما اذا لم يستنبط المنهج من الموضوع، فتكون النتيجة الاختلاف. إذن الاتفاق يكون مع استخراج المنهج من الموضوع والاختلاف يكون بترويم منهج جاهز فى كتب البحث وهو لا يمت بصلة الى الموضوع المستهدف بالبحث أو الدراسة.

أهداف المنهج التجريبى :

يستهدف المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية والانسانية معرفة الجوهر الخاص والعام فى الدراسات الفردية، والثنائية، والجماعية، والمجتمعية، والجوهر لا يخضع كثيرا للمشاهدة، لأنه كامن ولكن يمكن الاستدلال عليه بالجدل، والممارسة دون القدرة على تصويره إلا أننا نجد بعض أساتذة علم الاجتماع، والمدعين للامبريقية دون معرفة فلسفتها بأنهم يصدرون أحكاما ويعممون نتائج عن أشكال سلوكية (مظاهر). ولهذا أتساءل هل كل ما نشاهده من سلوك يعبر عن حقيقة الجوهر؟. اذا كانت الاجابة بنعم إذن يكون هناك تطابق بين الصورة والجوهر. وأذا كان كذلك فإن الصورة أو السلوك هو الجوهر، وفى هذه الحالة يصبح الجوهر ماديا أى المشاعر، والعواطف، والحرية، والحق، والعدل وغيرها، كلها صور وأشكال قابلة للمشاهدة، والملاحظة التى يحتكم بها أولئك المتلمذون على اتجاه لا يعرفون فلسفته. وبما أنه مادى هل يستطيع أحد منهم أو المؤيدون لذلك أن يرسموا شكلا للحرية أو نموذجا للمشاعر، والأحاسيس؟.

---

(8) سورة الحشر، الآية 14.

واذا كانت الاجابة بلا إذن لماذا نثق في صورة أو سلوك قد لا يعبر عن جوهر (حقيقة)؟. ولماذا نصدر أحكاما ونعممها على من لا يشترك فيما شاهدناه، أو اتصلنا به؟. وفي هذه الحالة تصبح كل الأحكام التي من هذا الشأن لا مكان لها في الميدان العلمي.

إن التجريب لم يكن غاية بل غاية استعمالاته الوقوف على الحقائق مباشرة دون وسيط، ولكن الوقوف على الحقائق الاجتماعية والانسانية مباشرة مسألة صعبة، إن لم تكن مستحيلة، لأن الحقيقة لم تشاهد بل الذي يمكن مشاهدته هو التعبير عنها في سلوك، إلا أننا لم نستطع نجزم بأن السلوك كان معبرا بصدق عن الجوهر، ولهذا لم نكن متيقنين أي يصحبنا الشك، وبما أن الأمر كذلك فلا يمكن أن نحتكم به.

ولهذا كل مشاهد لم يكن علة بل السبب والعلة هما وراء المشاهد، وهذه تنقسم الى جزئين :

1- علة صادقة.

2- علة كاذبة.

1- العلة الصادقة، هي التي تنعكس في السلوك، ويكون أصدق معبر عنها أي السلوك في هذه الحالة مترجما حقيقيا للجوهر. لأنه لم يكن متأثرا بمتغيرات ذاتية أو خارجية، بل كان التصرف، والسلوك، حسب الموقف، طبيعيا.

2- العلة الكاذبة ، هي العلة الظاهرة الى لا تحمل المعنى الحقيقي للموضوع، فيكون السلوك الظاهر لا يعبر عن حقيقة الجوهر، بل يعبر عن الموقف، من الباحث أو من الموضوع مما يجعل المبحوث متصنعا للسلوك المشاهد.

وعليه يكون واضحا عدم الثقة فى كل مشاهد أو ملاحظ. وبما أنه كذلك فإنه أصبح من الصعب الاعتماد عليهما كأداتين فى إصدار الأحكام مع أنهما هامَّان فى تجميع المعلومات، ومن هنا وجب تصحيح الخلط بين المشاهدة والملاحظة كأداتين هامتين فى تجميع البيانات أو أنهما مصدر حكم.

أ - فى حالة تجميع البيانات والمعلومات :

تعتبر المشاهدة التى يعتمد عليها المنهج التجريبى أداة هامة تعتمد على النظر والرؤية لأنها تمكن الباحث من الوقوف مباشرة على السلوك أو الفعل المشاهد. والملاحظة هامة جدا لأنها تمكن الباحث هى الأخرى من رؤية السلوك أو الفعل الملاحظ وتمكنه فوق ذلك من استعمال أكثر لحاسة البصر، لأن فى الملاحظة ينظر ويستمع ويستنتج ولهذا تكون الملاحظة أكثر شمولا من المشاهدة.

ب - فى حالة اصدار الأحكام :

فإذا قبلنا بأنهما وسيلتين لإصدار الأحكام فإننا لغينا أهميتهما فى تجميع المعلومات، واذا تساءل البعض كيف؟. يجاب بالأسئلة التالية:

بماذا إذن حكمت على السلوك أو الفعل الاجتماعى؟.

هل لأنك نظرت أم لأنك سمعت؟.

اذا كانت الاجابة بنعم لكليهما فإننا إعترفنا بأن الوسيلة استعملت فى اصدار الأحكام وليس فى تجميع البيانات. واذا كانت الإجابة بلا، فإننا إعترفنا بأن الوسيلتين لجمع المعلومات والبيانات، وبما أن الاجابة كانت باستعمالهما فى تجميع البيانات إذن أى حكم عن طريقهما لا يعتد به.

ويستنتج من الفقرتين (أ ، ب) أن هناك ازدواجية الاستعمال للمشاهدة والملاحظة فى تجميع المعلومات وفى تحليلها أو تفسيرها. وينبغى عدم الزج بهما فى أحكام مطلقة. لأنه كما سبق أن وضحنا لا يمكن التسليم بصحة كل ما يشاهد أو يلاحظ، ولهذا يفضل إبعادهما عن الحكم واعتبارهما فى تجميع المعلومات لأن المعلومات التى تمت مشاهدتها أو ملاحظتها تكون مادة أولية قابلة للتفسير والتحليل والنقد وهذا يستوجب التثبت من كل مشاهد وملاحظ والذى يعطى أهمية للمقابلة فى تصحيح أو تثبيت المعلومات المجمعة عن طريق المشاهدة والملاحظة.

وتعتبر المقابلة فى هذه الحالة اختبارية للمعلومات التى تم تجميعها أو الحصول عليها، ويمكن مساس الجوهر عن طريق الجدل والحوار حول الموضوع ووفق السلوك أو الفعل الذى تمت مشاهدته وملاحظته.

مثال : لو شاهد إثنان من المسلمين هلال شهر رمضان هل تعتبر هذه المشاهدة حكما أم لا؟. بالطبع تكون الاجابة بلا لأن مشاهدة الاثنين لم تكن حكما بل معلومة وهذه المعلومة قابلة للتحقق منها وفق اشتراطات باعتبارهما مسلمين والمسألة تتعلق بصوم شهر رمضان المبارك وذلك من حيث:

أ – أنهما مسلمان بالفعل.

ب – أنهما عاقلان.

ج – أنهما فى حالة صحو وفطنة ولم يكونا فى حالة خمر وغيبوبة.

د – مقارنة حديثهما من أجل اثبات المصداقية من عدمها.

هـ – القسم كتأكيد لمصداقيتهما.

بعد ذلك يصدر الحكم على مشاهدتهما بأنه تأكدت رؤية هلال شهر رمضان من عدمه كل ذلك تم عن طريق المقابلة لاختبار مشاهدتهما لهلال شهر رمضان من عدمه.

الجماعات التجريبية :

لقد ظهرت محاولات لتطبيق المنهج التجريبى بين أساتذة علماء الاجتماع وعلم النفس، وظهرت قبل ذلك نظريات خاصة بكل مجال وبدأ بعضها كمن يعلم الطفل المشى لأنها تعليمية واعتمدت على أسلوب المحاولة والخطأ، وتحققت نجاحات تدريبية فى هذا الميدان العلمى من خلال اخضاع بعض الحيوانات للتجريب والتدريب. ثم وصلت الى التجريب على الانسان من خلال المجموعة أو المجموعات التجريبية والضابطة، ويمكن الاشارة لكل منها حسب الآتى :

1- الجماعة الواحدة : قد يختار الباحث جماعة واحدة للتجريب وذلك بادخال متغيرات يراعى فيها الظرف الزمانى والمكانى لمعرفة أثر المتغير على الجماعة. ويتبع الباحث الخطوات الآتية:

أ - تحديد حجم الجماعة المستهدفة بالبحث.

ب - تحديد المكان المناسب للتجربة.

ج - تحديد الزمان المناسب للتجربة.

د - تحديد المتغير أو المتغيرات المستهدف قياس آثارها.

هـ - قياس الجماعة قبل ادخال أى متغير.

و - توحيد صفات وظروف المجرب عليهم.

ز - قياس الجماعة بعد ادخال كل متغير.

ح - مقارنة أثر المتغير على الجماعة القبلية والبعدية.

ط - اختبار الفروض.

ى - تحديد النتائج.

وتكون الجماعة تجريبية وضابطة فى وقت واحد، ضابطة بقياسها قبل ادخال المتغير، وتجريبية بعد ادخاله، فإذا أردنا معرفة أثر ممارسة

الرياضة على جسم الانسان وعقله لا داعى هنا لاشتراط مجموعتين بحيث تكون واحدة ضابطة والأخرى تجريبية. بل يمكن معرفة المتغير المستقل وهو ممارسة الرياضة على مجموعة واحدة، وذلك بقياس مستوى جميع أفراد الجماعة قبل ممارسة الرياضة. ثم قياسه بعد ممارستها. وذلك لتسجيل الفارق ومعرفة درجة الاستجابة والتغير الذى حدث على جسم الانسان، وعقله.

ومع ذلك نتساءل هل سلوك الانسان فى الظروف العادية وحياته العامة طبيعى أم مصطنع؟.

وهل السلوك الحاصل على التجربة طبيعى؟.

وهل السلوك الطبيعى يساوى السلوك المصطنع، وهل هما ينطبقان تماما؟. كل هذه الأسئلة تحمل اجاباتها واضحة فيها لأنه لا يمكن أن يكون السلوك الطبيعى هو السلوك المصطنع، ولا التجربة تكون طبيعية. ويؤكد ذلك استاذ علم النفس (بجامعة شيكاغو، ت.ج. أندروز) حين قال: (نوع السلوك اليومى الذى نبغى فهمه يقع خارج المعامل، وأنه حين يكون موضع الدراسة فى المعمل يصبح خاضعا للشروط المألوفة للضبط الصارم والقياس الدقيق، لا يكون نفس السلوك. وهذه العبارة بطبيعة الحال صادقة كل الصدق)(9).

ويتم التأكيد على هذه العبارة الناقدة لدراسة الانسان داخل المعامل من أجل معرفة سلوكه وأثر المتغيرات عليه، لأن تصرف الانسان طبيعى فى وسط الأسرة، والقبيلة، والأمة اذا كان الكيان الاجتماعى مرتب هكذا

---

(9) ت.ج. اندروز: مناهج البحث فى علم النفس. ترجمة، يوسف مراد . القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ج1، 1983، ص 30.

طبيعيا، أى أن سلوك الانسان فى المواقف الطبيعية هـو تصـرف طبيعـى، ويتأثر بالمستوى السياسى، والاقتصادى، والاجتماعى والدينى، ومـع ذلـك يسلك حسبما يتراءى لـه بالتفاعل أو الرفض أو الانسجام. بوضـوح أو بتحايل. أما فى مسلكه تحت التجريب فيكون موجها بشكل مباشر أو غير مباشر. إنه موجه للتحقق من فروض البـاحث، وأنـه موجـه للاجابـة علـى المتغيرات المحددة مسبقا من قبل الباحث.

ومع أن دراســة الجماعـة تحت كل هـذه الظـروف تعطينـا مؤشـرات ونتائج محـددة وفق اشتراطات التجربـة، إلا أنهـا غير مضمونـة الأثــر والفائدة الدائمة، مع أنه من الواجب أن يمـارس الانسـان الرياضـة إلا أن أعدادا كبيرة لا تمارسها بشكل فنى أى على أسس وقواعـد علميـة وبـذوق وبالاحساس بالأهمية. وقد تكون كل الجماعة التجريبية التـى تحدثنـا عنهـا تم اختيارها بغير اقتناع تام، مما يجعل الأثر يظهـر حيـن التجريـب نتيجـة ظـروف التحكم والسيطرة ويختفـى بعـد انتهـاء التجربــة بفـترة، وتعـود الأجسام والعقول الى ما كـانت عليـه. ولهذا ينبغـى أن تستهدف التجربـة جوهر الانسان الذى يجعله مقدرا لأهمية الرياضـة ويحفـزه علـى التمسك بها اذا كان المستهدف هو الانسان. أما اذا كان المستهدف قيـاس الأثـر أو معرفة أثر المتغير فإن ذلك من تحصيل الحاصل.

2- المجموعتان : كما سبق وأن حددنا شروطا للمجموعة الواحدة فإننا نحـدد هنا شروطا للمجموعتيـن، وهـى الشـروط السـابقة مـع التأكيد علـى توفـر شـروط التشـابه فـى الصفـات بيـن أفـراد المجموعتيـن، وذلـك مـن حيــث الأعمـار والمستوى التعليمـى، والقـدرات، والاستعدادات قبـل ادخــال أى متغير على المجموعة التجريبية.

وتنقسم المجموعتان الى الآتى :

أ – المجموعة الضابطة:

وهى المجموعة التى تتوفر فيها نفس شروط المجموعة التجريبية قبل ادخال أى متغير عليها، والمجموعة الضابطة هى التى يتم بها قياس أثر المتغيرات على المجموعة التجريبية، أى أنها المجموعة التى لم يدخل عليها متغير تجريبى وذلك لضبط قياسات المجموعة التجريبية أى أنها المجموعة التى يتم بها المقارنة مع المجموعة التجريبية ولا يتضح أثر العامل التجريبى إلا بعد دراسة الجماعتين قبل ادخاله كمتغير وبعد ادخالة كمتغير تجريبى.

ب – المجموعة التجريبية :

هى الجماعة المحددة للتجريب وهى التى يتم ادخال متغير عليها ولا يعرف أثره إلا بمقارنتها مع الجماعة الضابطة ولا يتضح أثر العامل التجريبى إلا بعد دراسة الجماعتين قبل ادخال العامل التجريبى على الجماعة لتجريبه أى بعد تحديد معرفة المستوى الذى عليه الجماعتان قبل تنفيذ التجربة ثم دراسة الجماعة التجريبية بعد ادخال المتغير وتسجيل كل الملاحظات وكتابة كل جديد طرأ عليها.

ولهذا اذا تساءلنا عن الفارق بين المجموعتين هو ما هو؟.

فإن الاجابة هو العامل التجريبى أو المتغير المستقل الذى دخل على الجماعة التجريبية.

وإذا تساءل البعض هل يمكن إيجاد جماعتين متساويتين فى الصفات والظروف؟.

أعتقد الجميع سيجيب بأنها صعبة جدا، معنى ذلك أنها غير متيسرة، وبما أنها صعبة جدا، أو غير متيسرة، فكيف نشق فى نتائج المجموعتين اللتين إدعينا بتوفير شروط متساوية لهما؟.

نستنتج من ذلك أهمية الجماعة أو المجموعة فى دراسة أثر العوامل التجريبية ونستنتج فى الوقت ذاته صعوبة عدم موضوعية دراسة الجماعة أو المجموعتين بالعوامل التجريبية.

3- الجماعة المناوبة : وهى الجماعة المشتركة فى التجربة ويتم ادخال متغير أو متغيرات عليها فتكون ضابطة لبعضها وتجريبية فى وقت واحد مع اختلاف زمن ادخال المتغيرات. ولاجراء تجربة الجماعة المناوبة يمكن ادخال جماعتين أو أكثر فى التجربة وذلك بعد توفر شروط اجراء التجربة من حيث المعطيات والصفات الأساسية للجماعات المستهدفة بالتجريب.

ويكون البحث التجريبى بالتوالى على الجماعات التى تم اختيارها للتجريب من قبل الباحث وذلك بادخال العامل التجريبى على كل جماعة بعد الأخرى، وتكون كل جماعة تجريبية حين ادخال العامل التجريبى عليها ضابطه لغيرها من المجموعات الأخرى بعد انتهاء زمن التجريب وتسجيل أثر المتغير أولا بأول فإذا كانت الجماعات التجريبية ثلاث مجموعات (أ، ب، ج) تكون المجموعة (أ) تجريبية عند ادخال العامل التجريبى عليها وبعد ادخال العامل التجريبى على المجموعة (ب) تكون المجموعة (أ) ضابطة للمجموعة (ب)، وعند ادخال العامل التجريبى على المجموعة (ج) تكون المجموعتان (أ، ب) ضابطتين للمجموعة (ج) التى لازالت تحت أثر العامل التجريبى، وهكذا تتم التجربة بالتناوب على كل المجموعات المستهدفة بالبحث وليس فى وقت واحد. وهكذا يتحدد نوع الجماعة بأنها ضابطة أو تجريبية حسب ادخال العامل التجريبى وحسب مراحل البحث وفترة المناوبة على كل متغير.

وهذه الجماعات المناوبة يمكن أن تستهدف فى دراسة أثر أكثر من متغير مع مراعاة زمن ادخال كل متغير وقياس أثر السابق واللاحق على كل جماعة.

ولكن عندما تكون الجماعات المدروسة أكثر من جماعتين فإن قياس أثر المتغيرات قد يتأثر ويختلف بين الجماعات المستهدفة بالتجريب خاصة اذا كررنا العامل التجريبى بفارق زمنى يكون له حسابه بين أول جماعة تجريبية وآخر جماعة تجريبية لأن لكل متغير أثر مباشر وغير مباشر حسب الفروق الفردية التى لا يمكن أن يتساوى فيها الأفراد والجماعات مهما عملنا من حيطة وحذر.

إن الدراسات والبحوث التجريبية فى الزمن الحاضر، لم تكن ناتجة عن فراغ فكرى لحظة أو زمن ظهورها. أو أنها ناتجة عن المادة المتكونة من الهيولى والصورة، بل إن زمن المشاهدة والملاحظة والاطلاع على المكتوب أو الموثق هو نقطة الانطلاق فى الزمنين (الماضى، والمستقبل) لاستكمال المعلومات واثراء الأفكار مما يجعلنا نقول إن التجريب لم يكن منطلقا من فراغ لا مصدر له، أو أنه لم يستند على فكر ومعطيات. ونتيجة لتداخل الزمن فإنه كفيل بإثبات أو بطلان صحة ما يطلع عليه، فبالحواس الحاضرة، فى الزمن المضارع تتم رؤية الماضى، والمستقبل، وتتكرر الصور أو يكتشف الجديد، مع أنه كامن فى معطيات سابقة.

فإذا نظرنا الى شجرة تفاح صغيرة نرى فى الزمن الحاضر (زمن المشاهدة) ثمارها حتى وإن لم تكن فى ذلك الوقت مثمرة، وهذا هو مستقبل الشجرة. ونرى فى نفس الوقت أنها كانت برعما أو بذرة وهذا هو ماضيها. ولهذا نقول إن الاعتماد على الحاضر المشاهد فى الزمن المضارع بمنعزل عن الزمنين الهامين (الماضى، والمستقبل) لا يؤدى الى

التعمير، والانتاج، والتواصل، والتجديد، والتطور ويفتقد الى عناصر التحفيز والتشويق، ونحن لو لم نتذوق طعم التفاح ونعرف فوائده ما دعتنا أفكارنا الى ضرورة الاستمرار فى غرسه فى الزمن الحاضر لنأكل منه فى الزمن المتوقع (المستقبل).

عيوب التجريب فى العلوم الاجتماعية :

1- إن النتائج المتوصل إليها من خلال الجماعة التجريبية والضابطة يصعب تكرارها بنفس الدرجة والدقة مثلما يحدث فى العلوم الطبيعية.

2- إنه من الصعب إخضاع الإنسان الى التجريب المختبرى نظرا لأهميته.

3- عدم توفر الأجهزة والأدوات الدقيقة التى تمكننا من قياس أثر المتغير التجريبى بين الجماعات التجريبية والضابطة. وما هو مستعمل الآن فى قياسات العلوم الاجتماعية والانسانية يتأثر سلبا وإيجابا باستجابات المبحوث التى قد تتغير من وقت الى آخر فى حالة تكرار التجريب.

4- إن الاعتماد على المشاهدة والملاحظة فى العلوم الاجتماعية لم يكن ناجحا دائما لأن المشاعر، والعواطف، والحب والكراهية، والحنان، والتناغم الوجدانى من الصعب أن تتم رؤيته. وبما أن الانسان متكون من كل هذا وأكثر، وبما أن كل هذا لا يمكن مشاهدته وملاحظته إذن لا يمكن الاعتماد على وسيلة المشاهدة وأحكامها فى دراسة الانسان كجوهر (له محتوى أو مضمون داخلى).

5- من الصعب التحكم فى أثر المتغير بنفس الدرجة على الأفراد أو الجماعات التجريبية، لأن تفاعل الأفراد أو استجاباتهم مع أى عامل تجريبى قد تتأثر بالفروق الفردية، وبالخلفية الثقافية أو الاجتماعية، أو العاطفية للفرد والجماعة والمجتمع.

6- أخطاء التحيز : والذى يحدث نتيجة الشخصانية (الأنانية) التى يتأثر بها الباحث تجاه الموضوع أو تجاه الأفراد أو الجماعة المدروسة. وكذلك أخطاء تحيز المبحوثين، اذا فطن المبحوثون الى أهمية دورهم فى نجاح التجربة لما يترتب عليها من نجاح للباحث الذى تربطهم به علاقة قرابة، أو لتوقعهم بأن هناك عائد خاص عليهم اذا نجحت التجربة مما يجعل الجماعة التى تحت التجربة متصنعة السلوك. وفى هذه الحالة يكون السلوك غير طبيعى، والتجربة أيضا غير طبيعية مع انسان طبيعى.

7- بما أن كل ظاهرة تحتاج الى تحليل وتفسير، ومن الصعب أن يتجرد الباحث من ذاته تماما أى من إنتمائه الاجتماعى، والفكرى، والدينى لهذا قد يتأثر الموضوع بتفاسير الباحث وحتى إن إعتمد على المشاهدة، والملاحظة، والمقابلة فى تجميع المعلومات فإن تفسيره لها قد لا يكون معبرا تماما عن مصداقية المبحوث خاصة اذا فطن المبحوث بأنه مشاهد أو ملاحظ أو أنه تحت الدراسة مما يجعله متصنع السلوك، والذى وللأسف، سيعتمد عليه الباحث فى معلوماته وتفاسيره.

الفصل السادس

منهج دراسة الحالة

منهج دراسة الحالة:

انه المنهج الذى يهتم بدراسة الظواهر والحالات الفردية، والثنائية والجماعية، والمجتمعية ويركز على تشخيصها من خلال المعلومات التى جمعها وتتبع مصادرها فى الحصول على الحقائق المسببه للحالة، ويصل الى نتائج ومعالجات من خلال دراسته المتكاملة، ويقول عبدالباسط محمد حسن: (تتفق أغلب تعاريف منهج الحالة على أنه المنهج الذى يتجه الى جمع البيانات العلمية المتعلقة بأية وحدة سواء كانت فردا أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو نطاقا اجتماعيا أو مجتمعا محليا أو مجتمعا عاما، ويقوم على أساس التعمق فى دراسة مرحلة معينة من تاريخ الوحدة أو المؤسسة أو دراسة جميع المراحل التى مرت بها)(1).

ويعتبر الطريق العلمى فى دراسة الحالات بتعمق وتوسع فى اطار تحقيق الأهداف.

وقد تكون الحالة موضوع البحث والدراسة خيرة، من أجل أخذ العبر منها واستنباط المبادىء التربوية، والاجتماعية التى تساهم فى تنظيم المجتمع وبناء شخصيته المتكاملة. وقد تكون شريرة أو سيئة مما يجعل التركيز عليها والاهتمام بها مسألة ضرورية من أجل اصلاح العناصر التى انعكست الحالة فى سلوكهم المرفوض اجتماعيا.

لأن الحالة كما عرفها ابن عقيل فى اللغة هى : (ما عليه الانسان من خير أو شر ويقال حال وحالة)(2).

---

(1) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى. القاهرة: الأنجلو المصرية، 1975، ص 237.

(2) شرح ابن عقيل: الجزء الأول، المكتبة المصرية، بيروت : 1988، ص 568.

اذن منهج دراسة الحالة لم يقتصر على دراسة الحالات المشينة أو السيئة فقط بل يهتم أيضا بدراسة الحالات ذات المضمون الايجابى الذى هو الآخر يقدم خدمات جليلة للفرد، والأسرة، والمجتمع. لأن الحالة لا تتميز الا بمضمونها، فعندما نقول أن العرب فى حالة وحدة، هذا يعنى أن التفاهم والتفاعل بين ابناء الأصل والانتماء الواحد إرتقى الى مستوى النضج الذى حقق لهم أملهم المنشود وهو الوحدة، وعندما نقول العرب فى حالة تفرقة، هذا يعنى أن عدم التفاهم وسوء النية بينهم نزل وإنحط الى مستوى الأنا الذى حقق لهم التفرق، نتيجة قصورهم وعدم وعيهم بمستوى الذات العظيمة التى فيها العزة للعرب.

اذن الحالة الفردية هى سيرة متكاملة ومتلاحمة يمكن التعرف عليها من خلال مراجعتها وتتبع مراحل تطورها أو تعقدها، وتحديد عناصر القوة والضعف من خلال معرفة مضمونها والمنظومة التى انتظمت عليها، وأظهرتها الى مستوى الحالة الخيرة أو الشريرة. لقد خلق الله العليم الانسان فى أحسن تقويم ثم ارتد البعض منه الى أسفل السافلين بما قاموا به من أعمال واطئة، وبقى الذين آمنوا فى أحسن تقويم بما قاموا به من صالحات وأعمال الخير " **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون**"(3).

إن أساس خلق الانسان هو أحسن تقويم فى كل المخلوقات بمضمونه وصوره، ولكن لماذا الانسان لم يحافظ على أحسن صورة له؟.

---

(3) التين ، الآيات 4 ، 5 ، 6.

الطمع فيما ليس له فيه حق هو الذى شوه الصورة الجميلة للبعض مما جعلهم، فى أسفل السافلين، وطمعوا فى كل شىء وحاول البعض أن يحرف آيات الله التى هى فى لوح محفوظ من أجل طمعهم فى الدنيا "**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه**"(4). لأنهم يريدون به كيدا مما جعلهم خارجين عن مقام العليين وبقوا هم الأسفلون بما قدمت أيديهم وهذه عاقبة المكذبين " **فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين**"(5).

هذه أنواع من الحالات تتميز عن بعضها بالأفعال المرتكبة ويقيم الانسان عليها وتحدد مكانته حسب إقدامه أو إحجامه عن عمل الخير.

ومع ذلك إهتم الاخصائيون الاجتماعيون كثيرا بدراسة حالات الأفراد من أجل اعادتها والارتقاء بها من المستويات السفلى الى المستويات العليا. لأن باب التوبة مفتوح للذى خلق فى أحسن تقويم، ولكن قد تصيب الفرد غيبوبة تفصله عن الإرتقاء الى أهمية خلقه مما جعل مؤسسات المجتمع تهتم بالأفراد من أجل إصلاح حالاتهم، ويقبل المجتمع أن يغفر لهم سيئاتهم ويمكنهم من تأدية أدوارهم الاجتماعية كمواطنين لهم حقوق وواجبات ينبغى عليهم تأديتها. وهذا واجب مشترك بين المجتمع ومؤسساته وأفراده، وليس عيبا أن يغفر المجتمع لأفراده أخطاءهم وليس عيبا على الأفراد أن يكفروا عن سيئاتهم.

لأن الله الذى خلقنا جميعا قادر على أن يغفر الذنوب فما بالك نحن الذين نخطئ ونصيب "وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى" (6).

---

(4) البقرة، الآية 75.

(5) الصافات، الآية 98.

(6) طه ، الآية 67.

دائما الانسان لا ييأس حتى وإن وقع تحت ظروف قد تجعله منحرفا لأن الاستسلام لظروف الحالة هو نتيجة ضعف الايمان بامكانية الاصلاح، والتى تحتاج الى رفع همم الأفراد، وتفطينهم بقول الله " فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين" (7).

إن نتيجة الخصوصية التى يتميز بها الفرد عن غيره فى الطبائع، والتزامه بالمثل، واختلافه فى الطموحات، وفى كيفية اشباع حاجاته، جعلت له فردية ينبغى مراعاتها عند اجراء الدراسات والبحوث، وعند التعامل معها على كل المستويات، وأن أى تعميم للخصوصية ستصاحبه الأخطاء، وأن أى تغافل عنها لا يؤدى الى تحقيق نتائج هادفة وناجحة.

إذن ينبغى مراعاة خصوصية الفرد أو الجماعة، أو المجتمع نتيجة وجود فروق فردية، وقدرات واستعدادات تختلف من شخص لآخر. وبالتالى لا يجب إغفالها. فقد تكون المشكلة واحدة، كأن تكون سرقة أى قد يشترك أفراد كثيرون فى جريمة سرقة، لكن الأسباب التى دعت للسرقة لم تكن واحدة، إنها تختلف من فرد لآخر، مما يجعل دراسة كل فرد تختلف عن الآخر وان التشخيص للمتغيرات المتأثرة بالأسباب، والعلاج دائما للعلل والأسباب، وبما أن الأسباب مختلفة، فتكون المعالجات أيضا مختلفة، وبما أنها كذلك لا يجوز التعميم فيها. ومع هذا لم يقف منهج دراسة الحالة عند تجميع البيانات والمعلومات وابداء المقترحات أو التوصيات التى قد يؤخذ بها وقد لا يؤخذ بل إنه منهج اصلاحى وذلك بما يستند عليه من تعمق وتتبع أثناء البحث وبما يظهره من حلول لإصلاح موضوع الحالة خاصة وإن اصلاحاته تنبع من طبيعة الحالة المدروسة، ولهذا يعتبر منهجا تشخيصيا وعلاجيا.

---

(7) القصص، الآية 67.

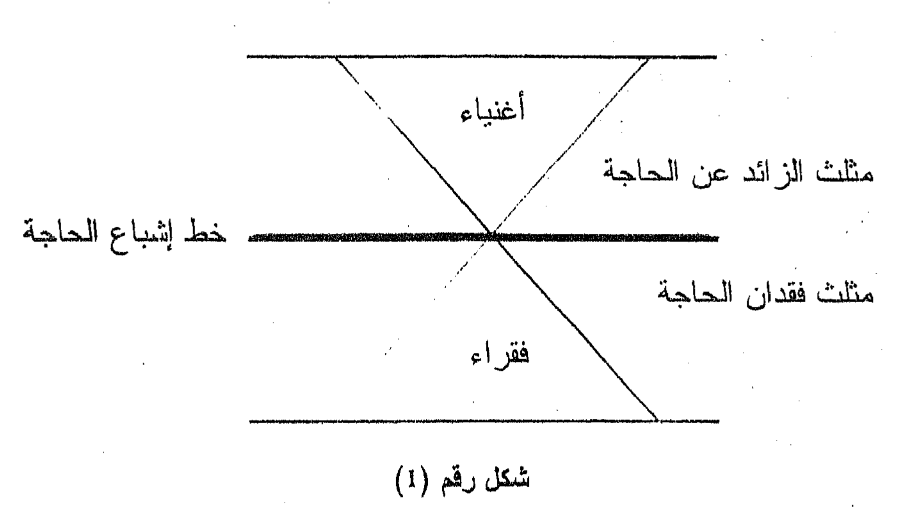
ويختلف فى مضمونه عن تقديم المساعدة لأن تقديم المساعدة ليس من عمل المنهج بل تقديمها هو من صميم عمل المؤسسة أو الجهة المسؤولة ولتبيان ذلك نفترض أننا سندرس حالة مجتمع طبقي وليكن هذا المجتمع مسلما باعتبار أن موضوعه يحتوى على عناصر الاصلاح فيه، فتكون الزكاة هى الوسيلة الاصلاحية، ولم تكن من أجل المساعدة. لأن فلسفة الزكاة هى المساواة بين أفراد المجتمع لا من أجل استمرار العازة وتقديم المساعدة، واذا تساءل البعض لماذا؟. يجاب عليهم بأنها الحق المعلوم، وبما أنها الحق المعلوم فهى لم تكن مساعدة أو منة من أحد، وهى ركن من أركان الاسلام، فاذا انهدم هذا الركن اختل التنظيم الاجتماعى السليم وأصبحت حالة المجتمع تحتاج الى دراسة وتشخيص، وعلاج، يقول الله عز وجل: **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضنا حسنا**"(8). انه يأمر باعطاء الزكاة وهى المال الزائد عن الحاجة لمن هو فى حاجة اليها، وكلمة قرض تعنى أن يقطع الفرد الزائد عنه ويعطيه للمحتاجين اليه فيجازيه الله خيرا فى اليوم الآخر وكأن القرض الذى قدمه للمحتاج كأنه قدمه لله تعالى.

ان المجتمعات الاسلامية وعلى رأسها المجتمع العربى قبل الرسالة لم تعرف الزكاة، بل كانت تعرف المساعدة، وهى تقديم أبسط الأشياء الى المحتاجين، ومنها مثلا تقديم بقايا الأغنياء للفقراء كفضلة الأكل، والملابس الرثة مع التعزير أحيانا والاحتقار، هذه تسمى المساعدة. أما الزكاة فهى الحق الذى يستوجب أن يقطع، أو يدفع لأن دين الاسلام استهدف المساواة بين البشر، وأوجب الزكاة كقاعدة هامة فى التسوية بين الناس وذلك بأخذ الزائد من الأغنياء وإعطائه للمحتاجين.

---

(8) المزمل ، الآية 20.

لأنها الحق المعروف والمعلوم للفقراء فى ثروات الأغنياء. فكان المجتمع قبل الرسالة يتكون في مجمله من ثلاث طبقات: الأغنياء، والفقراء، ومشبعى الحاجة، كما هو فى الشكل رقم (1).



شكل رقم (1)

ان الغرض من أخذ المال الزائد عن الحاجة، واعطائه لمن هو فى حاجة اليه، يؤدى الى رفع المستوى الاجتماعى، والاقتصادى للمحتاجين، ليصلوا الى مستوى اشباع الحاجة، وهذا يؤدى الى جعل من أخذ الحاجة الزائدة، وكان فى حالة أكثر من الاشباع، يعود الى درجة الاشباع. فيلتقى مع من كان محتاجا عند خط المساواة خط اشباع الحاجة وازالة الفوارق، وهذا التنظيم الاجتماعى الجديد يعالج الحالة التى كان عليها المسلمون قبل نزول الرسالة، فيتكون الشكل الجديد للمجتمع الذى أصلحت حالته كما فى الشكل رقم (2) خط مستقيم يتساوى فيه كل الناس حيث لا غنى متميز ولا فقير محتاج، الكل متساوون ولا فوارق بينهم.

خط إشباع الحاجة ____________________

(خط المساواة)

شكل رقم (2)

وتعتبر نقطة تلاقى المثلثين بتقابلهما الرأسى، هى نقطة التخلى عن الفقر، والانتقال الى إشباع الحاجة (انها نقطة تحرير الحاجات)، وبعدها تكون انطلاقة المجتمع بكامله الى الأمام وليس الى الأسفل والأعلى، كما فى الشكل رقم (1) لأن الانتقال الى الأسفل والأعلى ينتجه سوء التوزيع والظلم الاجتماعى(9).

يتضح من الفقرة السابقة أهمية فلسفة الزكاة، ولكن اذا تساءل آخرون لماذا لم يتحقق الاصلاح مع وجود فريضة الزكاة؟. لم يتحقق ذلك نتيجة عدم الالتزام باعطائها، وإعتقاد البعض بأنها لم تكن حقا للمحتاجين وتمسكهم بأن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وتناسوا قوله تعالى: " **وقولوا للناس حسنا** وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" (10). ولكن لو التزم المسلمون بإعطاء الزكاة من بداية اسلامهم لما وجد بينهم فقير وغنى، بل يكون المجتمع الاسلامى مجتمع المساواة الذى تستهدفه فلسفة الاصلاح التى نحن بصدد الكتابة عنها فى منهج دراسة الحالة لأن الاصلاح علاج نهائى، أما المساعدة فتلفيق مؤقت. ولهذا يقول الله تعالى: " **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**"(11)؟.

فالاصلاح يؤدى الى الاعتماد على النفس، أما المساعدة فتؤدى الى الاعتماد على الغير.

وفى التعامل مع الحالات الفردية ينبغى البدء مع الأفراد أثناء الدراسة من حيث هم، وكما هم عليه، والعمل معهم على تحقيق ما يفضل أن يكونوا عليه.

---

(9) عقيل حسين عقيل: الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع الجماهيرى. طرابلس: جامعة الفاتح، 1992، ص 38.

(10) البقرة، الآية 83.

(11) هود، الآية 117.

فلا نتوقع ممن يعانى من سوء توافق أو تفاعل، وعدم التعاون مع الآخرين أن يكون سويا.

وبما أننا نود منه أن يكون متعاونا، ومتوافقا، ومتفاعلا علينا أن نبدأ معه من الظروف التى يعانى منها، حتى يحس أن هناك أهمية وراء مراعاة الباحث لظروفه، وذلك بعدم استخدام كلمة إنك مخطىء أو أنك شاذ، أو إنك مجرم، أو سارق. إن هذه الصفات لم يولد الانسان بها، ولكنه تعلمها من الحياة الاجتماعية، وظروفها التى جعلت منه منحرفا.

إذن فى البداية ينبغى أن تكون المعاملة المهنية بين الباحث والمبحوث علمية وانسانية وفنية من حيث التعامل والانتباه لكل المتغيرات التى قد تظهر أثناء الدراسة وتجميع المعلومات عن الحالة.

وهذا يستوجب مراعاة مستوياتهم العقلية، والصحية والاجتماعية والتعليمية، والاقتصادية لكى تكون نقاط انطلاق فى اتجاه اصلاح الحالة وتكون الأسباب هى الأهداف، أى أسباب الحالة هى الأهداف المتوجه اليها بالمعالجة، ولأن الباحث يبحث عن الأسباب باعتبارها المستهدفة، إذن ينبغى أن يبدأ مع المبحوثين من حيث هم، ليستطيع معرفة الأسباب التى تصبح معطيات للتشخيص والتحليل، والتفسير، وتصبح نتائج للاصلاح والعلاج لكى يتحقق للباحث الوصول بالمبحوث الى ما يفضل أن يكون عليه وفقا لنواميس المجتمع وأخلاقياته.

يهتم منهج دراسة الحالة بتثبيت الارادة، التى تعتبر هى القوة الدافعة للفعل المرتكب، والذى قد يكون ايجابيا وقد يكون سلبيا، مما يجعلنا نقول أنه ليس كل فعل مرتكب بارادة حرة يعبر عن أعمال خيرة فقد ينحرف الفرد بارادته وقد ينحرف بمؤثرات خارجية، وحتى ما يرتكبه بارادة يمكن أن ينكره.

ويقول اوترانك Otto Rank : (إن كل انسان يريد وفى نفس الوقت ينكر ما يريد لأنه ثمة شعور بالذنب يصاحب الارادة عادة"(12). مع إن الارادة كما عرفها العلماء السوفييت هى: (التصميم الواعى للشخص على تنفيذ فعل معين أو أفعال معينة)(13). وبرغم أنها التصميم الواعى لارتكاب الأفعال، إلا أن إنكارها فى ظروف معينة يمكن تحقيقه بارادة صاحب الارادة، (الفرد مرتكب الفعل).

وعليه فى الوقت الذى ينبغى فيه مراعاة ارادة المبحوث أو المبحوثين فى دراسة الحالات، وخاصة ذات التأثير السالب على حياة الفرد، أو المحيط الاجتماعى له، فى الوقت ذاته على الباحث أو الباحثين العمل على تهذيب ارادة المبحوث سواء كان فراداً، أو اثنين، أو أكثر. والتهذيب يؤدى الى تطابق بين ارتكاب الفعل، والاعتراف به، وتهذيب الارادة يؤدى الى تصحيح السلوك. لأن الاعتراف بالفعل لم يكن إدانه فى العلوم الاجتماعية والنفسية مع إنه إدانه قانونية.

مما يجعل مهام الاخصائيين الاجتماعيين والنفسيين انسانية، واصلاحية، وليست عقابية. وبالارادة الواعية بالسلبيات والايجابيات يمكن الاصلاح والعلاج بمراعات اشتراك المبحوثين مع الباحث فى تحديد المبادىء الأساسية للاصلاح والعلاج، والاعتماد على الالتزام بها اختياريا وليس اجباريا.

---

(12) محمود حسن: مقدمة الخدمة الاجتماعية. بيروت : دار النهضة العربية، ص 143.

(13) الموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من العلماء الأكادميين السوفياتيين، اشراف: م. روزنتال، ب. يودين. " ترجمة سمير كرم" بيروت: دار الطليعة، الطبعة الخامسة، 1985، ص 17.

يراعى فى دراسة الحالة تداخل الارادة مع بناء الذات المتكون من قيم المجتمع وتاريخه المنعكس على شخصية الفرد.

وتعتبر الذات قيما يتشربها الفرد وقد يتميز بها، وهى ليست الشخصانية الفردية. لأن الشخصانية هى حب الفرد لشخصه ومحاولته إظهار ذلك على الآخرين، أما الذاتية فهى المتكونة من حب الجماعة والمجتمع، وما جعل الفردية ذات صلة بالشخصانية، هو حبها للأنا، وما يجعلها ذات صلة بالجماعة والمجتمع، هو حبها للذات المتكونة من عادات وتقاليد المجتمع، ودينه، وأصالته وانتمائه الثقافى والفكرى.

ولهذا اذا ضعف البناء الاجتماعى والتربية الاجتماعية ضعفت الذات، واذا ضعفت الذات ضعف الانتماء الودى مع المجتمع (مع متطلباته ونواهيه) فتكون العلاقة الفردية مع المجتمع علاقة نفعية وليست علاقة قيم وأخلاقيات مما يؤدى الى الانحراف المتحقق من الانسلاخ عن الذات والتمسك بالأنا، ولنا وجهة نظر بأن الأنا تختلف عن الذات، فالأنا شخصانية، أما الذات فاجتماعية والأنا فردية والذات عامة، وأعتقد أن هناك ملابسات كبيرة فى مفهومهما المتناولين فى العلوم النفسية والاجتماعية، واللذين يحتاجان الى توضيح نستهدفه فى بحث آخر، والذى يعنينا هنا هو بناء الذات الذى يستوجب من الباحث أو الاخصائى الاجتماعى والنفسى العمل على تنبيه المبحوث الى القيم التى انسلخ عنها واظهار أهميتها الفلسفية والذاتية التى تجعل منه باحثا عن كل ما هو موجب (محبوب) والابتعاد عن كل ما هو سالب (مكروه) واذا بنيت الذات على حب الخير يكون الفرد خيرا.

ولكى تستمر الذات قوية فى تكوين الأفراد ينبغى العمل على ديمومة العلاقات الاجتماعية فى الاتجاه الموجب، وإذا أحس الفرد بتلك الأهمية إزداد تمسكا بها، وإذا إزداد تمسكا بها دامت حالته الخيرة فى إتجاه المحافظة على

سلامة الذات، التى تتطلب وضوح المبادىء ووضوح الأهداف، وهكذا يتحقق العلاج ويستمر. ولكن اذا ارتبط الاصلاح بالماديات فإنه قد ينتكس بانتهاء المصلحة المادية ولا يكتسب صفة الديمومة. أما اذا ارتبط بقيم خيرة تتعلق به وبالمجتمع الذى ينتمى اليه، فيكون للاصلاح صفة الديمومة.

إن بناء، وتحقيق الارادة، وديمومة الاصلاح لا يتحقق إلا بوجود تفاعل مسبق يتم بين الباحث والمبحوث أولا، ثم بين المبحوث والموضوع ثانيا، لأن التفاعل هو الذى يحقق التفاهم. فبدون تفاهم لا تبنى الذات، ولا تتحقق الارادة، ولا يتم الاصلاح.

ولا ننسى دور الخبرة فى دراسة الحالة الذى يستوعب به المبحوث وموضوعه، وبه تتحقق الأهداف من خلال تتبع واضح ودقيق لكل مرحلة من مراحل الدراسة والتشخيص. لأن الخبرة متكونه من بلورة العلوم مع التعامل الميدانى فى المجالات الاجتماعية، والانسانية، وبالخبرة يتم تقبل المبحوث كما هو، والعمل على اصلاحه، والوصول به الى ما ينبغى أن يكون عليه، والخبرة تعنى إهتمام الباحث بالمبادىء المهنية التى تستوجب تقبل حالة الفرد، والمآسى المترتبة عليها أحياناً، وبالخبرة تراعى سرية المعلومات الخاصة، وتتحقق المشاركة للمبحوث فى تصحيح حالته دون إخلال بالعلاقات المهنية التى تتكون بين الباحث الخبير، وبين المبحوث.

أهمية دراسة الحالة :

1- إنها تستوعب الموضوع بوضوح من خلال تناوله بشكل متكامل تتضح فيه الأسباب والعلل، والمتغيرات المتداخلة والمستقلة، التى أظهرت الحالة قيد البحث والدراسة، ويتيسر بمنهج دراسة الحالة التشخيص العلمى والمهنى الذى يؤدى الى إصلاح الموضوع.

2- تهتم دراسة الحالة بدراسة الماضى كمؤثر أساسى فى إظهار الحالة فى الزمن الحاضر، وتوقعاتها المستقبلية.

3- إنها تهتم بدراسة السلوك والعمل على تقييم انحرافاته.

4- إنها تفيد فى دراسة حالات الذين فشلوا والذين نجحوا فى حياتهم بشكل مقارن لتبيان أسباب النجاح والتمسك بها، وأسباب الفشل والحياد عنها.

5- إنها تمكن المجتمع من الاهتمام بأفراده، وجماعاته بتطبيق الاصلاحات المتوصل اليها عن طريق الدراسة، والتشخيص المتعمقين.

6- تزيل المخاوف من المبحوث من خلال تقبله لحالته واستيعابه لعناصر الضعف التى ألمت به وتأثر بها، وذلك بمعرفته إمكانية إصلاحها ومعالجتها.

7- إنها تحقق التنفيس الوجدانى للمبحوث الذى يجد الاخصائيين القادرين على تقبله، والاستماع اليه، واحترامه، وتكوين علاقات مهنية معه، وتخفيف التوتر عنه. إن الانصات، والانتباه اليه يحس من خلالهما بأهميته، وحرص الباحث الذى يطمئنه بعنايته نحوه، خاصة إذا أعطى الباحث للمبحوث الوقت الكافى الذى يعبر فيه عن حالته، والملابسات التى تداخلت عليها، وأن يتركه يعبر بحرية عن أحاسيسه ومشاعره السلبية والايجابية على السواء.

أهداف دراسة الحالة :

1- تفهم الموضوع وآثاره على عناصره المتأثره به.

2- معرفة موقف الأفراد من الموضوع.

3- تبصير المبحوثين الى ذاتهم ومستقبلهم.

4- تحديد كل العوامل، والعناصر المؤثرة والمتأثرة بالموضوع، والكشف عن الأسباب المتداخلة فى الحالة وإيجاد حلول لها.

5- تهدف الى معرفة الجوهر من خلال ملاحظة ومشاهدة السلوك.

6- اشراك المبحوث فى التعرف على حالته وتوليد الرغبة لديه بما يحفزه للبحث عن حلول.

7- إنها تهدف الى الاصلاح وليس للمساعدة.

مصادر دراسة الحالة:

تنقسم مصادر جمع المعلومات الى مصادر بشرية، ومصادر مكتوبة.

أولا – المصادر البشرية:

وهم المستهدفون بالدراسة سواء كانوا ذوى علاقة مباشرة بالموضوع، أو بالشخص المرتكب للفعل ، فقد يكون المصدر فرداً، أو اثنين، أو أسرة، أو الرفاق، أو الجيران، أو الطبيب، والمحامى، والمدرس. وقد يكونوا جميعا مصادر للدراسة وخاصة اذا كانت الحالة سرقة، وأن السارق يقرأ ويعمل فى وقت واحد، وأن له قضية، وأننا نحتاج الى معرفة التشويهات والاعاقات التى يعانى منها مما يستوجب مقابلة بعض أفراد أسرته، ورفاقه سواء فى المدرسة أو فى العمل، وجيرانه، ومدرسيه، والطبيب المختص، والمحامى الذى يتابع قضيته.

ثانيا – المصادر المكتوبة:

وهى الدلائل المثبتة للحقائق، والشواهد الدالة على أفعال أو نوايا يمكن القيام بها. وهذه المصادر هى الوثائق العامة والخاصة، والشهائد والتقارير المعتمدة، والسير الخاصة، والمذكرات الخاصة وهذه المصادر قد تكون من جهات رسمية وبالتالى يستوجب اعتمادها

حتى لا يحدث التزوير فيها، وقد تكون شخصية وتقبل كما هى، على أن تعرض للنقد الداخلى، والخارجى من أجل سلامة محتوياتها والتفسيرات المترتبة عليها.

وسائل دراسة الحالة :

تعتمد دراسة الحالة على أهم الوسائل العلمية فى تجميع وتحليل المعلومات والبيانات، وهى: المقابلة التى تمكن الباحث من تقديم أسئلته، واستفساراته للمبحوث عن نفسه أو عن الموضوع المتعلق به. ثم الملاحظة لما يقوله أو يفعله المبحوث أو ما تثبته المصادر المكتوبة.

والمشاهدة العلمية سواء عن قرب مباشر، أو غير مباشر وأعنى بالقرب المباشر هو الدور الذى يقوم به الباحث المشاهد ويعرفه المبحوث، أما بالقرب غير المباشر فهو ما لم يعرفه المبحوث ويقوم به الباحث من خلال اشتراك المبحوث سواء كان فردا أو أكثر فى مناشط أو أعمال لمعرفة التغيرات التى تحدث على سلوكه فى وسط جماعة.

ثم تأتى أهمية الاستبيان وخاصة إذا كان مصحوبا بالمقابلة، والذى تحدده ظروف الدراسة وذلك إذا كانت الحالة جماعية. وقد يلتجىء الباحث أثناء إجراء عملية المقابلة لاستخدام الأساليب الاسقاطية خاصة مع الشواذ والمجرمين.

وكثيرا ما تتداخل هذه الوسائل فى دراسة حالة واحدة سواء كانت فردية، أو ثنائية، أو جماعية، أو مجتمعة وذلك حسب متطلبات الموضوع، والظرف الزمانى والمكانى للحالة.

أنواع دراسة الحالة :

تنقسم دراسة الحالة الى أربعة أنواع سواء من حيث المجال البشرى أو من حيث الموضوع، وتشتمل كل حالة على جوانب إيجابية وجوانب سلبية كما هو مبين وفق الآتى:

أولا – من حيث المجال البشرى: ويقصد به عدد الأفراد المشتركين فى الحالة، فقد يكون فرداً واحداً، أو اثنان، أو جماعة، وقد يكون مجتمعا سواء كان مجتمعا محليا أو مجتمعا عاما.

ثانيا – من حيث الموضوع: وتنقسم الى أربعة أنواع هى:

1- حالات فردية: وهى الحالة التى تختص بشخص واحد ولم تكن مركبة فى تداخل أو اشتراك مع آخرين أو شخص آخر، وتنقسم الى جزئين:

أ – حالات فردية سالبة: مثل حالة انتحار، وحالة تزوير، أو سرقة، أو أى نوع من أنواع الانحراف الشاذ.

ب – حالات فردية موجبة : مثل حالة جهاد، وحالة قيادة، وحالة فوز علمى أو رياضى أو فنى.

2- حالات ثنائية: وهى الحالات التى تشترك فيها عناصر الوجود الحى مصداقا لقوله تعالى: " **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**"(14). ومع أن هذه الآية تعنى الذكر والأنثى إلا أن الحالات الثنائية لا تقتصر عليهما فقط فقد تكون الحالة بين نوع واحد، وقد تكون بين النوعين.

---

(14) الذاريات ، الآية 49.

فقد تكون الحالة بين الزوج وزوجته، أو الصديق وصديقته، وقد تكون بين الرجال والنساء، أو دولة ودولة أخرى. حالة بين طرفين، وقد تكون بين دينين أو لونين أو أمتين كلها حالات ثنائية وتنقسم هى الأخرى إلى جزأين :

أ - حالات سالبة: مثل الطلاق، والصراع والاقتتال، والسرقة، والكذب والانحراف.

ب - حالات ثنائية موجبة: مثل الحب، والزواج، والانسجام، والتوافق والاتحاد، والتعاون، والوفاء، والتكامل.

3- حالات جماعية: وهى الحالات التى يتأثر بها أكثر من اثنين وتعود نتائجها عليهم، فتكون الحالة واحدة والأسباب مختلفة كحالات الدراسة، وحالات الجيرة، والمناشط، والجمعيات وحالات الرفقة، وحالات العمل. وتنقسم الى جزئين:

أ - حالات جماعية سالبة: مثل حالة تعاطى المخدرات، وتعاطى المسكرات، والهروب من العمل والهروب من المدرسة، والهروب من المعسكرات، وتكوين عصابات للسرقة والسطو.

ب - حالات جماعية ايجابية: مثل التعاون بين جماعات المناشط الرياضية والفنية، والموسيقية، والمسرحية، والجمالية، والكشفية. وحالات التنافس التى تساهم فى اكتشاف الموهوبين والمتفوقين. والعمل التطوعى الذى يساهم فى اصحاح البيئة، وزيادة الانتاج. وحالات إحياء الأفراح وحالات التآزر فى المآتم.

4- حالات مجتمعية: وهى الحالات التى تحدث على مستوى المجتمع المحلى والمجتمع العام كوحدة واحدة وتؤثر على أفراده حسب الموضوع المتعلق بهم فى المجالات السياسية، والاقتصادية، والتعليمية، والصحية والفنية والاجتماعية بشكل عام. وتنقسم الى جزأين :

أ - حالات مجتمعة سالبة: مثل التحزب، والتعصب، والطبقية والمجاعة، وتدنى المستوى التعليمى والصحى، وتدنى مستوى الدخل والانحلال.

ب - حالات مجتمعية إيجابية: مثل ممارسة الديمقراطية، الحرية والمساواة، وزيادة الدخل العام، وارتفاع المستوى التعليمى، والصحى، والفنى، والتعاون والوحدة.

مميزات دراسة الحالة:

1- تمكن الباحث من تكوين علاقات مهنية مع المبحوث.

2- أن نتائجها لا يجوز فيها التعميم.

3- تعطى للباحث فرصة للتحقق من المعلومات، والبيانات من خلال التتبع والمقابلات المتكررة للحالات المطولة وامكانية استخدام المشاهدة والملاحظة والرجوع الى الوثائق أثناء الدراسة والتشخيص.

4- تعتبر من الأدوات المهمة فى دراسة عمليات التغير الاجتماعى.

5- تمكن الباحث من دراسة الموضوع دراسة متكاملة.

6- تعتبر المبحوث شريكا أساسيا مع الباحث فى اصلاح حالته.

7- تلتزم بتتبع المبادىء العلمية فى التعامل مع الأفراد وحالاتهم الخاصة.

8- انها تمتاز بالمرونة فى تجميع المعلومات من خلال استعمال وسيلة المقابلة ولا تعتمد على الاستفسارات الجامدة والأسئلة الجاهزة مسبقا قبل التعرف على نوع الحالة ومؤثراتها الأساسية والثانوية.

9- انها تمكن الباحث من اختبار المواقف، والنظم، والأشخاص بالتتبع الدقيق للحالات المدروسة.

10- عدم التسليم بكل ما يشاهد، أو يلاحظ، أو يقال، أو يكتب.

عيوب دراسة الحالة :

1- أنها تحتاج الى وقت كثير وجهد كبير.

2- يصعب عن طريقها دراسة المجتمع كثير العدد إذا استهدفت التشخيص والعلاج واستعملت وسائلها الهامة فى تجميع البيانات والمعلومات.

3- أنها تحتاج الى خبرة وتدريب فائق لكى تحقق تعاملا ونتائج ناجحة مع الحالات الفردية، والثنائية والجماعية، والمجتمعية.

4- نتيجة الزمن المتعلق بتاريخ الحالة فقد ينسى المبحوث بعض المعلومات، والبيانات الهامة فى استكمال دراسة الحالة.

5- قد يكون المبحوث أصم وأبكم ولا يجيد أو يعرف اللغة الحركية الخاصة بهذه الفئة.

6- قد تتأثر الحالة بالجوانب الشخصية للباحث كأن يكون الباحث ذكرا والمبحوثة فتاة جميلة أو بالعكس، فقد تتأثر الحالة بالجوانب العاطفية ويتم اهمال الجانب المهنى.

الفصل السابع

الاستبيان

الإستبيان:

يعتبر الإستبيان احد الوسائل التى يعتمد عليها الباحث فى تجميع البيانات والمعلومات من مصادرها، ويعتمد الأستبيان على استنطاق الناس المستهدفين بالبحث من اجل الحصول على إجاباتهم عن الموضوع والتى يتوقع الباحث أنها شافية بالتمام، مما يجعله يعمم احكامه من خلال النتائج المتوصل اليها على اخرين لم يشتركو فى الاستنطاق الاستبيانى. ونتساءل هل الأستبيان يمثل الباحث؟ ام يمثل موضوع البحث؟ ام يمثل المبحوثين؟. وهل يكون الباحث صادقا فيما يطرحه علينا أو يقوله لنا؟.

إن الإجابة علىهذه الأسئلة المركبة قد لانجد لها سندا من اليقين، لأن الإستبيان اذا كان هوالممثل لموضوع البحث، اذن ما هى الوسيلة التى ربطت بينهما؟. واذا كان الموضوع هو الجهاد، أو الحرية، أو الطلاق، كيف يمكن للأستبيان أن يمثل ذلك اذا اجزنا انه وسيلة استنطاق الناس المستهدفين بالبحث؟. وبما ان هذه المواضيع ليست بناطقة، فكيف يمكن للاستبيان ان يمثلها؟. اذن الأستبيان لا يمكن ان يمثل الموضوع. ولعل البعض يتحفز مسرعا بأن يجيب انه يمثل المبحوثين باعتبارهم مصدر المعلومات المراد التعرف عليها من قبل الباحث أو الجهة المشرفة على البحث، أو الراغبة فى نتائجه، ولكن نتساءل هل المبحوثين هم الذين صاغوا استمارة الاستبيان؟. اذا كان كذلك فانها تمثلهم، واذا لم فانها لم. وبما ان المبحوثين هم مصادر المعلومات ومكمنها اذن هم الممثلون للموضوع، وبما انهم هم الممثلون للموضوع اذن هل يكتمل دورهم وفق رؤية الباحث وحسب صياغته لأسئلة الأستبيان؟. لا اعتقد ذلك ! وبما اننا لا نعتقد فى ذلك، اذن الأستبيان لايمكن ان يمثل الموضوع ولا يمكن ان يمثل المبحوثين ولكنه يمثل توقعات الباحث عن الموضوع.

- اذن الإستبيان هو مجموعة من الأسئلة التى يطرحها الباحث على المبحوثين وفق توقعاته للموضوع. والاجابة تكون حسب توقعات الباحث التى صاغها في استفسارات محددة. وهذا ليس بالضرورة ان يكون صوابا، لان الصواب ينبع من المصادر التى تلم بالموضوع وتعايشه، لا من توقعات الباحث الذى لم يعرف حقيقة الموضوع، ويود ان يعرف عنه. واذا تساءل غيرنا هل نعنى بذلك الأستغناء عن الإستبيان؟ لا يقصد الإستغناء عنه، ولكن يقصد تطويره، من خلال مشاركة المصادر المستهدفة بالدراسة، أو البحث فى اثارة الأسئلة مع الباحث قبل صياغته للاستمارة صياغة نهائية، وذلك عن طريق اجراء مقابلات أستطلاعية من قبل الباحث على المجتمع المراد التعرف عليه أو على مشاكله وظواهره من خلال الموضوع، ثم بعد ذلك يتم اعداد استمارة البحث وفق الخطوط العريضة التى اشار اليها المجتمع، والتىاستنبطها أو استوضحها الباحث منهم.

وعليه لولا المصادر ما كان هناك موضوع، وعرفنا الموضوع بوجود المصادر. وبما أن معرفة الموضوع بالمصادر، اذن ما دور الباحث، ووسيلة الاستبيان فى ذلك؟. إن الباحث كالسائق، والوسيلة كالسيارة والمصادر هم الناس الذين يود الباحث السفر اليهم ليشاركهم أفراحهم أو احزانهم وذلك حسب الموضوع. والذى تم التعرف عليه من خلال الناس.ودرجة توترهم، أو تفاعلهم، أو فرحتهم. وبناء على هذا فان الضرورة أوجدت الباحث الماهر المرخص له من اجل سلامته وسلامة الركاب الذين قد يسافرون معه، أو المارة فى الطرقات، وبما اننا نتحدث عن البحث فان الضرورة المنهجية تستوجب وجود الباحث لكى يظهر البحث فى فستانه اللائق به بتفصيلته الجميلة، التى تظهر الجسم الاجتماعى، فى سترة تزيده زينة، وجمالا. إذن البحث العلمى يستوجب باحثا، ومصدرا، وموضوعا، ووسيلة. إلا ان المصدر

"منبع المعلومات " قد يكون بشرا،وقد لا يكون، اذا كان بشرا كانت الوسيلة ضرورية، واذا كان كتابة " وثيقة، أو مخطوطا " كان المصدر محمولا بالوسيلة، ولا يحتاج الا للتحقيق،أو للتفسير،أو لعرضه كشواهد اثبات للموضوع. والموضوع دائما حي اما مجتمع الموضوع أو أفراده (المصدز) قد لايكونوا موجودين. فالجهاد، أو الزواج،أو الانحراف،أو الفلسفة،أو التاريخ دائما احياء. اما القائمون بها،أومرتكبوها، قد لا يكونون احياء، مع ان بعضهم احياء عند ربهم يرزقون، ونحن لم نرهم فى عالم الوجود (عالم المشاهدة)الا ان اعمالهم حية، ويمكن الاقتداء بها، وأفكارهم يمكن قياسها والتحقق منها والأستشهاد بها،أو انتقادها وضحدها بأفكار اكثر دقة وعلمية. ولهذا الاستبيان قد لايمثل مصادر المعلومات على الإطلاق،بل يكون عاجزا عن التعرف عليها مباشرة. فإذا أخذنا جهاد عمر المختار كموضوع بحث،فانه بالإمكان التعرف على جهاده،من خلال الوثائق،والمخطوطات التى كتبها،أو التى كتبها انصاره ورفاقه في الجهاد، أو اعتراف بها أعداؤه، عندما تتوفر بين يدى الباحث، وفى هذه الحالة لاداعى لاختيار وسيلة الإستبيان اذا لم يكن عمر المختار ورفاقه احياء. بل قد يستفيد الباحث من اختصار مرحلة تحديد الوسيلة واستعمالها،والإبتعاد عن الاخطاء التى هى كثيرة وتعلق بالاستبيان. ويكون الباحث مباشرة مع المصدر المتحد بالوسيلة،ويكون البحث ثريا وغنيا بالحقائق ويصبح فى صدارة البحوث العلمية القيمة التى تأخذ مكانها بين ما تقدم وما تأخر عنها.

اما اذا استهدف الباحث بالإستبيان تجميع المعلومات من سكان الجبل الأخضر الدين تربى معهم جهاد عمر المختار ورفاقه الأبطال، فان الإستبيان فى هذه الحالة لايمثل مصادر المعلومات وهم المجاهدون، بل قد يمثل انطباع سكان الجبل الاخضر عن الفعل والمصدر الذى غاب عن انظار المجتمع، مع

انه باقيا فى ذاكرتهم فتكون النتيجة المحققة بالإستبيان هى انطباعات وليست حقائق.

واذا تساءل البعض عن العلاقة بين الإستبيان والعينة؟ فتكون الاجابة لم تكن هناك خصوصية بينهما لأن الاولى وسيلة فقط،والثانية وسيلة ومصدر. وسيلة باعتبارها تفيد فى اعطاء مؤشرات عن المجتمع، وهذه المؤشرات قد تقترب، وقد تبتعد عن الحقيقة، وتكون مصدرا عندما لاتعمم نتائجها على اخرين لم يشتركوا فى الاستنطاق الإستبياني، وفرق كبير بين المجتمع، والعينة فالاول مصدر علمى ومعرفى له مصادق الاثبات، والثاني جزء من المصدر ووسيلة التعرف على منطلقاته واتجاهاته ومؤشراته. فعن طريق العينات يمكن الاقتراب من المجتمع أو التوجه اليه من اجل التعرف عنه، وعليه، واذا تم التوجه الى المجتمع مباشرة بدون العينة تكون عين الصواب فى الطريق الصحيح، والمعلومات المتحصل عليها بالاستبيان لها مصادق. اما اذا توجه الباحث بالاستبيان الى العينة، فانه يتحصل على معلومات، ولكنها قد لاتكون لها مصادق، وبما ان العلم هو البحث عن الحقيقة، فالحقيقة مرة اذا قلنا ان العينة التى تعمم نتائجها، لايمكن أن تكون لمعلوماتها مصادق المجتمع عندما يستهدف بالبحث والدراسة مباشرة، دون توسط العينة.

وعليه لم يرتبط الإستبيان بالعينة من حيث الظرورة البحثية، بل الذى يرتبط بها من هذه النظرة، هو الباحث الذى يود الخروج من موضوع بحثه باى شكل من الاشكال، وبابسط الطرق والوسائل بغض النظر عن الاهمية العلمية التى تستوجب الاهتمام وعدم التملص منها. والإستبيان وسيلة تتحدد اهميته، باهمية من يستعمله، والهدف الذى يود الوصول اليه.

اذن ماهو الاستبيان؟. انه وسيلة الباحث لأستقراء المجتمع، والعينة، واستيضاحهم عما يلمون به من معرفة عن الموضوع، وذلك لتبيان مالم

نعرفه ليكون حاضرا من خلال برهنة ومشاهدة الاخرين. اذن الإستبيان : وسيلة استيضاح لمعرفة سبيل مجتمع الدراسة، سواء كان مجتمعا سويا، أو غير سوى، يقول الله تعالى: "**وكذلك نفصل الايات ولتستبين سبيل المجرمين** "(1). ولاستبيان سبيل المجرمين قد يختار الباحث الإستبيان، ويحدده فى استمارة تحتوى على مجموعة من الأسئلة التى تمس الموضوع بشكل مباشر، على ان تكون الاجابات المرتقبة برضاء المبحوثين دون اجراء اى تعسف معهم، ويتم التوصل الى المعلومات بالرضاء، عن طريق اتباع اساليب البحث العلمى ومناهجه، وهكذا يكون الإستبيان من اجل استيضاح الآراء، والاتجاهات، والانحرافات، والانتاج، والابداع، والتاثير والتاثر بين الأفراد، والجماعات، والمجتمعات، والاستبيان قد يكون لفظيا، وقد يكون مصورا، فالاول للكبار والمتعلمين، والثانى للصغار وغير المتعلمين، والاستبيان المصور له ميزة التشويق ويساعد على التوليد العقلى والفكرى، وقد استخدم هذا النوع من الإستبيان هوريتز Horwits.في دراسته لتطوير الاتجاهات الاجتماعية عند الاطفال، ومحدودى القدرة على القراءة والكتابة وكذلك استخدمه شوارتس Schuratz.فى دراسته لديناميات التفاعل بين الاطفال (2). ويفضل ان يكون الإستبيان المصور مباشر التوزيع حتى لاتتضارب التفسيرات، أو تتأثر بوجهة نطر أفراد الفريق المساعد، أو بعضا منهم. اما الإستبيان المكتوب فيوزع باحدى الطريقتين الاتيتين :

---

(1) الانعام، الاية 55.

(2) سمير نعيم، المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية. القاهرة : المكتب العربى للأوفست، الطبعة الخامسة، 1992م، ص173.

أولاـ الإستبيان المباشر :

وهو الذى يوزع باليد مباشرة من الباحث، أو الفريق المساعد له، وتتم تعبئة الأستمارة مباشرة من قبل المبحوثين، ويتم توضيح اى استفسار، أو اى لبس يطرح من المبحوثين. ولهذا النوع من الإستبيان ميزات ومآخذ.

1- ميزات الاستبيان المباشر :

أ ـ نسبة المردود منه عالية ونسبة الفاقد منه قليلة.

ب ـ يعطى فرصة للتاكد من ان المبحوث هو الذى يجيب على استمارة الاسئلة مباشرة.

ج ـ إنه اقل الوسائل تكلفة.

د ـ إنه أكثر الوسائل تقنينا.

هـ ـ يساعد على اعطاء معلومات وبيانات قد تكون حساسة نتيجة عدم كتابة الاسم على الأستمارة.

و ـ انه لايحتاج الى وقت كبير وعدد كثير من المساعدين البحاث، مع انه يسمح فى نفس الوقت بجمع معلومات من اعداد كثيرة.

2- المآخذ على الإستبيان المباشر :

أ ـ لا يصلح مع الذين لا يجيدون القراءة والكتابة.

ب ـ قد لايتضمن مصداقية المبحوثين، أو مصداقية بعضهم نظرا لاعتماده على الاجابات النظرية، أو اللفظية.

ج - قد تكون الاجابات غير واضحة، أو أن هناك لبسا، ولم يتم استفسار المبحوثين عنه،

د ـ لا يعتمد عليه فى دراسة الحالات النفسية، وفى خدمة الفرد، ومع الحالات الإنحرافية، أو الشاذة.

هـ ـ كثرة الأسئلة تجعل الملل فى نفوس المبحوثين.

ثانيا ــ الإستبيان غير المباشر :

وهو الذى يتم توزيعه عن طريق وسائل الاتصال الاتية :

1 ــ البريد المرسل :

ويتم اختيار هذه الوسيلة فى حالة انتشار أفراد المجتمع، أو أفراد العينة فى مناطق جغرافية متباعدة يصعب على الباحث الاتصال بهم مباشرة، على ان ترسل لهم استمارات الأسئلة على عناوينهم، لكى تتم الإجابة عليها، واعادتها للباحث عن طريق البريد المرسل، إلا أن لهذه الوسيلة ميزات، ومآخذ.

أ ـ ميزات استمارة البريد المرسل :

1- انها تعطى فرصا كافية للمبحوثين للإجابة على الأسئلة واختيار الوقت المناسب لهم.

2 ـ تساعد على الحصول على معلومات قد تكون اكثر صراحة لعدم معرفة المبحوثين للباحث، أو نتيجة عدم مقابلتهم معه.

3 ـ تمكن الباحث من اجراء دراسات واسعة جغرافيا.

ب ـ عيوب استمارة البريد المرسل :

1- قلة العائد منه حتى ولو اتخذ الباحث بعض التحوطات التى يتوقع انها تقلل نسبة هذا الفاقد، مثل احالة الاظرف والطوابع البريدية مع استمارة الإستبيان المرسل للمبحوثين كمحاولة ضمان لاعادتها.

2- قد يكون بعض المبحوثين لايجيدون القراءة والكتابة ممايجعلهم لايولون اهتماما للإستمارة.

3- قد لايستوعب بعض المبحوثين المفاهيم والعبارات الواردة فى الإستمارة نظرا لبساطة مستواهم الثقافى والتعليمى، وان بعض المفاهيم تعطى اكثر من معنى.

4- قد يستعين المبحوث باخرين فى الاجابة على استمارة الإستبيان، وبالتالى تكون المعلومات المتحصل عليها خالية المصداقية.

5- قد يغير بعض المبحوثين عناوينهم نتيجة ظروف العمل أو الحاجة أو المصلحة الشخصية وبالتالى لم تصل بعض الإستمارات المرسلة الى الأفراد المستهدفين بالبحث.

6- لايمكن التأكد من صدق الأستجابات ولايتمكن الباحث من استقراء ردود أفعال المبحوثين كما لوكانت الوسيلة المستعملة هى المقابلة.

7- لم يكن لكل ا فراد المجتمع عناوين بريدية.

2 ـ الإستبيان عن طريق الهاتف :

وهو الذى يتم من خلاله الاتصال بالمبحوثين وطرح اسئلة الأستمارة عليهم وكتابة ما يجيبون به على الباحث، أو الفريق المساعد له فى حالة وجود فريق مساعد لاختصار الوقت والجهد على الباحث. وبالتاكيد ان لهذا النوع ميزات وعيوب ينبغى الاشارة اليها وهى :

أ ـ ميزات الاستبيان الهاتفى :

1- يمكن الباحث من الاتصال بالمبحوثين فى اماكنهم وعلى انفراد هاتفى.

2- يعطى فرصة للمبحوث بان يستفسر عن اى لبس، أو غموض ويعطى فرصة للباحث للتوضيح.

3- تندمج مع وسيلة الاتصال الهاتفى وسيلة المقابلة غير المباشرة (التى لم تكن وجها لوجه) والتى قد تسمح بتفاعل بين الباحث والمبحوث مما يساعد على اعطاء معلومات اكثر اهمية.

ب ـ عيوب الإستبيان الهاتفى :

1- قد يتم الإتصال، ولكن قد لايكون المجيب هو الشخص المقصود بالبحث، أو المعنى بالدراسة. ويجيب على الأسئلة وهو منتحل لشخصية المبحوث.

2- قد يكون وقت الاتصال الهاتفى غير مناسب للمبحوث كأن يكون وقت الإتصال، المبحوث يعانى من مرض، أو انه فى مآتم لأحد اقاربه، أوفى حفلة عرس، أو اثناء تأدية واجب. وقد يكرر الباحث الإتصال ثانية بالمبحوث وقد تتكرر معه الظروف هى الأخرى.

3- قد تكون فترة الاتصال الهاتفى ان خطوط الهاتف تعانى من عطب فنى.

4- قد يكون المبحوث الذى وقع عليه الإختيار اصم وابكم، أو انه ضعيف السمع.

5- قد يشك المبحوث فى مصداقية الباحث، ويتحسس من كيفية حصوله على رقم هاتفه. حتى وأن اجابه عن طريق الدليل العام.

6- قد يعتقد المبحوث ان الباحث سفيه ويريد من وراء ذلك المعاكسة

7- قد يعتقد المبحوث ان الباحث يتجسس عليه.

ويلاحظ بشكل عام أن البحوث عن طريق الهاتف لاتصلح لدراسة المجتمع لإعتبار ان المجتمع لم يكن بكامله يمتلك وسيلة الاتصال الهاتفى.

3- الإستبيان عن طريق الصحف والمجلات :

تطبع استمارة الاستبيان على إحدى الصحف، أو المجلات بحيث تكون في متناول الجميع خاصة في دراسة المواضيع العامة، لاستطلاع الراى العام، أو لمعرفة المؤشرات التي تفيد في اجراء بحوث أو دراسات اخرى، وتتداخل وسيلة البريد مع الصحف والمجلات من حيث ان توزيع الصحف قد يكون بريديا، وإن ترجيع اجابات المبحوثين على اسئلة الاستبيان الموزع عن طريق الصحف والمجلات يكون من خلال البريد، وعليه تكون ميزات البريد وعيوبه عالقة بهذه الوسيلة. الى جانب عيوب وميزات الاستبيان المطبوع في الصحف والمجلات وهي :

أ - ميزات الاستبيان الموزع عن طريق الصحف والمجلات :

1 ـ إنه سريع التوزيع والإنتشار.

2 ـ إنه اختصار للوقت والجهد.

3 ـ إنه لم يكن مكلفا كثيرا.

ب ـ عيوب الإستبيان الموزع عن طريق الصحف والمجلات :

1- قد لاتوزع الصحف والمجلات في كل المناطق، وبالتالي لاتفيد في اجراء بحوث ودراسات عامة.

2- لم يكن كل أفراد المجتمع قادرين على القراءة والكتابة.

3- لم يكن كل أفراد المجتمع مطلعين على الصحف والمجلات.

4- قد تكون اسئلة الإستمارة تحتوى على أخطاء مطبعية ولم تراجع من قبل الباحث قبل توزيعها.

5- إنه لم يفد في التحليل الفسي والتكيف الاجتماعي وفي دراسة الحالات الخاصة.

4- نشر وعرض الإستبيان عن طريق الاذاعتين المسموعة والمرئية:

- هذه الأنواع من الأستبيانات تقوم بها الدول والشركات الكبرى، التى تود استطلاع الراى العام عن انتاج معين، أو برامج معينة. ومع ان وسيلة الاذاعتين كثيرة الانتشار والبرامج من خلالهما اسرع انتشارا، الا انه يؤخذ عليها ان أوقات عرض الإستبيان قد لاتكون مناسبة حتى وان عرض فى أوقات مختلفة لان المجتمع كثير المهن والحرف التى قد تجعل الكثيرين منه خارج المنزل ساعات عرض الاستبيان سواء فى الصناعة، أو الزراعة أو التجارة، أو السفر خارج البلاد، ونتيجة لذلك تختلف ساعات الراحة من مواطن لاخر حسب طبيعة عمله، وظروفه الإجتماعية والصحية والنفسية التى قد لاتسمح له بالاستماع لمثل هذه النوعية من البحوث.

يلاحظ على كل ما تقدم من وسائل الاستبيان ان المآخد اكثر من الميزات مما يجعلنا نقول ان القصور يصاحب وسيلة الاستبيان اذا ماقورن بوسيلة المقابلة. وإن الالتجاء اليها نتيجة الميزات التى ذكرناها لم يجعل الدراسات النفسية والإجتماعية على درجة عالية من المصداقية، وجعلها تراوح فى محلها نتيجة تركيزها على بعض الوسائل، وبعض المناهج التى لاتلائم طبيعتها، لأن للعلوم الإجتماعية اساليب وطرقا تختلف عن اساليب، البحث العلمى فى العلوم الطبيعية، وبالتالى محاكاة العلوم الإجتماعية والانسانية للعلوم الطبيعية، باخذ اساليبها ووسائلها، لايمكن ان يحقق لها التقدم فى المجال الإنسانى والمعرفى، بل تصبح كالببغاء تقلد ما تسمعه أو تراه فقط، لأن التعامل مع الماديات يختلف عن التعامل مع الاحاسيس والمشاعر، والعواطف، والامانى، وانه من الممكن التضحية بالماديات عند التجريب عليها، ومن غير الممكن اخضاع الإنسان للتجربة، وقبول التضحية به،

وتقدمت العلوم الطبيعية بخطا ثابتة وسريعة لاستعمالها وسائل واساليب تتمشى وطبيعة المبحوث فيه والمبحوث عنه.

وهكذا يمكن تحقيق التقدم العلمى فى مجالات العلوم الإجتماعية والانسانية عندما تلتزم باختيارات منهجية ووسائل تتمشى وطبيعة الإنسان لا طبيعة المادة، طبيعة الحاس، لا طبيعة المحسوس به.

انواع الإستبيان من حيث صياغة أسئلة الاستمارة :

ينقسم الإستبيان من حيث صياغة أسئلة الإستمارة الى الأنواع الاتية :

1- الأسئلة المفتوحة : وهى التى لاتحد من اجابة المبحوث، بل تترك له حرية الأجابة وفق السؤال المطروح عليه، وهى المتضمنة لأسئلة لماذا؟ وكيف؟، واشرح، وعبر، كاسلوب أمر يتطلب اجابات مفتوحة.

2- الأسئلة المقفلة : وهى التى تتطلب اجابات محدودة من المبحوث بنعم، أو لا، اعترف أو لا اعترف، اى انها تقتصر على احد الإجابتين : الإثبات أو النفى ويقتصر استفهامها على الأداة هل؟.

3- الأسئلة محدودة الاجابة : هى الأسئلة التى يصوغ اليها الباحث مجموعة من الإجابات ويترك حرية الإختيار للمبحوث وحسبما يتوقعه مناسبا أو ملائما من اجابات، مثال الصيغة الاتية : لدينا بعض العوامل التى نعتقد انها تؤدى الى ضعف المستوى التحصيلى للطلبة فى مرحلة التعليم المتوسط. المطلوب تحديد درجة هذه العوامل، هل انها تؤثر بدرجة كبيرة، أو بدرجة متوسطة، أوبدرجة اقل؟.

أ – عدم كفاءة المدرس	**بدرجة كبيرة**	**متوسطة**	**أقل**
ب–التركيز على الطريقة التقليدية (التلقين)	**بدرجة كبيرة**	**متوسطة**	**أقل**
ج –عدم استعمال وسائل الايضاح	**بدرجة كبيرة**	**متوسطة**	**أقل**

د - عدم ملاءمة المقررات للطلبة بدرجة كبيرة متوسطة أقل

هـ ـ تغلب الجانب النظرى على الجانب العملى بدرجة كبيرة متوسطة أقل

و ـ عدم توفر الضبط الإدارى بالمدرسة بدرجة كبيرة متوسطة أقل

ز ـ عدم توفر المعامل والمختبرات بدرجة كبيرة متوسطة أقل

ح-عدم ترابط المناهج السابقة مع الحاضرة بدرجة كبيرة متوسطة أقل(3)

4- الأسئلة المقفلة المفتوحة : وهى الأسئلة المركبة من الصيغتين المقفلة والمفتوحة، والتى تتطلب اجابتين فى وقت واحد مثال : هل توافق على منزلية التعليم؟ ولماذا؟

5- الأسئلة المحددة المفتوحة : وهى الأسئلة التى تصحبها مجموعة من الإجابات الإختيارية وتذيل فى النهاية باخرى تذكر. مثال : ماهى الجوانب التى تعتقد بأنها تفيد فى تقييم المدرس اذا طلب منك ان تقيمه؟

أ - طريقة المدرس اثناء الشرح تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

ب ـ مقدارما درس من المنهج المقرر تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

ج - مستوى التحصيل عند الطلبة تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

د ـ علاقة المدرس بالطلبة تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

هـ ـ المناشط المصاحبة للمادة تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

و ـ استعمال وسائل الإيضاح تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

ز ـ التعاون مع الادارة والمفتش تفيد كثيرا تفيد لحد ما لاتفيد

ح -جوانب اخرى تذكر..

....(4).

---

(3) عقيل حسين عقيل، وآخرون، دراسة ميدانة عن مستوى التحصيل لطلبة التعليم المتوسط ببلدية طرابلس. طرابلس : اللجنة الشعبية للتعليم، 1989م، ص 213.

(4) المصدر السابق، ص 222.

إن تحديد نوع الإستبيان يرتبط بطبيعة المشكلة ونوع الحالة ونوع المبحوثين المستهدفين بالبحث، فالبحوث الاجتماعية والانسانية، لم تكن مقولبة بصورة واحدة، فما تتطلبه دراسة الحالة فى خدمة الفرد وعلم النفس، يختلف عما تتطلبه دراسة المجتمع، ونتيجة اختلاف طبيعة كل حالة عن الاخرى، فإن ذلك يستوجب مراعات كل الفروق الفردية، والجماعية، والمجتمعية قبل تحديد الإستبيان.

شروط الإستبيان :

مع أن للإستبيان ميزات وعيوب إلا إننا إ ذا اردنا استعماله، أو اذا استوجب الموضوع اختياره فى تجميع المعلومات، فينبغى مراعاة الآتى:

1- أن يصاغ الأستبيان بلغة واضحة واسلوب غير ممل.
2- ان يطبع ويراجع بعد طباعته ثم يصحح إذا وجد داعيا لذلك ويطبع من جديد، ثم يوزع.
3- ألايكون مطولا حتى لايمل المبحوثون من ملئه باشتياق.
4- ينبغى أن يجرب على مجموعة من الأفراد قبل توزيعه النهائى على مجتمع البحث، كاختبار له من حيث نجاح اشتراطاته وبما يحقق اهدافه العلمية، على ان يكون الأفراد من مجتمع الدراسة.
5- ألايوزع فى أوقات غير مناسبة للمبحوثين.
6- ان تراعى اهمية الظرف المكانى عند توزيعه، بحيث يكون مناسبا لطبيعة البحث وطبيعة المبحوثين.

الخطوات التي تحفز المبحوثين على تعبئة الاستمارة :

1- أن يحس المبحوثون بفلسفة الأستبيان وفلسفة البحث.

2- أن يوضح الباحث اهداف البحث للمبحوثين.

3- أن لايحمل المبحوثين باى تكاليف بريدية أو غيرها.

4- أن يوضح الباحث للمبحوثين اسباب اختيارهم كأفراد اساسيين للبحث.

5- أن تذكر لهم الجهة التى تدعم البحث ان وجدت، أو الجهة التى ترتقب نتائجه.

6- أن لايطلب الباحث كتابة الاسم على الإستمارة قدر الامكان.

7- أن يراعى الوقت المناسب للمبحوثين اثناء توزيع الإستمارة.

الفصل الثامن

الملاحظة و المشاهدة

الملاحظة والمشاهدة:

تعتبر الملاحظة، والمشاهدة من الأدوات الهامة في البحث العلمي عندما تكون قابلة للتحقق منها، والملاحظة ليست هي المشاهدة مع أنهما يتداخلان كثيرا. إلا أن الحديث عن الملاحظة لا يعني تطابق مفهومها مع ما تعنيه المشاهدة، في الوقت الذي تشتمل فيه الملاحظة على المشاهدة باعتبارها جزءا منها. مما يجعل الحديث عن المشاهدة لا يفي بأغراض الملاحظة ومضامينها. فالمشاهدة هي الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته، لأنها مقتصرة على العين في مشاهدة الأشكال والأفعال. وتمكّن الباحث من الوصف لما يشاهده. والملاحظة هي الربط بين المشاهد، والمسموع، لأنها الأداة المستعملة لحاستي السمع، والبصر، والعقل في وقت واحد، فيلاحظ الانسان بأذنيه كما يلاحظ بعينيه، ولكنه لا يستطيع المشاهدة بحاسة السمع. والملاحظة تشتمل على لحظة حدوث الشيء فيلاحظ في حينها (وقت حدوث الفعل) وهذه قد تكون عن رؤية، وقد تكون عن استماع مباشر واع ومقصود، وتتفق المشاهدة، والملاحظة على أهمية الحضور، لكي تتم عملية الرؤية المباشرة للمصدر ذي العلاقة بالموضوع. إن المشاهدة تحتوي على المعاينة بالعين للشيء بالمشاهدة، وذلك عن طريق تفحصه ككل، وكجزء بنظرة ناقدة. أي إن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال، والصور، والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوناتها، (الأجزاء المتكونة منها)، أي التعرف على كل ما يمكن تصويره، أو رسمه. أما المعاينة السماعية فلا تحدث للأشكال والصور بل تهتم بمعاينة المسموع، أو المقروء، وهي الأداة القادرة على التمييز بين الصدق، واللغو. فعن طريق المعاينة السماعية يتمكن الباحث من التعرف على العلاقات السالبة، والموجبة بين المواضيع، أو داخل كل موضوع، لأنها تتعلق

كملاحظة بجوهر الأشياء، وتستند فى ذلك على المنطق، واللغة والفكر، واستنباط القوانين. لأن العين لا تشاهد الكلمات المنطوقة مع أنها تشاهد المكتوبة منها، والأذن قادرة على ملاحظة المسموع، وبمشاهدة المكتوب يمكن ملاحظة مضامينه.

والمشاهدة غير الشهادة. فالأولى تقتصر على النظر، والثانية يمكن أن تكون بالنظر، ويمكن أن تكون بالسمع أو بكليهما. وبالاستماع يمكن أن يلاحظ المستمع إتجاهات، أو نوايا الطرف، أو الأطراف المستمع اليها، وحتى فاقد حاسة البصر يمكن أن يكون شاهداً، مع أنه لم يشاهد شيئا بعينيه، فإذا أنصت الى حديث جماعة تتحدث عن فلسفة التغير الاجتماعى، يمكن أن يلاحظ اتجاهاتهم حول هذا الموضوع، ويلاحظ الوحدة التى بينهم، أو الاختلاف فى وجهات نظرهم، إذن من شروط المشاهدة والملاحظة هو الحضور.

ويحتوى معنى الملاحظة على المتابعة الواعية بالسمع، والنظر، فإذا استمع الباحث بإنتباه لحديث المبحوث فإنه يستطيع تتبع بنات تفكيره ويستوعب مقاصده، وإذا نظر الباحث بانتباه يستطيع أن يلاحظ سلوكياته من خلال الحركة. فلو أراد الباحث أن يدرس سلوك فرد منحرف من حيث درجة تعاونه، من عدمها، وحدد وسيلة الملاحظة لسلوكه من خلال اشتراكه مع الجماعة فى النشاط الرياضى، فقد يشاهد الباحث أن المنحرف يتعمد عرقلة اللاعبين، وكلما تحصل على الكرة أبعدها فى غير الاتجاه الذى ينبغى أن تتجه نحوه، من خلال هذه المشاهدات يلاحظ الباحث أن المنحرف غير متعاون، وغير مهتم وغير مبال.

إن المشاهدة فى حد ذاتها عابرة، ومحدودة. أما الملاحظة فهى عميقة وواسعة، وتحتوى على الاستنتاج العقلى. وعليه قد تكون المشاهدة وسيلة

هامة للملاحظة، فمن مشاهدة جماعة نشاط فنى حر من أجل دراسة إتجاهاتهم فقد نجد أن أحد الأفراد يرسم وردة، أو زهرة، أو فلة، ونجد آخر يرسم رجلا على صدره، أو على إحدى ذراعيه عقرب، أو سكين، أو اخطبوط، ونجد ثالثا يرسم فتى، وفتاة بينهما مودة، أو قلبا فى وسطه فتاة، أو سيارة يركبها عروس وعروسة. هذه مشاهدات يمكن أن يلاحظ من خلالها، أن الأول يحب الجمال ويلاحظ عليه أيضا الانشراح، والمرونة، والحياة المبتهجة، ومبتسما غير عبوس، ويلاحظ على الثانى، الإتجاه الاجرامى، والانحرافى، وعدم احترام الآخرين، ويلاحظ على الثالث أن له حبيبة، وأنه يرغب فى زواجها، وهى مركز اهتمامه. هذه اتجاهات ثلاثة قد يتم التعرف عليها بالملاحظة من خلال المشاهدة. ويلاحظ أيضا العمق فى كل حالة من الحالات الفردية السابقة، والتى ظهرت أمامنا فى البداية كمشاهدات محدودة، وإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم، نشاهد أمامنا جماعتين وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية، ومرميين للتهديف، بوسطهما حارسين، وجمهور متحمس، ونشاهد حركة اللاعبين، وحركة تسجيل الأهداف. هذه المشاهدات التى تترتب عليها الملاحظات، والتى تمكن الباحث الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين، والمهارات الفنية لهم، ولياقتهم، وقدرة تحملهم، وعلاقتهم بالجمهور واصرارهم على الفوز، ويلاحظ أيضا علامات الهزيمة، والفوز فى نهاية المباراة على أفراد الفريقين والمشجعين والمدربين حسب النتيجة لكل فريق.

إن المشاهدة تعتمد على ما تراه العين، ولكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة، لأن الظاهر قد لا يكون الباطن، ولذلك الاعتماد على المشاهدة فى القضايا العلمية، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها" **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى**"(1) فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم فى حالة سكر،

---

(1) سورة الحج، الآية 2.

ولكن بملاحظتهم عن قرب، قد لايكونون سكارى مع إن حركتهم فيها شبه من هذا. ويقول محمد على " (إن الاعتماد على العين فى المقارنات العلمية غير كاف، وليس دقيقا، لأن إجماع الناس على حكم معين بمثل هذه الوسيلة غير ممكن)(2) مما يستوجب استعمال وسيلة الملاحظة، والمقابلة المتعمقتين فى الدراسة، والتشخيص، والعلاج الذي يمكّن الأفراد من آداء واجبهم الاجتماعى وفق ما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات تفاديا لعيوب المشاهدات " **فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين»** (3). وقال تعالى: «فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما **أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون"**(4). فمن خلال المشاهدة كان يعتقد أن القمر هو الرب، ولما غاب لاحظ أنها تفتقد لصفة الرب الواحد (الله) وهى البقاء دون غياب، بوحدانية الثبات، واعتقد مرة أخرى بأن الشمس هى الرب، فلما غابت عن المشاهدة فى الليل، لاحظ أنها تغيب، وهذه الصفة لم تكن من صفات الله عز وجل، لأنه الحى الذى لا يغيب، ويرى الناس وأفعالهم، وما تخفيه وتظهره صدورهم، ونتساءل هل كل ما يشاهد هو الحق بعينه؟.

من خلال العرض السابق تكون الاجابة بلا. وإذا كان كذلك كيف يحق لنا التسليم بنتائج البحوث الاجتماعية والانسانية المعتمدة على وسيلة المشاهدة. وهل يحق لنا ابعادها من ميادين البحث العلمى؟. إن ابعادها من الميدان العلمى إذا سلمنا به يعنى أننا نسلم بأهميتنا بدون حاسة البصر، وهذه

---

(2) محمد على عمر: مناهج البحث فى الجغرافيا بالوسائل الكمية . الكويت: وكالة المطبوعات، 1978م. ص 172.
(3) سورة الأنعام، الآية 77.
(4) سورة الأنعام، الآية 78.

مسألة لا يمكن الاتفاق عليها، ولا تحبذها الأنفس الطيبة، ولكن نتائج استعمالاتها لم تكن مسلمات، بل إنها تحتوى على عناصر الشك. وإذا تساءل البعض هل البحوث الميدانية فى العلوم الاجتماعية والانسانية التى تعتمد على المشاهدة صادقة ويعتمد عليها؟. يجوز التصديق، ويجوز التكذيب. لأن الوسيلة المستعملة نتائجها شكية وليست يقينية. إذن هذه الدراسات قائمة على الشك. وإذا تساءل آخرون لماذا لم يكن الإيمان فيما نرى كدليل يمكن مشاهدته؟.

تكون الاجابة أن أكبر درجات الإيمان وأصدقها تتم فيما لم نر. إننا نؤمن بالله ونوحده ولا نشرك به شيئا، مع أننا لم نره، ولم يخضع للمشاهدة، مع العلم أن الإيمان به سواء كنا نرى أو أننا نفتقد لحاسة البصر. إذن الإيمان يكون فيما نعقل، أو نتعقل وليس لما نشاهد.

ترتبط الملاحظة بالموضوع ولا تنفصل عنه، لأنها إذا انفصلت عنه تصبح غير علمية، وبدون معنى محدد لها. وترتبط بالظرف الزمانى والمكانى. فإذا افترضنا أن الموضوع هو: مدى تمسك سكان مدينة طرابلس بإرتداء الزى الوطنى، فإن ذلك يستوجب على الباحث ملاحظة، ومشاهدة سكان المدينة فى أماكن مختلفة وأوقات مختلفة، وقت العمل، وأماكنه وفى المدارس، والجامعات، والمناسبات الدينية والأعياد الوطنية، والأعراس، وحفلات الختان، والمآتم، وفى الشوارع العامة، وأيام العطلات، وأماكن الترفيه. فإذا ذهب الباحث الى المصيف البلدى وشاهد المصطافين بدون زيهم الوطنى فهذا لا يعنى عدم تمسكهم به، ولكنه يعنى أن طبيعة المكان لا تستوجب لبس الزى الوطنى، بل إنه إذا شاهد أحد المواطنين يرتديه وهو مع المصطافين على الشاطىء يلاحظ عليه إخلالا بالذوق العام، وعدم احترام للزى الوطنى، وإذا شاهد أحد أساتذة الجامعة يرتدى ملابس البحر القصيرة

وهو فى الفصل الدراســى، أو المدرجات الجامعيـة فإنـه يلاحـظ عدم احترام الأستاذ للمكان الجامعى ولطلبة الجامعة، وتختلف المشاهدة عن الملاحظة فـى المثالين السابقين، الملابس تشاهد وتميز، أمـا الاحـترام والتقيـد بـالذوق العـام يلاحظ ولا يشاهد. وإذا ذهب الباحث الـى مـأتم وشـاهد إمـرأة ترتـدى ملابـس عروسة، يلاحظ أنها خارجة عن الموضوع، لأنها لم تتقيد بـالظرف الزمـانى، والمكانى للزى الذى ترتديه، ولم تحترم المناسبة وشعور الآخرين، واذا شـاهد بعض الأفراد يسبحون بالزى الوطنى فى المصيف العام يلاحـظ عليهـم عدم احترامهم للزى الوطنى الذى يجب ألا تقدم له الإهانات.

أن الملاحظة تمكن الباحث من استقراء التاريخ، واستنباط العبر منـه، فعن طريق ملاحظة الآثار، والنقـوش، والزخـارف، والوثـائق يمكـن التعـرف على أحداث، أو حضارات قد سادت وبادت. إن معركة أحد قد دارت وانتهـت من زمن المشاهدة ولكنها باقية لزمن الملاحظة من خـلال آثارهـا، ومـا كتـب عنها. إن الرومان قد احتلوا ليبيا وطردوا منها بعد اقتتـال عنيـد وجهـاد ثميـن كل ذلك انتهـى مـن زمـن المشـاهدة، لكنـه بقـى لزمـن الملاحظـة، مـن خـلال مشاهدة الآثار الرومانية وسجلات الجهاد الليبـى، والوثـائق الدالـة علـى ذلـك. ولهذا الملاحظة أداة هامة تمكن الباحث من التعرف على المعلومات الظاهرة، واستنباط ما يخفى أحيانـا مـن خـلال قـدرة البـاحث علـى ربـط العلاقـات بيـن المتغيرات، والتناقضات حول القضايا المطروحة للبحث والدراسة. وتسـتهدف الملاحظة معرفة الموضوع، وعناصره مـن الأفـراد والمجتمعـات ممـا يجعـل الملاحظة تمكن الباحث من تفسير الموضوع، وفـى هـذه الحالـة تختلـف عـن المشاهدة التى تشبه آلة التصوير والنسخ لأنها تصور أو تنسخ المشاهد فقط، مما يجعلنا نقول أن صورة الشىء لا يمكن أن تكون الشىء ذاته، فإنـا أختلـف عن صـورتى، صـورتـى مـن ورق وأنـا مـن صلصـال، ويرتبـط نجـاح وفشـل

الباحث الملاحظ، أو المشاهد بقدراته، واستعداداته، ومهاراته، وخبرته، وسلامة حواسه، فكلما كان الباحث أكثر قدرة على الانتباه والفطنة كلما كانت ملاحظاته، ومشاهداته ناجحة.

يقول الدكتور ماهر عبدالقادر: (أنه لا يمكن أن ننظر لعبارات الملاحظة على أن معانيها ثابتة أو لا متغيرة. فالملاحظون البشريون هم ذاتهم شيء خاص ومختلف أشد الاختلاف عن أدوات القياس الفيزيائي، ولابد من معالجتهم بصورة مختلفة)(5).

ولا تقتصر الملاحظة على الصور والأشكال، بل تتعداها الى المعانى والألفاظ، وما يحاول أن يخفيه أو يظهره المبحوث، وهذا لا يتحقق بالمشاهدة التى تقتصر على مشاهدة الصور (المتحرك والثابت)، ان التناقض فى الحديث، والتلعثم، والخجل، والتظاهر بالبراءة، والتظاهر بالخوف، والخوف الحقيقى، والمحبة، والتظاهر بالمحبة، والانطواء، والاكتئاب، والتشاؤم، ومحاولة إنكار الانفعال والغضب، وإظهار الفرح والمرح كل هذا لا يمكن مشاهدته ولكن من الممكن ملاحظته.

وعليه ليس كل ما يلاحظ يشاهد، ولكن كل ما يشاهد يمكن أن يلاحظ. إن قوة العلاقات بين أفراد الأسرة، أو الأمة لا يمكن مشاهدتها، ولكن بالإمكان ملاحظتها، الحرية لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها. ومع أن للحرية أساليب لممارستها فى سلوك عن طريق اللجان، والمؤتمرات، والبرلمانات، والجمعيات، والتنظيم الاقتصادى من خلال الملكية العامة

---

(5) ماهر عبدالقادر محمد: فلسفة العلوم "المشكلات المعرفية"، بيروت: دارالنهضة العربية، الجزء الثانى، 1984. ص 101.

والخاصة، وديناميكية الانتاج التي يمكن مشاهدتها كتعابير عن الحرية. إلا أن التعابير المعلن عنها من قبل الحكومات من خلال المشاهدة قد لا تعبر عن ما صدق، ومن خلال الملاحظة قد يثبت عكس ما يقال أو يكتب، فعن طريقها قد تكون الحقيقة أن الدولة التي تدعى ممارسة الحرية عن طريق جلسات المجالس والبرلمانات التي يمكن مشاهدتها بالنقل المباشر من خلال شاشات الاذاعة المرئية، يلاحظ أنها تعيش نظاما كبحيا أو سلفيا أو طبقيا.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لاثبات الحقائق والماصدق، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة الى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية هي : تلك التساؤلات، والافتراضات، أو الانتقادات والتوقعات، وكيفية تفادى المواقف، وكيفية اختيار الأساليب ومراعات الظرف المناسب. أى أنها الحوار الذى يتم بين الباحث وذاته، والمبادىء العلمية حول الموضوع والأهداف، مع مراعاة المبحوث، وأساليبه الدفاعية التى قد تحول دون الملاحظة، أو تعرقلها، أما توليد المشاهدات فهى : الانتقال من المشاهد الى الأسرار التى وراءه، والعلاقات المكونة لعناصره. " **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** "(6) أى شاهدوا أنه أمر لمشاهدة آياته فى السماء وهى النجوم والكواكب، ومن خلال النظر اليها، يمكن مشاهدة حركتها ونورها الجميل، وبالمشاهدة نلاحظ أن هناك علاقة بينها، وان هناك قدرة وراءها، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها فى تحديد الاتجاهات، فى الظلمات، وفى البر والبحر، وهذه مشاهدات تولدت من خلال الملاحظة للمشاهدة.

والملاحظة تفسيرية الى جانب كونها وصفية، لأنها تعتمد على الحس والعقل، وتتعلق بالظاهر، والكامن.

---

(6) يونس ، الآية 101.

أمـا المشـاهدة فهـى أداة اسـتطلاعية، وتقتصـر علـى الوصـف، أى أن المشاهدة تصف السلوك، والملاحظة تفسره بنظرة اختبارية فاحصة، وتصفه بوعى.

وتعتبر الملاحظة والمشاهدة أحيانا بأنهما أداتـان هامتـان لوسيلة المقابلة. لأنه من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المبحوث وتصرفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل الباحث.

أن الملاحظة قد ترتقى الى درجة اختبار المشاهدة أثناء تجميع البيانات والمعلومات وتشخيصها، خاصة مع الحالات الشاذه أو الانحرافية. مثل مشاهدة الباحث للمبحوث وهو يبكى أثناء المقابلة، فمن خلال الملاحظة يمكن اثبات أن هذا البكاء ليس صادقا، ولكنه لاستدرار عطف الباحث، نتيجة الحيل الدفاعية للمبحوث وذكائه فى التأثير على الباحث، وتمييع الموضوع. وأن مشاهدة المتسولين وهم فى ثياب رثة بالية، قد تظهر للوهلة الأولى ظروفهم المعوزة، ولكن إذا أخضعوا للملاحظة، قد يكونون عكس ما يشاهد تماما لأنهم اختاروا أقصر الطرق للعيش بدون مقابل، وهكذا تكون الملاحظة اختبارية للمشاهدة، وتكون المقابلة اختبارية للملاحظة، فكل ما يلاحظه الباحث يمكن أن تختبر مصداقيته أو عدمها بالمقابلة. وتختلف الملاحظات والمشاهدات العلمية عن الملاحظة والمشاهدة العابرة التى تواجه الانسان كل يوم، والتى قد تثيره فى وقتها لاحتوائها عنصر المفاجأة أو التى تعرف عليها فى الماضى وتتكرر من حين لآخر مثل مشاهدته السحب والأمطار، ومعرفته لها كما هى مشاهدة، ولا يعرف العلاقة بين السحب ومكوناتها والقوة التى تذيبها فتسقط مطرا، وأنه يشاهد البرق ولكنه لا يعرف القوة المولدة له، أما الملاحظات والمشاهدات العلمية المقصودة فهى تحدث وفق خطة وانتباه واع وتتبع دقيق، وتنطلق من موضوع وتحقق أهدافا.

أهمية الملاحظة والمشاهدة :

1- تفيد الملاحظة والمشاهدة في دراسة المبحوثين الذين قد لا يستجيبون للمقابلة، أو للاستبيان.
2- أنها تمكن الباحث من أن يكون شاهد عيان وفق خطة علمية واضحة.
3- أنها تفيد في دراسة ديناميكية الأفراد والجماعات والمجتمعات.
4- تفيد الملاحظة في الدراسات الكشفية والوصفية، والتجريبية، والتاريخية.
5- تمكن الباحث من متابعة التغيرات السلوكية ورصدها ايجابيا أو سلبيا.

خطوات الملاحظة والمشاهدة:

أن للملاحظات والمشاهدات العلمية خطوات محددة يتم استخدامها في البحث والدراسة، وتتحقق وفق خطة واضحة ومنهج سليم وتتكون هذه الخطوات من الآتي:

أ - اختيار الموضوع وتحديده وفق أهداف واضحة ومحددة، لأن نقطة الانطلاق للملاحظة، أو المشاهدة هي أهمية الموضوع الذى تم اختياره فبدون موضوع لا يمكن أن تكون الملاحظة هادفة وجادة، لأن الموضوع هو الإطار العام الذى تتبلور فيه الأفكار، وتستنبط منه الفروض مما يجعل الملاحظة، أو المشاهدة مترسخة في الموضوع ومنطلقة منه ومثيرة له.

ب - تحديد وحدة الاهتمام : بناء على الخطوة الأولى وهي تحديد الموضوع، يتم تحديد وحدة الاهتمام الفرد سواء كان ذكرا أم أنثى، صغيرا أو كبيرا، ثم تحديد صفاته، هل هو مدرس أم مدرسة؟ وهل الصفة المستهدفة بالملاحظة، والمشاهدة تتعلق بنوع المهنة، حدادة، أو نجارة، أو حياكة.

وقد تكون وحدة الاهتمام الاثنين الذكر والأنثى، أو الذكرين أو الأنثيين، أو الطرفين، أو الدولتين، وقد تكون وحدة الاهتمام حالة زواج، أو طلاق، أو قضية دينية، أو قومية، أو شذوذا جنسيا، وقد تكون وحدةالاهتمام دورا مثل دور الزوجة، أو دور الزوج، أو دور المعلم والتلميذ، مما يجعل الباحث يهتم بمشاهدة وملاحظة، السلوك والفعل للأثنين المشتركين فى الموضوع، ومراعاة متغيرات اللغة، والدين، والجنسية، والمهنة واللون، والظرف لكلا الطرفين. وقد تكون وحدة الاهتمام جماعة، وقد تكون نشاطا فنيا، أو رياضيا، أو مسرحيا، أو أدبيا، أو ثقافيا، فمن خلال ممارسة الجماعة لهذه المناشط يمكن ملاحظة أفعالها وسلوكياتها والأثر المتبادل بينها. وقد تكون وحدة الاهتمام مجتمعا محليا، أو قرية، أو مدينة عندما يستهدف الباحث ملاحظة، ومشاهدة الأنساق الاجتماعية، واتجاهات المجتمع واهتماماته، وتضامنه فى العمل والمناسبات العامة، وفى الأفراح والمآتم، والتعاون المنظم فى البناء، والمعمار، والانتاج. وقد تكون وحدة الاهتمام مؤسسة، أو مزرعة، أو عملا اداريا، أو قلاعا صناعية.... الخ.

تحديد الظرف المناسب لإجراء الملاحظة، والمشاهدة: نتيجة لأن الموضوع يتأثر ويؤثر على الظرف الزمانى، والمكانى ينبغى على الباحث إجراء الملاحظة، والمقابلة فى الظروف الطبيعية لها، لكى يتحصل على معلومات غير متأثره بظروف خارجية، فإذا أراد مشاهدة أو ملاحظة دور المدرس فى الفصل، لا يأتى للفصل فى وقت إجراء الاختبارات للطلبة، أو أثناء معاناة المدرس من زكام حاد، وإذا أراد أن يلاحظ درجة السمو التى تحدث للفنان عند انسجامه مع أنغام

الموسيقا، لا يأتى له فى إزدحام يجعله لا يجيد الإنصات للمعزوف والعازف مما يعطى أهمية للظرف الزمانى، والمكانى عند اجراء الملاحظات العلمية.

د – تحديد نوع العلاقة المناسبة للموضوع : قد تكون العلاقة بين الباحث والمبحوثين علاقة ثقة تطمئن فيها الجماعة، أو الفرد للباحث، وتتقبله وتحترمه، وتمكنه من الحصول على المعلومات المستهدف البحث عنها، والحصول عليها، وقد ترتقى العلاقة بينهما (الباحث والمبحوث) الى درجة الصداقة التى لا تخل بالمبادىء المهنية للبحث العلمى، وقد يفضل الباحث أن لا ترتقى العلاقة الى درجة الصداقة حتى لا تؤثر على الموضوع، وتكون عن بعد، وقد تكون العلاقة رسمية، كل ذلك يتحدد حسب متطلبات الموضوع(7).

هـ – تحديد كيفية وأسلوب التسجيل : أن الملاحظات العلمية دقيقة وكثيرة ومترتبة على بعضها بعضا مما يستوجب تسجيلها حتى لا تضيع بدون جدوى، إلا أن التسجيل مسألة فنية من حيث التقنية، ومن حيث الأسلوب، فقد يستوجب الموضوع أن يكون التسجيل أثناء زمن حدوث الفعل أو السلوك الملاحظ، وقد يتطلب الموضوع أن يكون التسجيل فى نهاية الملاحظة، أو المشاهدة، وقد يكون التسجيل بعلم المبحوث، وقد لا يكون بعلمه. ولأسلوب التسجيل ميزات وعيوب هى:

---

(7) مصطفى عمر التير، مساهمات فى أسس البحث الاجتماعى. بيروت: معهد الانماء العربى، 1989. ص 121.

1ـ ميزات التسجيل أثناء زمن الملاحظة أو المشاهدة: أن الباحث يسجل ملاحظاته فى وقتها، وبالتالى لا ينسى شيئا منها، ولن تضيع منه أية مشاهدة قد حصلت، وهى هامة فى تفسير السلوك، والفعل الاجتماعى، وأن التسجيل يزود الباحث بالمعلومات الكافية والهامة.

2- أما عيوب التسجيل: فقد تجعل الباحث منغمسا فى تفسير ما يشاهده، وبالتالى تقع مجموعة من المشاهدات والملاحظات وتنتهى دون أن تسجل، وقد لا تتكرر وهى هامة أيضا فى تفسير السلوك، ومن عيوبها أيضا أنه قد يتحسس المبحوث من التسجيل ويتخوف من نتائجه وبالتالى قد يمتنع عن ممارسة بعض الأفعال، وإذا كان التسجيل بدون علم المبحوث، ثم ينتبه الى أنه تحت الملاحظة والتسجيل، فقد يتصنع سلوكا، أو تعابير ليست من طبيعة أمره، وقد يفقد الثقة فى الباحث، ويعتبره يتجسس عليه.

أنواع الملاحظة والمشاهدة من حيث دور الباحث :

تنقسم أنواع الملاحظة والمشاهدة من حيث دور الباحث الى نوعين هما: الملاحظ غير المشارك، والملاحظ المشارك.

1- الملاحظ غير المشارك :

انه الملاحظ العلمى الذى لم يختلط مع الملاحظين أو المشاهدين قيد البحث والدراسة، ويجرى ملاحظاته ويسجلها دون أن تحس الجماعة أو الفرد، أو الاثنين بأنهم تحت المراقبة أو المشاهدة، مما يجعل تصرفاتهم تجاه

الفعل الاجتماعى طبيعية، دون تكلف فى السلوك. وتجرى مثل هذه الملاحظات على الأفراد، وعلى الأنشطة، وعلى المواقف، وقد تكون مباشرة، وقد تكون غير مباشرة، فالأولى هى التى يقوم بها الباحث مباشرة دون وسيط، وتتم عن بعد، وكأن الأمر لا يعنى الباحث فى شىء، مع أنه منتبه لكل ما يجرى، أو ما هو مشاهد، كمشاهدته، وملاحظته للوحدات السكنية، والحالة التى عليها، ومدى اهتمام السكان بنظافتها وجمالها، أو حين يلاحظ سلوك جماعة من الصيادين، أو الفلاحين، أو المتظاهرين دون أن يشاركهم السلوك أو الفعل موضوع المشاهدة، والملاحظة.

أما الملاحظة غير المباشرة فهى التى تتم عن طريق وسطاء قاموا بها فى الزمن الماضى ولازال بعضهم على قيد الحياة، مع أن الموقف أو الموضوع الذى اشتركوا فى ملاحظته أو مشاهدته قد انتهى، ولن يتكرر، فمن خلال اجراء مقابلة أو مجموعة من المقابلات معهم يتم التعرف على ملاحظاتهم، ومشاهداتهم السابقة، وتعتبر هامة للمقارنة، أو لاجراء ملاحظات على أفعال حاضرة أكثر تركيزا، أو اتساعا من حيث المجال، وقد تكون مصادر الملاحظة وثائق، وسجلات، ومذكرات عامة، أو خاصة، وقد تكون مصادر الملاحظة أشرطة مسموعة أو مرئية.

إن هذا النوع مهم جدا فى الدراسات الاستطلاعية والدراسات المتعمقة مع أن هذا النوع محفوف بخطأ النسيان أو الزيادة من قبل الناقلين، لأن العنعنة لا دقة فيها.

2- الملاحظ المشارك :

هو الباحث الذى يقوم بالملاحظة مباشرة من أجل تجميع البيانات والمعلومات، وقد يكون الباحث مشاركا كاملا، وقد يكون مشاركا ملاحظا.

والمشارك الكامل: هو الذى يتحدد من خلال دور الباحث أثناء ملاحظة ومشاهدة سلوك فرد، أو إثنين، أو جماعة، أو مجتمع، وينبغى ألا تعرف الجماعة أن هناك من يقوم بملاحظتها، ويكون الباحث فى هذه الحالة كأنه عضو أساسى فى الجماعة مما يستوجب عليه الإلمام بإتجاهاتها وأهدافها والتقيد بتعاليمها، وأساليب المعاملة فيما بينها، ومع الآخرين، وأن يلتزم بتأدية طقوسها، خاصة إذا كانت جماعة دينية منغلقة على ذاتها، وأن يمارس مناشطها اذا كانت للجماعة مناشط توحد اتجاهاتها، أو تهذب نفوسها، ويفضل أن يمتاز الباحث بمرونة عالية فى تعامله مع أعضاء الجماعة خاصة وأنه قد يتعرض لمواقف استفزازية، إذا لم يتم تقبله من الجماعة، وإذا لم تثق الجماعة فيه كل الثقة. إن الهدف من ممارسة هذا الدور من قبل الباحث، هو التعرف على الأساليب التنظيمية للجماعة، والمنهج التربوى الذى تنتظم فيه، والأهداف التى تسعى الى تحقيقها، والمخاطر المترتبة عليها، أو الفوائد المحققة لها، وذلك من أجل أخذ عبرة يستفاد منها فى الحياة العامة، وتنظيم المجتمع والمحافظة على سلامته، مع أن بعض أنواع التفاعل الاجتماعى يصعب أن يقوم الباحث بملاحظتها، وذلك مثل الممارسات الجنسية، والاختلافات الأسرية، وأن هذا الدور يحتاج الى وقت كاف وتدريب راق حتى يتمكن الباحث من الاقتراب الى المبحوث أو المبحوثين والتعرف على ما يكنوه، أو يعلنوه فيما يتعلق بموضوع الملاحظة والمشاهدة.

أما المشارك الملاحظ : فهو الباحث الذى حدد وسيلة الملاحظة والمشاهدة كأداتين هامتين فى تجميع البيانات من المبحوثين الذين يعرفون دوره المعلن بأنه المشارك الملاحظ، وينتشر هذا النوع كثيرا فى الدراسات الانثروبولوجية. وقد ترتقى درجة الثقة بين الباحث والمبحوثين الى درجة الصداقة التى ينبغى ألا تؤثر على موضوع الملاحظة. وينتشر هذا النوع

كثيرا فى الدراسات الميدانية. وإن لهذا لدور ميزاته وعيوبه: فمن ميزه تقبل المبحوثين للباحث والتعرف عليه كباحث ميداني، وقد تثق فيه الجماعة الى درجة إظهار كل ما هو كامن عندها من أفعال وسلوكيات، وعادات وأعراف، من أجل عدم إحساسه بالغربة، أو نتيجة إعتزازهم بما يمارسونه من سلوك وأفعال، أو نتيجة إعتبارهم لما هم عليه ذا قيمة لدرجة الدعوة له، أو التبشير به. أما عيوبه إذا لم تتقبل الجماعة الباحث وتثق فيه قد تسلك أمامه سلوكيات مصطنعة حتى تظهر ذاتها بأنها مثال أمام الملاحظ، أى أن الأفعال، والمناشط والأدوار التى تقوم بها أمامه ليست طبيعية بل مختلقة، وكذلك قد يندمج الباحث فى الجماعة الى درجة تأثره العاطفى بأدوار الجماعة فيتحيز اليها بشكل قد ينسيه دوره العلمى الذى جاء من أجله(8).

ميزات الملاحظة، والمشاهدة:

1- تمكّن الملاحظة، والمشاهدة الباحث من رؤية المبحوث، والاستماع اليه.
2- مشاهدة الأفعال والسلوكيات المختلفة، وملاحظة التفاعلات، والانفعالات والنوايا والمقاصد، فى وسطها الطبيعى الذى لا تحققه المعامل والمختبرات.
3- تعطى الباحث فرصة للتأكد من الأشياء الممكن مشاهدتها.
4- تمكّن الباحث من التعرف على مشاكل المبحوثين.
5- أنها وسيلة لاختبار إجابات المبحوثين التى أدلوا بها عن طريق الاستبيان أو استمارة المقابلة. لأن الفعل قد ينطبق مع القول، وقد يخالفه.

---

(8) المرجع السابق، ص 126.

عيوب الملاحظة والمشاهدة :

1- قد لا يعبر الفعل والسلوك المشاهد عن النوايا والمقاصد الباطنية الداخلية، أى قد لا تكون هناك مصداقية بين الفعل والموضوع.

2- قد تدخل آراء الباحث الخاصة فى تفسير الموضوع أو الأفعال المشاهدة والملاحظة، واصدار تعميمات عليها.

3- قد يتأثر الباحث برؤية الجماعة خاصة اذا كانت منغلقة على ذاتها مما يجعل الدراسة فاقدة لمبدأ المهنة العلمية، كأن يشارك جماعة دينية متزمته، أو جماعة متطرفة فى الالحاد، فإذا تأثر فإنه يكون منحازا لرؤية خاصة، وإذا مارس أفعالهم فقد يكون تحت طائلة القانون مجرما.

4- أن الملاحظة بالمشاركة قد تتعارض مع القوانين، والأعراف، والأديان، لأن مشاركة الباحث للجماعة التى تتعاطى الحشيش فى ارتكاب الفعل تجعله فى قائمة المنحرفين، وليس فى قائمة البحاث العلميين، وكذلك مشاركته الشواذ جنسيا فى ارتكاب الفعل لا يعتبر ميزة للملاحظة والمشاهدة بالمشاركة بل عيبا أخلاقيا لا يرتضيه المجتمع السوى.

5- لا تفيدالمشاهدة،والملاحظةأحيانا فى دراسةالأزمات والاختلافات الأسرية.

6- خدعة الحواس (النظر والسمع) مثل الطبيب الذى أحضر بولا سكريا وغمس أحد أصابعه فيه ليتذوقه أمام طلبة كلية الطب، وطلب منهم أن يتذوقوه واحدا بعد الآخر، فقاموا على ذلك وهم على مضض، وبعد انتهاء التجربة إتفق الجميع أن البول السكرى حلو المذاق، فابتسم الطبيب قائلا لقد فعلت ذلك لأعلمكم الدقة فى الملاحظة فلوا راقبتمونى بعناية لكان من الممكن أن تلاحظوا أننى غمست أصبعى الأول فى البول بينما وضعت أصبعى الثانى فى فمى(9).

---

(9) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1975م. ص 330.

الفصل التاسع

المقابلـــــــــــة

المقابلة :

هى احدى وسائل جمع البيانات من مصادرها، وتتم بين طرفين حول موضوع محدد، منطلقا من أسباب ومحققا لغايات، وتهدف المقابلة العلمية الى التعرف على الظاهرة أو الموضوع، بالبحث عن العلل والأسباب، من خلال التقاء مباشر بين الباحث، والمبحوث، سواء كان فرداً، أو إثنين أو جماعة وحسب علاقتهم بالموضوع، وتطرح فيها أسئلة تهدف الى استيضاح الحقائق من ذوى العلاقة بالحالة أو الظاهرة، وتشخص فيها المعلومات بربط العلاقة بين المتغيرات المستقلة، والتابعة، والمتداخلة لاظهارها قيد البحث والدراسة.

وهى فن مهنى، يعتمد على الخبرة التى تزود الباحث بالفطنة والمهارة فى التعرف على الظواهر والحالات، والوصول الى نتائج ومعالجات تمكن الفرد، أو الاثنين، أو الجماعة من تأدية مهامهم وواجباتهم الاجتماعية والانسانية بود وحرص ومحبة.

وفلسفة المقابلة هى التعرف على المواضيع والأفراد والأشياء عن كثب، دون وسطاء قد يساهموا فى تمييع الحقائق والمعلومات، سواء بالنقص أو بالزيادة.

وتهدف فلسفة المقابلة الى التعرف على جوهر الإنسان الذى لا يمكن أن نصل اليه عن طريق المشاهدة، لأنه لا يرى، ولكنه ينعكس فى سلوكيات وأفعال يمكن مشاهدتها، ويمكن ملاحظة الجوهر اذا صدق السلوك معه وتطابق مع الفعل، وفى الخدمة الاجتماعية تهدف الفلسفة من المقابلة الى بناء الانسان واصحاح بيئته، والأخذ بيد الذين تعثرت أحوالهم نتيجة ظروف قد ألمت بهم.

والمقابلة بدون فلسفة لا قيمة ولا معنى لها، ولهذا ينبغى أن تكون واضحة للباحث والمبحوث حتى يحسا بأهميتها العلمية والانسانية فى الدراسة، والتشخيص، والعلاج، ومن المقابلة تعرف الأسباب وفيها تكمن الحلول والمعالجات. ومن المألوف اجتماعيا أن الانسان قد يصيب وقد يخطىء كما أنه يمرض ويشفى وإذا كان من الواجب معالجة المريض صحيا من أجل إنقاذ حياته، فإنه من أكثر الواجبات أن يعالج الانسان المريض اجتماعيا ونفسيا، ولا عيب أن تفتح المصحات الاجتماعية والنفسية لاستقبال وإيواء المرضى الذين فى حاجة الى تطبيب اجتماعى ونفسى.

وكما أن الطبيب لا يستغرب أى حادثة قد تصيب بدن الانسان وأطرافه وأجهزته، كذلك الطبيب الاجتماعى، لا يستغرب أى انحراف أو جريمة قد تقع، وكما أن كل شخص يتوقع أن يصاب بأى مرض أو حادثة أليمة قد تودى بحياته، فإن الأطباء يحاولون بكل السبل العلمية والفنية، إنقاذ حياة المصاب أو المريض، ويتقبلونها بدون إستغراب، ويتعاملون معها وكأن ألم المريض لا يعنيهم فى شىء، فعلى الباحث الاجتماعى والطبيب الاجتماعى والنفسى مراعاة الأسس الآتية أثناء اجراء المقابلات سواء كانت لتجميع المعلومات أو للتشخيص أو للعلاج، وهى:

1- تقبل أى ظاهرة تحدث وتقبل التعامل معها :

يعتمد هذا النوع من التقبل على أن قيمة الانسان غالية لا ينبغى التفريط فيها أو الاستهانة بها، كلنا نعرف أن السرقة عيب، وتناول المخدرات عيب، وارتكاب الجرائم عيب، ومع ذلك نقبل التعامل مع مثل هذه الحالات من أجل تصحيحها الى الصواب، لأننا إذا لم نقبلها عند حدوثها فإننا نفقد أسس القضاء عليها، ونكون قد ساهمنا فى زيادة انتشارها فى المجتمع لدرجة

إعجازنا عن اجتثاثها. ويتم تقبل الباحث للمبحوث أو المريض اجتماعيا بالكلمة الطيبة، ويتقبله كما هو لا كما يجب أن يكون عليه.

لأن ما ينبغى يكون عليه هو الهدف الذى يسعى الباحث الى تحقيقه أو الوصول اليه.

إذن يعتمد تقبل الباحث للمبحوث على لكلمة الطيبة، وتتبع مبادىء المهنة علميا من أجل التعامل مع كل الحالات بمراعات الفروق الفردية لكل حالة والخصوصيات الثقافية، والدينية، والاجتماعية، والظرف الزمانى والمكانى.

ومن ثم يتم التعامل مع الحالات والأفراد الذين تجرى معهم المقابلات للتعرف على آثار الظاهرة أو المشكلة على شخصية الفرد، أو الأطراف ذوى العلاقة بها.

2- عدم استغراب أى سلوك شاذ قد يقع فى المجتمع من قبل أفراد منه حتى ولو كانوا يظهرون أنهم قدوة حسنة:

فقد يقع منهم الفعل وقد يقع عليهم. والفعل الشاذ قد يقع بين الأخ وأخته أو أمه، أو الأب وإبنته، أى قد يقع بين المحارم فى الدين الاسلامى.

ولهذا لا ينبغى أن يستغرب الباحث الاجتماعى، والطبيب الاجتماعى أى سلوك شاذ يقع فى المجتمع لأن فى المجتمع آثمين، ومعتدين نهاهم الله عن ارتكاب الأعمال الخسيسة والواطية والمحرمة ومع ذلك يرتكبونها. وعند اجراء مقابلة مع آثم أو آثمين قد يلاحظ الباحث ندما شديدا من مرتكب الفعل الشاذ. لماذا؟.

لأن الأفعال الشاذة ترتكب فى حالة الغياب عن ذات المجتمع وضمير الأمة، فيكون الانسان فى غيبوبة عن قيم ونواميس مجتمعه.

وعند المقابلة يعود المنحرف الى عقله وضميره ليحكمه فيجد نفسه إرتكب الإثم الذى لا يغفر فيكون فى حالة ندم.

إذن ما هو العلاج؟.

العلاج هو تفطين العقل والضمير من غفلتهما الى رؤية الحقيقة، ورؤية الحقيقة تتضح بنواهى الدين والتقيد بقيم المجتمع وأعرافه وقوانينه أى تبيان الحق من الباطل، وذلك بتصحيح المعلومات المنحرفة عن طريق اجراء عدد من المقابلات المتلاحقة التى يتم فيها تحديد أسباب الانحراف وإمكانية علاجه وتبيان المعلومات الخيرة التى يرغبها المجتمع ويحترم من يقوم بها، لأن (المنحرفين يحبون السعادة ويبحثون عنها مثلما يحبها الأسوياء، والفارق بينهما تلك المعلومات التى حصلوا عليها، والتى تؤدى بهم الى نتائج خاطئة فيقعوا فى الانحراف الذى يبعدهم عن السعادة، والعكس عند الأسوياء الذين يبحثون عن الفضيلة من أجل سعادتهم، وإذا لم تصحح معلومات المنحرف وبطريقة علمية فقد يتكرر منه الإنحراف.

ولتوضيح ذلك، نسأل كيف ينمو الإنحراف فى طريق السعادة؟.

إنه ينمو مع نمو الانسان، ومن بين غرائزه، وأحاسيسه، ومشاعره التى تنمو فيها عناصر الحق، والمحبة، والعدل، والحرية، والجمال، والفضيلة، والمودة.

وكل هذه أزهار وورود يانعة إذا أهملت دون متابعة وتنمية وإهتمام كبير خاصة فى فترة المراهقة، فقد تنمو معها حشائش وأعشاب ضارة قاتلة ومخدرة كالظلم، والسرقة، والكره، والاستغلال، والإثم، والسلوك الشاذ، فتصبح هى المسيطرة، فيحدث الإنحراف الذى يحتاج الى تصحيح المعلومات وتفطين الذات والضمير)(1).

---

(1) عقيل حسين عقيل: الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع الجماهيرى. طرابلس: جامعة الفاتح، 1992. ص 175.

3- عدم اليأس من معالجة الظواهر الاجتماعية:

مما لا شك فيه أن التعامل مع الأفراد، حتى المعافين مسألة ليست هينة، فما بالك مع المنحرفين والذين يعانون من مشاكل نفسية واجتماعية.

هناك أمراض فى الطب البشرى، عندما تكتشف، قد يكون من الميؤوس الشفاء منها، ومع ذلك نجد الأطباء يحاولون باستمرار علاجها، والبحث العلمى يسخر بكل جدية من أجل اكتشاف أمصال أو مضادات للقضاء على المرض قبل أن يقضى على حياة الانسان.

كذلك الباحث الاجتماعى والطبيب الاجتماعى لا ييأسا من البحث والدراسة العلمية التى تفيد فى اصحاح الأفراد وبيئتهم الاجتماعية فمن خلال المقابلة الأولى، والثانية قد يحس الباحث والاخصائى بصعوبة مهنية تجاه الحالة أو الفرد موضوع الدراسة، ولكن الباحث الخبير يعرف جيدا أن المقابلات الأولية لا يعّول عليها كثيرا لأنها تفتقد الى جوانب الطمأنينة والثقة، فهى شكية. فإذا لم يزل الشك من المبحوث تجاه الباحث، وإذا لم يطمئن له ويتقبله فلن يستجيب له، وقد يظهر مالا يبطن، أو أنه يقول ما ليس له علاقة بموضوع المقابلة.

لذلك ينبغى ألا ييأس الباحث من دراسة أى ظاهرة أو مشكلة خاصة إذا لم يمض عليها زمن التهدئة، ويقصد بزمن التهدئة الفترة الضرورية لامتصاص الغضب أو التشنج من أجل الفتور والسكينة.

عليه ينبغى على البحاث والاخصائيين إلا ييأسوا أو يكلوا من آداء واجبهم الاجتماعى العظيم، فى التعامل مع الحالات والأفراد والمجتمعات من أجل بقاء النوع الانسانى على الود والمحبة، ويكون المجتمع منتظما على

الحرية والعدل والمساواة ويكون أفراده متقين " **إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلاما آمنين، ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين"(2).**
إذن وسيلة المقابلة هامة جدا فى ازالة الغل من الصدور التى امتلأت به، وتطهيرها منه هو الذى يجعل أفراد المجتمع فى تسامح ومودة وعندما يتقابلون، وهم لا غل بينهم، يكونون اخوانا متحابين. ولذلك تعتبر المقابلة أداة لإصلاح ذات البين.

4- مراعاة جنس الباحث والمبحوث خاصة فى دراسة الحالات الفردية لأن هناك معلومات يصعب الحصول عليها من غير نفس الجنس وهذه لها تأثير على الموضوع وعلى الباحث والمبحوث:

أ - تأثيرها على الموضوع : عندما يتعلق الموضوع، أو جوانب منه بمعلومات لها صلة بالأنوثة، أو الذكورة، أو بالعلاقات الجنسية، أو الشذوذ الجنسى، يفضل أن يكون الباحث من نفس نوع المبحوث لأن هناك قضايا يمكن تناولها بين الاناث، ولا يمكن تناولها مع الذكور بشكل واضح، وكذلك هناك قضايا يمكن تناولها بين الذكور، ويصعب تناولها مع الاناث.

ب - تأثيرها على الباحث والمبحوث: قد تتكون علاقة عاطفية بين الباحثة والمبحوث أو بين الباحث والمبحوثة، مما يؤثر على طبيعة البحث أو الحالة موضوع الدراسة. لأن العلاقة العاطفية يسيطر عليها الجانب الشخصانى أكثر من الجانب العلمى والمهنى، وحتى لا تتأثر الدراسة بذلك، ينبغى أن نترك الحالة الى باحثة أو باحث آخر لاستكمال الدراسة العلمية بمراعاة المبادىء المهنية، وباستخدام وسيلة المقابلة.

---

(2) الحجر، الآية 45 ، 46، 47.

ويلاحظ عند مراعاة جنس الباحث والمبحوث، ليس بالضرورة أن يتم هذا الفرز النوعى فى الدراسات المسحية، والاستطلاعية والميدانية التى تتناول البحث فى المواضيع التى تتساوى فيها أهمية الطرفين ولم تكن تحتوى على أسئلة تستوجب الفرز النوعى بين الجنسين.

5- المحافظة على سرية المعلومات المتعلقة بالأفراد وقضاياهم الخاصة:

هناك معلومات هامة قد لا يدلى بها المبحوث، خوفا من النتائج المترتبة عليها، والتى قد تدينه قانونا، أو تفقده مكانة اجتماعية، أو أنها تنقص من شأن الآخرين الذين تربطه بهم علاقة أسرية، أو رفاقية أو جيرة، أو عقيدة.

فإذا أحس المبحوث من الباحث بالأمانة والصدق لما يقوله فإنه يستجيب اليه، ويدلى له بمعلوماته الخاصة، وأسراره التى جعلت منه موضوعا قيد البحث والدراسة، ويقترب من الباحث أملا منه فى إنقاذه، أو إخراجه من الأزمة التى فيها، أو المواقف الذى يعانى من نتائجها.

لذلك ينبغى على الباحث المحافظة على المعلومات وسريتها وإحساس المبحوث بذلك، لكى يزداد فى التجاوب معه، ويطمئن اليه، مما يمكنه من تشخيص الحالة والوصول الى نتائج علمية تساهم فى إصحاح الحالة أو البيئة الاجتماعية.

شروط المقابلة :

1- تحديد الموضوع تحديدا دقيقا: من حيث فروضه، وغاياته، وفلسفته ومجالاته النظرية والعملية، بحيث تتمحور المقابلة عليه، دون النظر الى هامشيات قد تضيع وقت الباحث، ولا تضفى شيئا هاما على الموضوع.

2- وضوح الهدف من إجراء المقابلة لدى الباحث والمبحوث: أى ينبغى أن يعرف الباحث جيدا الأهداف التى يسعى الى الوصول اليها أو تحقيقها بحيث لا يضل طريقه، فالباحث بدون أهداف واضحة ومحددة كمن يقود سيارة فى الليل بدون إضاءة.

وكذلك المبحوث إذا لم يعرف الأهداف من وراء المقابلة، لا يستجيب للباحث ويكون كمن لا يعرف السباحة ويحاول إنقاذ غارق فى البحر، أو كمن ركب الصحراء وهو لا يعرف طرقها.

لأن الهدف هو الدليل الذى يرشد الباحث والمبحوث الى مرامى البحث ومقاصده.

3- وضوح المفاهيم: لأن المفاهيم هى اللغة المستعملة بين الباحث والمبحوث وإذا لم توّضح يكون هناك لبس فى المعانى والألفاظ وما تدل عليه المفاهيم. ووضوحها يسهل عملية الاجابة والاستجابة من المبحوث. لأن أكثر المفاهيم تحتوى على أكثر من معنى، ولذلك ينبغى توضيحها للمبحوث، وإذا استعمل المبحوث ألفاظا غير واضحة أو غير مفهومة لدى الباحث عليه أن يطلب تفسيرها من المبحوث دون أن يحسسه بالملل، أو عدم الرضا.

4- مراعاة الظرف الزمانى للمقابلة: ينبغى ألا تكون المقابلة العلمية مفاجئة دون علم المبحوث بموعدها، بل يحدد الموعد مسبقا ومع ذلك قد يؤجل هذا الموعد إذا استجد على الباحث أو المبحوث ظرف لا يسمح بإجراء المقابلة.

فإذا كان المبحوث يمارس نشاطا رياضيا أو فنيا أو أدبيا، وجاء الباحث يطلب منه ترك هذا النشاط لاجراء المقابلة، فإن الوقت الذى إختاره الباحث غير مناسب، فقد يترك المبحوث ممارسة النشاط ولكنه قد يكون

على مضض طول فترة المقابلة، وهذا يؤثر على درجة تفاعله واستجاباته للباحث وللموضوع.

وقد يكون المبحوثان زوج وزوجته وتجرى لأحد أبنائهما عملية جراحية وقت حضور الباحث لإجراء المقابلة، فإذا طلب منهما أو من أحدهما أن يبدأ معه المقابلة يكون الباحث على خطأ كبير لأنه لم يراع الظرف النفسى والظرف الزمانى للمبحوثين.

5- مراعاة الظرف المكاني: بما أن المقابلة تتطلب إنتباها كبيرا من الباحث واصغاء وتتبع لكل ما يقوله المبحوث فإن ذلك يستوجب إختيار أماكن مناسبة يتوفر فيها الهدوء والاطمئنان.

فإذا لم يكن المكان هادئا ببعده عن الضوضاء أو الحركة العامة أو أماكن ممارسة الأنشطة فإن ذلك يؤثر على تركيز كل من الباحث والمبحوث.

وأحيانا المبحوث لا يرغب أن يراه أحد فى أماكن التحقيق العامة مما يتطلب البعد عنها حتى لا تؤثر على استجاباته.

وينبغى أن لا تكون المقابلة فى المكاتب الخدمية التى يتردد عليها كل من له مصلحة أو خدمة مما يقلق المبحوث ويشتت إنتباه الباحث. عندما يسترسل المبحوث فى إعطاء المعلومات تكون مهمة الباحث الاصغاء الجاد ولكن إذا لاحظ المبحوث أن الباحث يقاطعه بشكل يؤثر على إنسياب المعلومات التى يرى أنها هامة حسب استفسار الباحث له، ويلاحظ كثرة الاتصال الهاتفى من حين الى آخر بين الباحث والمتصلين به واهمال المبحوث أثناء فترة الاتصال الهاتفى، كل ذلك يؤثر على استجاباته وتفاعله واطمئنانه، ويجعله غير مبال، ولا متحمس للمقابلة فى هذه الأماكن التى تكثر فيها الضوضاء، وتعرضه الى عدم الاحساس بسرية موضوعه وعدم ثقته فى الباحث.

6- مرونـة الأسئلة وتنوعهـا: المقابلـة المهنيــة ينبغــى أن تتمـيز بعنــاصر التشويق وعدم التقيد بصيغ جامدة تحسس المبحوث بالملل والقلق، وأن لا تكون شرطوية من حيث الأسلوب فى الصياغة والتعبير وأن تكون قابلــة للتعديل والتغيير اذا لم تحقق تقبل الباحث والمبحوث.

وأن تكون صيغ الاسئلة متنوعة حتــى لا يشـعر المبحـوث أو المبحوثـون بالملل وأن تكـون مهذبـة التعبير. وعـدم القصـور علـى نـوع واحـد مـن الأسئلة، كأن تكون كل الأسئلة مقفلة، أو مفتوحة بل يفضل تحديد الصيـغ وفق الموقف، وأغراض المقابلة، وفلسفة الموضوع.

رأى المبحوث مهم حيـن تصــاغ الأسـئلة المفتوحـة، وغايـات المقابلـة قد تتطلب صياغة الأسئلة المقفلة أو المقفلة المفتوحــة فـى وقـت واحـد. وأن تكون الأسئلة مباشرة عند الموقف الذى يتطلب صياغة وعرضــا مباشـرا ولا يؤثـر علــى نفسية المبحـوث أو يثير شكوكه فـى الموضـوع أو فــى الباحث مثل الأسئلة التى تتعلق بالعمر أو المسـتوى التعليمــى أو الوظيفـة أو الحالة الاجتماعية.

ولا تقتصـر الأسئلة عند هـذا الحـد المباشـر بـل تتعـداه الـى الأسـئلة غير المباشرة فيما يتعلق بنوع الحالة، أو الإنحـراف، أو الممتلكـات والدخـول الخاصة، أو العلاقات العاطفية، ودوره فى تنفيذ الموضوع الإنحرافى اذا كانت الحالة المدروسة إنحرافا بسيطا أو جريمة مركبة.

7- تحفيز المبحوث على الاستجابة: عندما تتضـح أهميـة الدراسـة والبحـث بالنسـبة للمبحـوث بأنهـا مـن أجلـه، ولصالحـه بإعتبـاره فـردا مهمـا فــى المجتمع، وأن كل البشر قد يتعرضـون الى الخطأ بارادة أو بغيرها بوعـى أو بدون وعـى، والخطأ قد يكون نتيجــة توفـر معلومـات خاطئـة أو لعـدم

توفر أى معلومات عن الموضوع وهذا بالامكان اصلاحه من خلال تصحيح المعلومات الخاطئة، أو بتوفر معلومات سليمة وواضحة.

ويفضل أن يجيد الباحث الإنصات لكل ما يقوله المبحوث ويترك له حرية التعبير التى تخفف من همومه خاصة فى المقابلة الأولى التى يتم فيها إحساس المبحوث بأهميته من خلال تشجيع الباحث له بالإنصات، واهتمامه به بالمتابعة، وتفاعله مع حالته، وتطمينه له بإمكانية اصلاحه.

وينبغى أن لا يستهزىء أو يستهين المبحوث بمكانته فى المجتمع، وأن يعرف أن المجتمع فى حاجة لجميع أفراده، وأن المجتمع قادر على اعطاء فرص لهم، وهم قادرون على تصحيح إخطائهم التى وقعوا فيها نتيجة المعلومات الخاطئة.

كل هذه تساعد المبحوثين على تقبل حالاتهم وتحفزهم على اصلاحها من خلال استثارة الدافع للاستجابة الذى يتحقق بدور الباحث وخبرته المهنية والعلمية وقدرته على خلق مناخ يمكن المبحوث من التفاعل مع الموضوع والباحث.

8- الانتباه ورحابة الصدر: قد تكون الدراسة مستهدفة حالات سوية وقد تكون مستهدفة حالات غير سوية أو شاذة ولكل منهما اعتبارات تميزها عن الأخرى من حيث الظرف الشخصى والظرف العام، فالحالات السوية كثيرا ما تكون الأسئلة الموجهة الى عناصرها مباشرة، ونتائجها غير محرجة للمبحوث، أما الحالات غير السوية كثيرا ما يتعمد أصحابها الالتجاء الى الأساليب الدفاعية والملتوية والتهرب من الاجابات المستهدفة باستفسارات الباحث.

وفى كلا الحالتين ينبغى أن يتميز الباحث برحابة الصدر، والانتباه الجاد لما يقوله المبحوث أو المبحوثون أثناء المقابلة والذين قد يكون من بينهم من يعانى من الحالات الآتية:

أ - سرعة الاجابة : بعض الأفراد تكون اجابتهم على الأسئلة سريعة جدا لدرجة ادغامهم بعض الحروف أو بعض الكلمات وبسرعة قد تجعل الباحث غير قادر على تتبع ما يقوله المبحوث اذا لم يكن منتبها جيدا، وله القدرة على تقبل هذا النوع من الحالات والتعامل معها بلين ومنطق وهدوء.

ب - بطء الاجابة : هناك بعض آخر بطيء الاجابة، بدرجة هدوء عالية، وفتور كبير كأن يخرج المبحوث الكلمة ويترك فترة زمنية لاخراج الكلمة أو الجملة التى تليها، وقد تكون هذه طبيعته، وقد تكون مصطنعة من أجل استفزاز الباحث، ومضايقته بذكاء المبحوث وقدرته على التلاعب بأحاسيسه مما يستوجب الانتباه لمثل هذه الحالات وأخذها فى الاعتبار.

ج - المعاناة من التأتهة : يختلف بطيء الاجابة عن الذى يعانى من التأتهة من حيث اخراج الكلمات ووضوحها، فالأول يستغرق زمنا ما بين الكلمة والتى تليها، أما الثانى يستغرق زمنا فى اخراج الكلمة الواحدة مما يجلعه يحتاج الى وقت أكثر من غيره أثناء اجراء المقابلة معه، ولا يعتبر هذا الوقت تضييعا للجهد الذى يبذله الباحث من أجل استقراء حالته ودراستها دراسة علمية.

د - ضعف السمع : قد يكون من بين المبحوثين ضعاف السمع، أو قد يكون المبحوث الوحيد المستهدف بالمقابلة ضعيف السمع، مما يستوجب من الباحث التحدث بصوت عال وتكرار النطق أحيانا

أكثر من مرة لعدم وضوح الكلمات عند المبحوث، وأن لا يحسسه بالضيق منه بظهور علامات عدم الانبساط على وجه الباحث أو صدور كلمات غير حسنة قد تقع فى سمع المبحوث فتضايقه وتكون حاجزا بين تفاعلهما.

9- عدم الاستهزاء بالمبحوث : لكل فرد ظروف خاصة، وامكانيات مختلفة وقدرات، واستعدادات جعلت بين أفراد المجتمع فروقا فردية، وجعلت منهم الفقير، والمشبع الحاجة، والغنى، وجعلت منهم المبصر وفاقد البصر، والأعرج وسوى البنية، ونظيف الملابس ورث الملابس. وكل هذه وغيرها ينبغى أن لا تجعل الباحث يستهزىء بالمبحوث " **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج** "(3).

10- تسجيل اجابات المبحوثين : حتى لا تضيع المعلومات التى تم الاستماع اليها من مصادرها، ينبغى أن تسجل بوضوح، حسب خطة علمية واضحة الأسباب والأهداف ويراعى أثناء التسجيل ظروف المبحوثين ودرجة سماحهم للباحث بتسجيل كل ما يقولونه أو يعبرون عنه، وحسب نوع الحالة ودرجة تقبل المبحوث لحالته أو مشكلته وتقبله للباحث يحدد زمن التسجيل، فقد يكون التسجيل أولا بأول حتى لا تضيع المعلومات والبيانات التى يدلى بها المبحوث.

ويؤخذ على هذا النوع أنه قد يشك المبحوث فى الباحث إذا لم يتأكد من حرصه على سرية المعلومات التى يدلى بها.

وقد يكون التسجيل فى نهاية المقابلة لتفادى حساسية المبحوث من التسجيل أثناء المقابلة، ويؤخذ على هذا النوع أن الباحث قد ينسى شيئا

---

(3) النور، الآية 61.

من المعلومات التى قالها المبحوث وهى هامة لدراسة حالته أو لتشخيصها وعلاجها.

وقد يستعين الباحث بالوسائل التقنية، كأجهزة التسجيل المسموعة والمرئية أثناء المقابلة، سواء بعلم المبحوث أو بدون علمه، شريطة أن لا يحس بأن الباحث يتجسس عليه إذا اكتشف جهاز التسجيل دون أن يعلم مسبقا بذلك أو أنه لم يؤخذ رأيه بهذا الخصوص.

لذلك يفضل أن تكون المقابلة علمية تراعى أحاسيس المبحوث وخصوصياته، والارتقاء به الى معرفة الأهمية من تسجيل المقابلة معه حتى يتقبل الدراسة ويصل الباحث الى تحقيق أهدافه منها.

وحسب الموقف والظرف ودرجة التفاعل يتم تسجيل المقابلات وهذه متروكة للتقدير من قبل الباحث وخبرته التى تفيد المقابلة.

أما فى المقابلات المقننة والتى تستهدف دراسة مسحية يقوم بها الباحث وفريق من المساعدين المدربين فتعد الأسئلة مسبقاً وتختبر استمارة المقابلة قبل تعميمها على مجتمع الدراسة أو عينة استطلاع الرأى العام أو أى عينة يكون الغرض من اختيارها التعرف على مؤشرات الظواهر المدروسة.

على أن تكون الأسئلة المطبوعة واضحة اللغة، والأسلوب والمعنى، ولا تسمح بفتاوى مختلفة من فريق البحاث المساعدين حتى لا تكون الاجابات عليها متضاربة من قبل المبحوثين.

أهمية المقابلة :

1- أنها تمكن الباحث من الالتقاء المباشر بالمبحوث دون وسيط قد لا يكون ناقلا أمينا للمعلومات والبيانات.

أى أنها تمكنه من الالتقاء بمصادر المعلومات، مباشرة وذوى العلاقة بالموضوع المستهدف بالبحث.

2- أنها تفيد فى الدراسة، والتشخيص، والعلاج للحالات النفسية وسوء التكيف والتوافق الاجتماعى.

3- تمكن الباحث من استقراء ردود أفعال المبحوث أو المبحوثين، والتغيرات التى تطرأ على وجوههم، أو حركاتهم من خلال استقراء علامات التفاعل والانفعال على سيماتهم.

4- تعتبر وسيلة هامة لتحقيق التنفيس الوجدانى عن المبحوث وهمومه.

5- تسمح للباحث والمبحوث بتصحيح المعلومات والاستفسار حول أى لبس أو غموض على الأسئلة المطروحة سواء كانت شفوية أو مكتوبة ولكلا الطرفين.

أنواع المقابلة :

المقابلة هى واحدة وتعتبر كوسيلة لجمع المعلومات والبيانات ولكنها تختلف من حيث الاستعمال المهنى ومجالات التخصص الى أربعة أنواع وهى:

1- أنواع المقابلة من حيث الأسلوب، وتنقسم الى نوعين :

أ - المقابلة المرنة :

هى المقابلة التى تتميز بروح المودة بين الباحث والمبحوث، وقد ترتقى العلاقة بينهما الى درجة الصداقة خاصة اذا كانت الحالة المدروسة مطولة وتحتاج الى تتبع التغيرات الطارئة عليها.

والمقابلة المرنة تحقق مناخا للتفاعل بين الباحث والمبحوث ولم تعد أسئلتها بشكل نهائى مسبقا بل تكون الاستفسارات المقدمة

للمبحوث قابلة للتوضيح والشرح، والتغيير، والتهذيب كلما تطلب الأمر ذلك من الباحث.

وتأخذ شكل الحديث العادى البسيط فى تناول القضايا مع المبحوث، ويستعمل هذا النوع من المقابلة فى دراسة الحالات الفردية فى خدمة الفرد وتشخيصها وعلاجها، ويستعمل أيضا فى الدراسات النفسية والاستطلاعية، وسوء التكيف الاجتماعى، ويهتم الباحث بتسجيل المقابلة حسب الموقف والظروف ودرجة تقبل المبحوث للباحث وتفاعله معه، فقد يكون التسجيل أولا بأول، وقد يتم التسجيل فى نهاية المقابلة.

ب - المقابلة المقننة :

هى المقابلة التى تعد أسئلتها بشكل مقنن من حيث اللغة والأسلوب، وتصاغ بشكل نهائى فى استمارة مقابلة يتقيد المبحوث بالاجابة عليها، ويتقيد الباحث بتسجيل تلك الاجابات أثناء اجراء عملية المقابلة، وبعلم المبحوث دون اخفاء عنه، وقد يكون مع الباحث فريق من المساعدين المدربين خاصة فى الدراسات المسحية التى تتطلب عددا كبيرا من المساعدين والبحاث.

2- أنواع المقابلة من حيث الغرض : وتنقسم الى ثلاثة أنواع هى:

أ - مقابلة تجميع المعلومات والبيانات :

فقد تكون من أجل اختيار أطباء أو فنيين، أو من أجل اختيار مدربين، أو قد تكون من أجل دراسات استطلاعية، أو حالة انحراف، أو مشكلات عمل أو أسرة، ويهتم الباحث أو مساعدوه بتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات ذات العلاقة المباشرة بالموضوع

والمعلومات والبيانات الثانوية التى لها صلة بالموضوع وبشكل غير مباشر. فيهتم الباحث بمعرفة تاريخ الحالة، والمستوى التعليمى للفرد والمستوى الاقتصادى ونوع العمل والمهنة أو الحرفة، والديانة والجنسية، وعدد أفراد الأسرة وهل الأسرة ممتدة أو نواة، والنوع ذكر أم أنثى، كل هذه المعلومات هامة ولا حرج فى اعطائها ويمكن تسجيلها فى المقابلة الأولى لأنها لا تحتوى على عناصر الحرج، وتتطلب سرية من الباحث. ثم ينتقل الباحث الى تجميع المعلومات المتعلقة بالحالة من حيث نوع الحالة، وعمر الحالة وزمن وقوع الحالة، والبحث عن المتغيرات المتداخلة التى أنتجتها سواء كانت (سرية) أو جاءت نتيجة دور قام به أحد أفراد الأسرة، أو نتيجة ردود أفعال، أو نتيجة اهمال، أو مرض أو اجبار من آخرين سواء كانت له علاقة بهم أو لم تكن.

وهنا نحب أن نشير الى أن كل البحوث وبمختلف أغراضها تعتمد أساسا على تجميع المعلومات والبيانات. ولا يمكن اجراء أى دراسة وتكاملها الا بالمعلومات. وعلى ضوء المعلومات وطبيعة الحالة يصدر القرار أو الحكم أو العلاج سواء كان من القاضى أو الطبيب أو الاخصائى الاجتماعى، أو الاخصائى النفسى.

ب – المقابلة التشخيصية :

تعتمد المقابلة التشخيصية على المعلومات التى تم تجميعها عن الحالة أو الظاهرة أو المشكلة ويتم التركيز فيها على العوامل المتداخلة من حيث تباينها وتبيان العلاقات التى تربطها ببعضها البعض والتى أظهرت الظاهرة أو الحالة من الكمون الى العلانية

السلوكية، مما جعلها قيد البحث أو الدراسة وجعل مرتكبيها نزلاء الاصلاحيات الاجتماعية أو المصحات الاجتماعية.

ويعتمد هذا النوع من المقابلات على مبدأ المشاركة بين الباحث والمبحوث حتى يتبين المبحوث الأسباب التى كانت وراء انحرافه إذا كانت انحرافية مما يحفزه على تقبل حالته وتقبل المتعاملين معها ويشارك فى ابداء الآراء من حيث التأكد من العوامل المتداخلة التى بتفاديها قد يتم القضاء على الحالة، أو معالجتها، أى أن التشخيص يهيء المبحوث وينمى استعداداته للبحث عن حلول أو معالجات لحالته. وتهدف المقابلة التشخيصية الى توضيح الحالة أمام المبحوث بتحليل المتغيرات والعوامل المتداخلة فيها ومشاركة المبحوث فى الوقوف على كل العوامل التى جعلت منه نزيل احدى مؤسسات الاصلاح الاجتماعى وتنمية استعداداته وتسخير قدراته وامكانياته للبحث عن حلول أو معالجات. وتهدف أيضا الى تفطين المبحوث بتوفير المعلومات الشخصية ومقارنتها بالمعلومات المنحرفة لكى يبتعد عن الخطأ ويتجه الى الصواب.

ج - المقابلة العلاجية :

تتداخل المقابلات من أجل تكامل دراسة الظاهرة أو الحالة فبدون توفر معلومات مناسبة وقيّمة لا يمكن أن يكون هناك تشخيص قيّم، وبدون تشخيص وتحليل علمى وموضوعى يعتمد على الخبرة والمهارة الفنية للباحث، لا يمكن أن يكون هناك علاج علمى هادف.

لذلك تهدف المقابلة العلاجية الى مشاركة المبحوث فى اختيار الحلول المناسبة، والتى تتمشى مع قدراته وامكانياته الذاتية

والشخصية والبيئية حتى لا يحدث نكوس للفرد أو للأفراد حسب الحالة ونوعها ويفضل أن تكون الحلول نابعة من المبحوث من خلال مشاركته في تشخيص حالته.

وتهدف أيضا الى اقناع المبحوث بالأخطاء التى وقع فيها والعيوب أو الأضرار التى نتجت عن الأفعال التى ارتكبها فى الماضى، والوصول به الى تكفير السيئات واصلاح باله، وتعتمد المقابلة العلاجية على حقيقة أن الانسان معرض للخطأ ويمكن معالجته أو اصلاحه. وتهدف أيضا الى ازالة درجة التوتر التى يعانى منها المبحوث، وتهدف الى اعادته الى الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه من أجل تأدية مهامه ووظائفه من خلال دوره كفرد لا يمكن له الاستغناء عن محيطه الاجتماعى.

وتهدف المقابلة العلاجية الى تفطين المبحوث بذات المجتمع من حيث أعرافه، وديانته، وقوانينه، وما يحبه وما يكرهه وما يجيزه وما يحرّمه، كل ذلك من أجل بناء ذات الفرد، لكى تكون قوية ويمكن الاعتماد عليها.

3- أنواع المقابلة من حيث درجة الاهتمام: وتنقسم الى نوعين هما:

<u>المقابلة الشاملة(العامة) :</u>

وهى المقابلة التى تهتم بالموضوع بشكل عام، سواء كانت مقابلة تجميع المعلومات أو مقابلة تشخيصية أو علاجية، وهى المقابلة المتكاملة التى تستهدف وحدة الموضوع، والالمام به من حيث تأثيره على شخصية المبحوث والبيئة الاجتماعية والأفراد المتداخلين فى ارتكاب الظاهرة أو الحالة، سواء كان تداخلا رئيسيا أو ثانويا وابراز

دور كل منهم وآثاره على المبحوث، وذلك من خلال تجميع كل المعلومات ذات العلاقة بالموضوع والمبحوث واجراء تشخيص عام لها وفق ما يتوفر من متغيرات مستقلة وتابعة أو متداخلة من أجل الوصول الى علاج نفسى، واجتماعى وبيئى وتكون المقابلة شاملة متى اهتمت بجوانب الحالة أو الظاهرة من حيث المستوى التعليمى والاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى، والصحى.

ب – المقابلة البؤرية :

وهى المقابلة التى يقوم بها الباحث بعد اجراء المقابلة الشاملة. أى بعد اتضاح المعالم الرئيسية والأساسية للحالة أو الظاهرة وبعد معرفة الأسباب والأفراد الذين كانوا وراء حدوث الظاهرة.

والمقابلة البؤرية تهدف الى التركيز على صلب الموضوع سواء من حيث جمع المعلومات أو من حيث التشخيص والعلاج باعتباره لب المشكلة أو الظاهرة.

فمن خلال المقابلات العامة قد يتضح أن السبب الرئيسى لحالة إنحراف مراهق هو زوجة الأب التى تزوجها بعد وفاة الأم، أو طلاقها، وأن الأب عامل بالأجرة فى الميناء، ويخرج من المنزل الساعة السادسة صباحا، ولا يعود اليه إلا فى المساء مثلا.

فبعد أن كانت المقابلة شاملة وعامة للحالة التى اتضح من خلالها أن السبب لم يكن سياسيا، أو صحيا، أو تعليميا بل السبب الرئيسى كان اجتماعيا وحدد فى دور الأب وزوجة الأب، فإن المقابلة البؤرية تتوجه بالعناية العلمية الى إجراء مقابلات مع زوجة الأب ومع الأب، ومع المبحوث وذلك بالتركيز على إيضاح العلل والأسباب

التى جعلت من الإبن منحرفا يتعاطى المسكرات والحشيش، حتى تكون العناية بالدرجة الأولى من الأب، وزوجته، وتبيان الأضرار الصحية للمراهق المبحوث، والأضرار الاقتصادية حتى يتم العلاج المناسب له.

ويكون الفرق بين المقابلة الشاملة العامة، والمقابلة البؤرية، أن الأولى تهتم بالظاهرة من جميع الجوانب، سواء كانت أساسية أو ثانوية أو هامشية، لأنها مؤسسة على أسئلة رئيسية ذات علاقة مباشرة بالموضوع. والمقابلة العامة هى التى لها الفضل الأكبر فى تبين بؤرة الموضوع أو المشكلة.

أما المقابلة البؤرية فتنطلق من المعلومات والبيانات التى تم التوصل اليها عن طريق المقابلة الشاملة.

4- أنواع المقابلة من حيث عدد مصادر المعلومات: وتنقسم الى أربعة أنواع:

أ - المقابلة الفردية :

هى مقابلة الباحث مع المبحوث كطرف وحيد فى وجود المشكلة أو الحالة وتسمى دراسته بدراسة الحالة الفردية، ولم يشترك معه أحد أثناء إجراء عملية المقابلة، وحتى إن كان هناك آخرون لهم علاقة غير مباشرة به ولم يستهدفوا بإجراء المقابلة معهم من قبل الباحث فتكون الحالة فردية مرتكبها واحد باعتباره قيد البحث والدراسة، أو أنه نزيل مؤسسة اصلاحية نتيجة حالته التى لم يعثر على آخرين له علاقة بهم.

ب – المقابلة الثنائية (الحالة الثنائية) :

هى الحالة التى يكون عدد المشتركين فى ارتكابها اثنين مما يجعل الباحث يقوم بإجراء مقابلات مشتركة معهما أثناء تجميع البيانات أو أثناء التشخيص أو العلاج، والاثنين دائما هما أساس كل شيء فى الوجود " **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** "(4).

وحتى الحالة الفردية التى يرتكبها شخص واحد فهى من ضمن الاثنين. فإذا كانت الحالة انحراف الفرد عن قيم المجتمع الحميدة فإن المقابلة قد تجرى معه لوحده باعتباره العنصر الوحيد فى القيام بالانحراف، ولكن لابد وأن يكون هناك طرف آخر قد وقع عليه الفعل الانحرافى، سواء كان على شخصه أو على ممتلكاته، وفى هذه الحالة هناك اثنان إلا أن واحدا تجرى معه المقابلة من أجل اصلاح انحرافه والآخر شخص سوى قد تجرى معه أيضا المقابلة على انفراد وقد يتطلب الأمر اجراء مقابلة مشتركة معهما من أجل تكفير الأول عن سيئاته وتسامح الثانى له مما يؤدى الى اصلاح الحالة.

ج – المقابلة الجماعية :

هى المقابلة التى يشترك فيها أكثر من اثنين ولا تصل الى حجم المجتمع مثل جماعة النشاط الرياضى، أو الثقافى، أو الفنى، أو المسرحى أو الأدبى أو العلمى ، أو جماعة العمل، هؤلاء حسب الموضوع تجرى معهم مقابلات مشتركة بشكل منظم يقوم بها الباحث من أجل تحقيق أهداف واضحة ومحددة لتنمية النشاط وتطويره، أو

---

(4) الذاريات ، الآية 49.

لتغييره أو لتعديل بعض فقراته أو تغيير الأفراد القائمين به كل ذلك يتم فى الحالات السوية أما فى الحالات الانحرافية فقد تكون المقابلة مع المجموعة الانحرافية فى وقت واحد من أجل ارشادها وتشخيص حالتها أو اصلاحها. ومن المقابلات الجماعية مثلا :

مقابلات أسرة وجيران ورفاق المبحوث سواء فى المدرسة أو العمل أو فى أماكن ممارسة المناشط وقضاء وقت الفراغ.

د - المقابلة المجتمعية :

وهى المقابلة التى يقوم بها الباحث مع المجتمع المحلى أو مجتمع القرية وقد تكون وفق أسئلة معدة فى استمارة مقابلة تستهدف معرفة التراث الشعبى والعادات الخاصة بالمجتمع المحلى فى الأفراح والمآتم والأعياد الدينية والوطنية، وعن أساليب التعاون الانتاجى. وقد تكون المقابلة من أجل دراسة ظاهره تفشت فى المجتمع وأصبح لها آثار سلبية على أفراده وأسره.

والمقابلات المجتمعية تحتاج الى فريق من المساعدين المدربين لانجازها لأنها تحتاج الى وقت طويل وجهد كبير يصعب على الباحث القيام بها لوحده.

وقد تزداد الظاهرة أو المرض فى الانتشار الى درجة الصعوبة فى القضاء عليها نتيجة الوقت الذى قضاه الباحث فى الدراسة ولم يصل الى إنجازها الأمر الذى يتطلب فريقا كبيرا من البحاث المساعدين للاسراع فى إنجاز الدراسة قبل أن تصل الظاهره الى ذروتها(5).

---

(5) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى. القاهرة: الانجلو المصرية ، 1975. ص 362 - 268.

ميزات المقابلة ومآخذها :

1 - ميزات المقابلة

أ - تفيد فى دراسة الذين لا يجيدون القراءة والكتابة.

ب - تمكن الباحث من مشاهدة وملاحظة ردود أفعال المبحوث سواء فى حديثه، أو انقباض وجهه وانبساطه، أو بجفاف شفتيه أو ارتوائهما، أو بتلألأ عينيه، أو انهمار الدمع منهما، والحديث المسترسل والصمت المفاجىء، وحركات اليدين وتشنجهما، وبلع اللعاب، وجفاف الحلق، والارتعاش، وغيره.

ج - تحقق التفاعل والود أحيانا بين الباحث والمبحوث.

د - أنها تفيد فى استطلاع الرأى العام.

هـ - تجعل المبحوث شريكا للباحث فى الدراسة والتشخيص والعلاج مما يطمئنه بعدم فرض أى حل عليه إذا كان يليق بظرفه وقدراته واستعداداته.

و - تمكن الباحث من متابعة الحالات عن كثب ووضوح.

ز - تمكن الباحث من تكوين علاقة مهنية مع المبحوث تساهم فى تيسر الحصول على المعلومات واصلاح الحالة.

ح - تمكن الباحث من التعرف على اتجاهات ودوافع ومشاعر المبحوث.

ط - استكشاف معلومات جديدة لم يسبق معرفتها من قبل.

2- مآخذ المقابلة :

أ - تحتاج الى وقت طويل وتكاليف كبيرة.

ب - قد تتأثر الدراسة بعواطف الباحث والمبحوث إذا لم يتم التقيد بالمبادىء المهنية.

ج - تحتاج الى عدد كبير ومدرب من مساعدى البحاث.

د - تصتنع المبحوث لمواقف أو ردود أفعال أو ارتكاب سلوك لا يعبر عن حقيقة الأمر فى شىء.

هـ - أنها صعبة التقنين نظرا لاختلاف أساليب القائمين بها واختلاف ظروف المبحوثين مما قد يستوجب تغيير بعض أسئلتها أو صيغها.

الفصل العاشر

العينة بين المعارضة و التأييد

العينة بين المعارضة والتأييد :

اهتم العلماء بالبحوث كوسيلة للاكتشاف العلمى والأثر المعرفى، واستعملوا مناهج وطرق بحث متعددة من أجل تتبع خطوات علمية، يمكن قياسها أو اعادة تطبيقها، وللتأكد من صحة النتائج المتوصل اليها من عدمها.

وقد ركز معظم البحاث فى العلوم الانسانية والاجتماعية على دراسة العينات كمصدر بشرى يمكن أن تعمم نتائجها على المجتمع بأسره، مهتدين فى ذلك باستخدام العينات فى العلوم الطبيعية، ومتعذرين بصعوبة المسح الشامل.

ونتيجة لأن معظم المتخصصين فى العلوم الانسانية والاجتماعية اعتمدوا فى بحوثهم على العينات، ودرجة الصدق والثبات فيها، واعتماد نسبة الخطأ المقبول من الباحث. وأن رسائل الماجستير والدكتوراه فى معظمها استعملت العينات، فإن الانتقادات التى ستوجه الى العينة واستعمالاتها المنهجية، قد تلاقى كثيرا من المعارضة أذا اعتبر البعض أن هذه الانتقادات تقلل من شأن بحوثهم، مما يجعلهم فى مواقف دفاع عنها. إلا أننا واثقون من أن المتخصصين والمتعلمين يتحلون بالصفات العلمية فى تصحيح المواقف والاتجاهات. وما ظهور الجدل العلمى إلا ميزة من أجل التطور والتغير الى الأفضل دون تعصب لآراء مقولبة عفى عليها الزمن.

ولتوضيح ذلك أطرح الأسئلة الآتية:

- هل المريض يمثل المرضى؟. أم الطبيب هو الذى يمثلهم؟.
- هل الغنى يمثل الفقير فى إحساسه بآلام الفقر والعازة؟.
- هل العينة المنحرفة عن الإنحراف تعد منحرفة وتمثل المنحرفين؟.

كل هذه الأسئلة تحتاج الى جدل فى الاجابة عليها حتى وإن أحسسنا بما تتضمنه من إجابات لأن أسبابها وظروفها مختلفة حسب كل حالة والمواقف التى تتعرض لها. ومن خلال محاولة تحليل هذه الأسئلة تتضح مدى أهمية دراسة العينة من عدمها وعيوبها فى الدراسة والتشخيص والعلاج ومدى إمكانية الاعتماد عليها من عدمه.

فإذا حللنا السؤال الأول فإننا نجد أن المرض لا يعرفه إلا المريض، فى الوقت الذى يختلف فيه كل مريض عن الآخر فى درجة تحمله وإحساسه بشدة الألم، ودرجة تقبله لحالته، لأن الآلام التى يحس بها مريض ما تختلف عن آلام مرض شخص آخر باختلاف مقاومة وتحمل كل واحد منهم، ودرجة إصابته.

فنجد الذى يتألم فى صمت ونجد الذى يصرخ بصوت عال وآخر أقل هدوءً. وعليه لا يمكن أن يمثل أحد آخر فى مرضه أو درجة إحساسه بالألم، ولذلك لا يمكن لعينة من المرضى تمثيل كل المرضى وإن كان نوع المرض واحدا.

والطبيب المختص قادر أكثر من غيره فى معرفة نوع المرض واكتشاف أسبابه وتحديد العلاج المكتشف له، وتحديد الزمن المناسب للقضاء عليه، ومع ذلك أنه لا يعرف درجة الآلام التى يعانى منها المريض ووطأتها على أوصاله. برغم أن الطبيب يعرف المرض، إلا أنه لا يحس بآلامه بل الذى يحس بها المريض. ومن هذا التحليل يتضح أنه ليس كل من يعرف يستطيع أن يمثل غيره فى احساسه وآلامه ودرجة تحمله فيما يعرف، لأن المعرفة مكتسبة أما الاحساس فطرى. فالطبيب قد يعرف أنواع الأمراض وأنواع الأدوية ومؤثراتها الجانبية وكيفية التشخيص والعلاج حسب كل حالة دون تعميم نوعية العلاج حتى وإن كان المرض واحدا لأن الأسباب ودرجة

المرض مختلفة قد تتأثر بالوراثة، وقد تتأثر بالمخالطة، وسوء التغذية ومقاومة الجسم وقابليته للعلاج ودرجة تحمله، وحسب كل مرحلة عمرية. فإذا حددنا نوع المرض بأنه صداع، وشخصنا جميع المرضى، وتركنا واحدا منهم، فإن الذى لم يفحصه الطبيب لا يستطيع تعميم الدواء عليه ولا على المجتمع الذى أخذت منه العينة لأن العلاج لم يكن للرأس مباشرة ولكنه للأسباب المختلفة من الجيوب الأنفية، والأذنين، والأسنان، والعينين، والمعدة أو عصب من الأعصاب الملتهبة فى الرأس وغيرها من الأسباب ذات العلاقة مما يستوجب اختلاف العلاج لكل حالة من الحالات السابقة.

وبناء على ما تقدم إذا كان علم الطب لا يعتمد على التعميم والتعامل مع العينات المرضية ولا يعتبرها أحسن ممثل للمرضى، فكيف إذن تكون أحسن ممثل فى العلوم الانسانية والاجتماعية التى تتعامل مع أحاسيس ومشاعر، وعواطف، وميول، واتجاهات، وغرائز، وحاجات تترجم فى سلوك مختلف بين شخص وآخر؟.

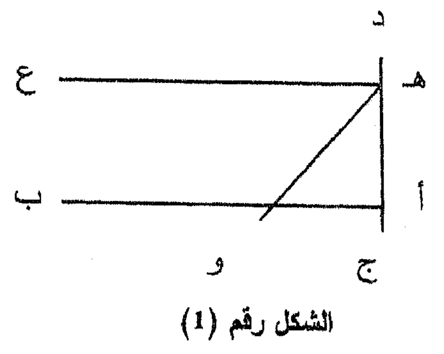
ويعاد طرح السؤال الثانى : هل الغنى يستطيع أن يمثل الفقير فى الحكم من أجل معالجة حالته المعتازة؟.

بما أن المرض لا يحس به إلا المريض وأن الطبيب لا يستطيع أن يمثله فيه كما لم يستطع غيره من المرضى أن يمثلوه فيه، كذلك حال الغنى مع الفقير، لأن الغنى مهما فكر أو أحس بحالة فقير ما، لم يستطع أن يغوص فى معرفة الظروف الخاصة بالفقر، ولكنه سيكون أكثر قدرة على توصيل مشاعره وظروفه الانسانية الى الآخرين ويستطيع أن يجيب عن إمكانياته الذاتية وحاجاته وكيفية معالجتها. والعقل المادى (التفكير المادى) بإمكانه توليد مجالات توسعه على حساب الآخرين وليس بإمكانه فسح المجال لهم. مع

معرفته لحالة العوز التى هم فيها. إذن كيف يعتقد البعض فى تمثيل الأغنياء للفقراء؟.

وهكذا تكون المعرفة المكتسبة أحيانا لا تعبر عن واقع، وإلا لماذا يعرف الغنى حاجة الفقراء الى المسكن، والمركوب، والمعاش ولم يعمل على الاجابة عليها وحل مشكلتها بقدر ما يعمل على زيادة ما يمتلكه ليستغلهم به،؟ ولكن عندما يشترك الفقراء من الحكم تقدم الأشياء على حقيقتها وتحل المشكلة.

وعليه لا يمكن لجزء من الأغنياء أن يمثل بقيتهم ولا كلهم يمثلون الفقراء وكذلك بالنسبة للفقراء لا يمثلون إلا أنفسهم، وإذا تساءل البعض، هل العينة المنحرفة عن الانحراف تعتبر منحرفة وتمثل المنحرفين؟. أن المنحرف عن الانحرا ف منحرف سواء كان هذا الانحراف عن الخط المستقيم أو خط منحرف عن الخط المستقيم لأنه خروج عن اتجاه أو سير فى اتجاه مخالف للخط المنحرف عنه، ويتحدد أكثر بالأهداف والغايات المراد الوصول اليها أو تحقيقها، والانحراف عن الانحراف قد يكون انحراف جديد وقد يكون عودة الى الخط المستقيم الذى خرجت منه الانحرافات، وقد يكون متوازيا معه كما فى الشكل رقم (1) الذى يتكون من أ ب ، ج د ، هـ و ، هـ ع



الشكل رقم (1)

أ ب وهو الخط المستقيم (الطريق الصحيح لتنظيم المجتمع).

هـ و خط الانحراف من ج د الى أ ب وهو المنحرف عن الانحراف.

هـ ع خط الانحراف عن ج د والمتوازى مع أ ب وهوالمنحرف عن الانحراف.

ويتضح من **الشكل** رقم (1) أنه ليس بالضرورة أن يكون الانحراف سلبيا فالخط هـ و المنحرف عن ج د الى أ ب يعتبر عودة الى الخط المستقيم (الطريق السليم).

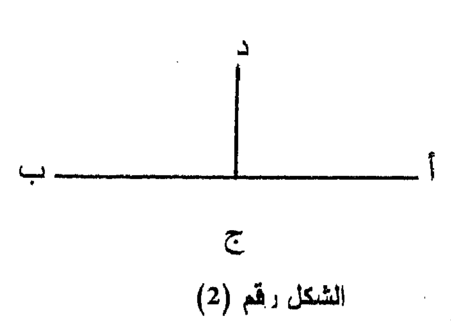
وبالمنطق الاجتماعي : يتضمن الانحراف عن الانحراف الأشكال الآتية:

أ - اذا كان الانحراف عن الانحراف من أجل التخلى عنه وعودة الى الأصل (الطريق المستقيم) المتكون من قيم المجتمع ودينه وثقافته وأصوله الخيرة التى تكوّن ناموسا اجتماعيا له، فإن هذا الانحراف يعد صوابا وينبغى التشجيع عليه.

ب - أما إذا كان الانحراف عن الانحراف تجديدا لأنواع انحرافيه أخرى أو السير فى متاهات متعددة تؤثر على نظم المجتمع وقيمه الخيره فيعد سلبيا ولا يمكن التحفيز أو التشجيع عليه.

ولتوضيح الفارق بين الانحراف الموجب والانحراف السالب نورد الأمثلة الآتية:

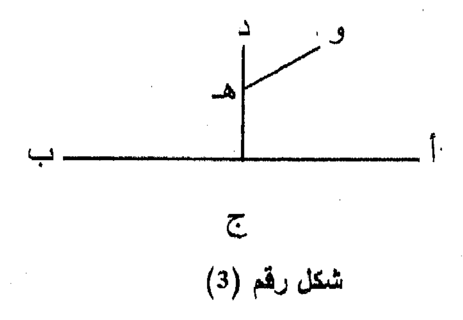
أ - يعتبر الخط المستقيم هو خط تنظيم المجتمع وفق أصوله الثقافية والحضارية المتضمنة لقيمه واعتباراته المتفق عليها اجتماعيا ومنبع قياساته المميزة بين الصواب والخطأ، مما يجعل السير وفقها صوابا والخروج عنها انحرافا. كما فى **الشكل رقم** (2) الذى يعتبر فيه الخط أ ب هو خط تنظيم المجتمع.



الشكل رقم (2)

ويعتبر فيه الخط د ج الانحراف عن الخط المستقيم (خط تنظيم المجتمع) ويوصف بالانحراف ويحتاج الى دراسة وتشخيص وعلاج من أجل عودته الى مكانة المجتمع واعتباراته لكى يؤدى وظائفه وواجباته مع ضمانة حقوقه التى قد يفقدها نتيجة انحراف.

ب - يعد المنحرف عن الانحراف منحرفا سواء كان فردا أو جماعة أو عينة دراسية كما فى **شكل رقم (3)** باعتبارها منحرفة عن الانحراف فى اتجاه معاكس لاتجاهات المجتمع.

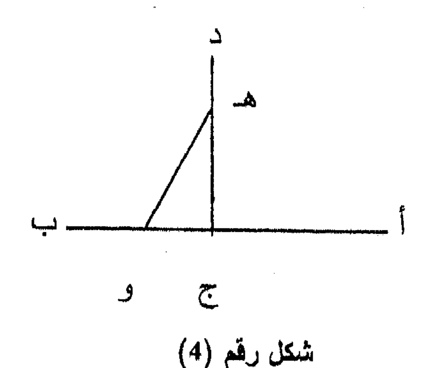


شكل رقم (3)

ويكون خط انحرافها هـ و المنحرف عن ج د (الانحراف) المنحرف عن خط تنظيم المجتمع أ ب مما يجعلها منحرفة مرتين : الأولى انحرافها عن المجتمع، والثانية انحرافها عن المنحرفين عن المجتمع.

ج - لا تعد العينة المنحرفة عن الانحراف منحرفة عندما يتوحد سلوكها مع سلوك المجتمع، واتجاهاتها مع اتجاهاته، وتعد فى نفس الوقت منحرفة عن السلوك الانحرافى لعدم توحد سلوكها معه، كما فى **شكل**

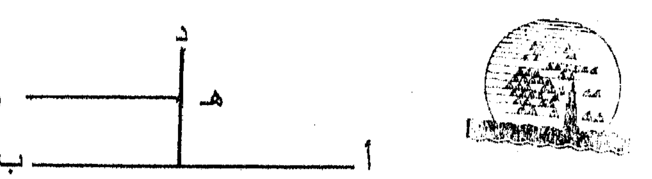
رقم (4) حيث يعتبر هـ و خروجا عن ج د وعـودة الـى أ ب، أى انحرافا عن الانحراف وعودة الى خط تنظيم المجتمع (الخط المستقيم) ويكون انحرافه فى هذه الحالة مرة واحدة. انحرافه عن الانحراف، واندماجه، وتوحده مع ضوابط المجتمع والتزامه بها .



شكل رقم (4)

ولكن إذا اعتبرنا أن الخط أ ب هو المجتمع بكاملة واعتبرنا ج د الأداة المتحكمة فى المجتمع وفق رؤاها المتعارضة مع رؤى المجتمع، فإن المجموعة المنحرفة عنها فى اتجاه رؤى المجتمع قد تعتبر منحرفة من وجهة نظر أداة التحكم وليست منحرفة من وجهة نظر المجتمع.

د - قد تكون العينة المنحرفة عن الانحراف فى خط متوازٍ مع الخط المستقيم (خط تنظيم المجتمع) كما فى شكل رقم (5) .



شكل رقم (5)

وفى هذه الحالة يكون الانحراف هـ و منحرفا عن الانحراف ج د ومتوازيا مع أ ب أى أنه لازال هناك انحراف عن المجتمع اضافة الى الانحراف عن المنحرفين فى اتجاه ج د ، وهذا التوازى مع أنه مستقل عن المجتمع وأساليب نظمه الخاصة به، فإنه قد يشكل خطرا عليه باعتباره لم يلتق معه أبدا مهما امتد، ولا أمل فى الالتقاء به بعكس المجموعات المنحرفة الأخرى، والتى لم ترسم طريقا أو تتخذ إتجاها متوازيا مع المجتمع بشكل يجعل أمل الالتقاء بينهم مستحيلا. فمهما تعددت الانحرافات أو اختلفت ولم تسر فى اتجاه متوازٍ مع المجتمع، فإنه من الممكن معالجتها وتصحيح مساراتها والعودة بها، أو جزء منها الى خط تنظيم المجتمع وأصوله الخيرة.

فإذا اعتبرنا أ ب مجتمعا عربية مسلما، له قيم وأخلاقيات، ودين يميزه عن غيره، وأن ج د مجموعة من المجتمع أ ب تتخذ الاتجاه الشيوعى، فأصبحت منحرفة عنه، وتنعت وفق رؤيتها الخاصة بالمنحرفة لعدم أصالة ما انتهجته من أفكار وتمارسه من سلوك.

وأنه بعد انهيار الشيوعية فى البلد التى اتصفت بريادتها أصبح الشك واضحا بين معتنقيها وعُرفوا أن السراب لا يمكن أن يكون ماء، فعاد أكثرهم الى البحث عن أمته وقيمها المميزة لها عن بقية الأمم، وبقى البعض الآخر يتخبط دون انتظام كحبات المسبحة بعد انقطاع الخيط الذى كانت تنتظم فيه، وإذا لم يعودوا الى مجتمعاتهم قد يسلكون أو ينتهجون اتجاهات جديدة ليس لها علاقة بأممهم أو الانسانية بشكل عام، مما يجعل السراب أمام عيونهم ماء ويكونون من المنحرفين.

وبناء على مـا تقدم ليس بـالضرورة أن تكون العينـة المنحرفـة عـن الانحراف غير منحرفة، أى أنها احتماليـة قد تكون منحرفـة وقد لا تكـون، وذلك حسب اختلاف اتجاهها مـن الاتجـاه المقاسـة عليـه. ولا يمكـن أن تمثـل العينة المنحرفة كل المنحرفين الذين لم يستهدفهم البحث لعدم وقـوع الاختيـار عليهم من ضمن أفراد العينـة.

خـطأ التحيـز :

الانحياز لا يعنى دائما الوقوف فـى الخطـأ، فالانحيـاز للحق وللعدل، وللحريـة صـواب، أمـا الانحيـاز للظلـم والمصلحـة الشـخصية علـى حسـاب الآخرين والأنانية خطأ، لا ينبغى أن يتصف بها المواطن ولا الباحث حتـى لا يفقد مصداقيته وموضوعيته العلمية. فإذا انحـاز البـاحث لمعرفتـه فـى اختيـار العينة التى لا تمثل إلا ذاتها فإن هذا الانحيـاز لا يؤثـر علـى العينـة ولا علـى المجتمع فى شيء، باعتبار أن نتائجها لا تتعلق الا بها. ويتخلص البـاحث مـن أخطاء التحيز بعدم تعميم النتائج المتحصل عليها من العينة على المجتمع التى أخذت منه، وتقتصر نتائجها فقط على عدد مفرداتها، والا سيكون اتهام التحيز والشك فى اختيارات الباحث دائم الاحتمال، فقد يتأثر البـاحث باتجاهـه الدينـى أو الفكرى وينحاز الى عينة أو أفراد منهـا، مـن أجل ابـراز الاتجـاه المنحـاز اليه، وهنا يقع خطأ التحيز مما يتطلب منه عشوائية الاختيار الـذى يبعـده عـن هذا الاحتمال، ومع ذلك قد يوصف بالتحيز إذا لم يتحصـل علـى البيانـات مـن جميع مفردات العينة المختارة عشوائيا أو لا عشوائيا نتيجة غيـاب جـزء منهـا واعتماده فقط على معلومات الجزء الذى استجاب للدراسة.

ولذلك ينبغى أن يكون إطار البحث شاملا لمجتمع الدراسة ومصـادره سواء أفرادا كانوا أو وثائق، حتى يكون التوزيـع الاحصـائى معتدلا ومتمشـيا

مع التوزيع الذى أخذت منه العينة التى يختلف حجمها حسب كل دراسة، ومن باحث لآخر، وحسب الامكانيات والظروف الخاصة بأهمية الموضوع، مع إن حجم العينة الصغيرة قد لا يتجاوز 30 مفردة حسب ما تصوره البعض من البحاث وأن لا يقل حجم العينة الكبيرة عن 100 مفردة.

وبتصورنا أن العينة لا تمثل إلا ذاتها، فإن تحديد هذه النسبة أصبح لا يمثل نقطة ثبات فى اجراء الدراسات والبحوث العلمية.

خطأ الصدفة أو التعيين :

بما أن هدف الباحث من اختيار العينة تعميم نتائجها على المجتمع الذى اختيرت منه فإنه بالضرورة أن يقع فى أخطاء متعددة بالمصادفة أو بالتحيز أو أخطاء المعلومات المتحصل عليها من العينة سواء كانت عشوائية أو غير عشوائية، ومهما صغر حجم العينة أو كبر، فإن الفروق الفردية ستصاحبها مع اعتبارنا للعلاقة العكسية بين حجم العينة ونسبة الأخطاء الناتجة عن التعيين، أى كلما زاد حجم العينة قلت الأخطاء، ونظرا لوجود فروق فردية بين أفراد العينة والمجتمع فإن أخطاء التعيين دائمة الوقوع مع تغير نسبتها من حين لآخر، مما يجعل متوسط القيم فى العينات المختارة مختلفا عن المتوسط العام فى المجتمع، وإذا اقترب متوسط قيم العينة أو ابتعد عن متوسط القيم فى المجتمع فقد يكون للصدفة دور فى ذلك. وهذا يجعلنا نضع اعتبارا لهذه الفروق لكى نتجنب خطأ الصدفة، وذلك بدراسة كل مفردة بما تمتاز به عن غيرها، وبما تشترك به مع غيرها، لأن الفروق الفردية حقيقة ينبغى اعتبارها والوقوف عندها فى دراسة الحالات والظواهر والمواقف والاتجاهات الفردية والجماعية، لأنه من الممكن أن نساوى بين الأفراد فى الحقوق والفرص العامة، لكن من غير الممكن أن نساوى بينهم فى

الاستعدادات، والقدرات، والطموح، والمهارات التى تعتبر ميزة خاصة قد تقترب أو تبتعد عن المتوسطات مصادفة، ولكنها لا تتطابق مع قيم المجتمع مع احتمال اقترابها منها مصادفة، وهذا يجعلنا نبتعد عن تعميم نتائج العينات على المجتمع لأن العينة تتكون من أفراد، ولكل فرد خصوصياته التى تميزه عن غيره، مثل البصمات، لكل فرد بصمات لا يمكن أن تتكرر عند آخر، ولذلك مهما كبرت عينة دراسة البصمات لا يمكن أن تمثل المجتمع، ولا حتى العينة، لأن لكل مفردة بصمات تختلف عن الأخرى، حتى وإن درسنا المجتمع بكامله واستثنينا شخصا واحدا منه فإن المجتمع لا يمثله فى بصماته، وهكذا فى استعداداته، وقدراته، ودوافعه، ودرجة تحمله وطموحاته. ولذلك اختيار مفردات معينة بمحض الصدفة وحرمان آخرين من هذا الاختيار يحقق أخطاء التعيين.

ولهذا العينة لا تمثل إلا ذاتها ولا يمكن أن تمثل المجتمع.

أخطاء التوقع المصدرى :

إن الاحتمال دائم التوقع فى دراسة الظواهر والمشاكل مما جعل البحاث يعتمدون فى دراساتهم نسب الأخطاء المقبولة وغير المقبولة من أجل إعطاء مصداقية لتوقع ظهورها أثناء الدراسة، وعدم المفاجأة بنتائجها، سواء كانت بأسباب غموض الاستمارة أو غموض بعض أسئلتها. أو لأسباب غياب أو تهرب بعض أفراد العينة، أو نتيجة أسلوب المقابلة أثناء جمع وتفريغ وتحليل البيانات.

أهم مصادر أخطاء التوقع هى :

1- المفاهيم واللغة المكتوبة :

قد يستعمل بعض البحاث مصطلحات علمية كالدور، والموقف، والباعث، والحافز، والدافع، والقيم دون تحديد مفاهيمها وفق أهداف البحث أو

الدراسة، والتى قد تتداخل حدودها عند بعض المدروسين (العينة) فتكون الاجابات منحرفة عن أهداف البحث ويبرز التباين بين مفرداتها، وذلك لأسباب علمية وثقافية ناتجة عن عدم تحديد المفاهيم من قبل الباحث وغموضها لدى بعض المبحوثين. وقد تكون الاستمارة مكتوبة بلغة تحتاج كلماتها أو بعض أسئلتها الى تفسير لأنها قد تحمل أكثر من معنى، مما يساعد على ارتكاب أخطاء أثناء الاجابات عليها، والذى يحاول الباحث معالجته باختبار استمارة المقابلة أو الاستبيان على مجموعة من أفراد مجتمع الدراسة لتفادى الأخطاء أو التقليل منها بقدر الامكان، ومع ذلك قد تظهر بعض المفاهيم غير واضحة، أو هناك لبس فيها أثناء جمع المعلومات من عينة الدراسة، وفى هذه الحالة تكون العينة الاختبارية للاستبيان مصدرا غير جيد للتأكد من سلامة الاستبيان قبل تعميمه على العينة. ولهذا تكون العينة الصغيرة (الاختبارية) للاستمارات لا تمثل عينة الدراسة فى قياس أداة جمع البيانات ولكنها تساعد على تقليل أخطاء الاستمارة فقط .

2- **التقبـــل :**

يعتمد مبدأ التقبل على الأسلوب المتبع فى الدراسة والتشخيص والعلاج للعينة عن طريق اجراء المقابلة الفردية أو الجماعية. وتعود أخطاء التقبل لكلا الطرفين الباحث والمبحوثين حسب الآتى :

أ - الباحث :

إذا لم يتقبل الباحث المبحوث أو المبحوثين فإنه يفقد ثقتهم فيه، واذا فقد ثقتهم فيه فإنهم لن يستجيبوا له كما يتوقع، فإذا كانت عينة الدراسة من المنحرفين وكان نوع انحرافهم سرقة، وكان بعضهم يعانى من التأتهة، والبعض الآخر سريع الاجابة لدرجة إدغام

بعض الكلمات، فعلى الباحث أن يتقبل حالتهم بشكل عام، ولا يشعرهم بالدونية، وأن يتسع صدره لدرجة فهم ما يقصدونه دون قلق أو اشمئزاز. وإذا أحس بعض المبحوثين عدم تقبل الباحث لهم فإن الاجابات التى يود أن يتحصل عليها الباحث تكون محفوفة بأخطاء التقبل، وقد يمتنع البعض عن الاجابة عليها نهائيا.

ب - المبحوثون :

إن للمبحوثين ظروفهم الخاصة بشكل فردى أو جماعى أحيانا وإذا لم يراع الباحث هذه الظروف فإنه قد لا يقبل لديهم.

فإذا حاول الباحث جمع بياناته أثناء فترة الامتحانات (إذا كانت العينة المدروسة من الطلبة) فقد لا يتم قبوله من قبلهم أو لا يستجيبون لمواعيد مقابلته، أو يتعمدون اعطاء أى بيانات وبشكل سريع لا تحقق غرض الباحث من بحثه، وإذا كان زمن المقابلة فى ظرف صحى غير جيد أو أثناء وفاة أحد أقرباء المبحوث، والذى يجعل عدم تقبله للباحث له مبرراته المنطقية، وإذا لم يوضح الباحث الغرض من اجراء دراسته أو بحثه، أو لم يتواضع مع المبحوثين فإنهم لن يتقبلوه بالشكل الذى يحفزهم على التعاون معه مما يجعله يقع فى خطأ عدم التقبل.

أخطاء متعمدة :

قد يتعمد بعض من أفراد العينة اعطاء معلومات غير صحيحة لأسباب تتعلق بموضوع الدراسة، فى حالة إثارته لحساسيات أخلاقية أو سياسية أو فكرية أو دينية، أو نتيجة توقع العينة لنتائج الدراسة وما يترتب

عليها من اجراءات يعتقدون أنها ضد مصالحهم وذلك حسب طبيعة الدراسة وأداة جمع البيانات (1).

خطوات اختيار العينة :

1- تحديد وحدة الاهتمام (وحدة العينة):

ترتبط خطوات البحث الاجتماعى بعضها ببعض فى انسجام علمى بشكل يسهل على المتخصصين مراجعتها وتقييمها، وتجعل للموضوع وحدته المميزة له عن غيره من المواضيع. مما يجعل تحديد وحدة الاهتمام خطوة من خطوات اختيار العينة التى ينبغى أن يقوم بها الباحث قبل اختياره للعينة، وهذه الوحدة قد تكون مؤسسة، أو فردا، أو جماعة، أو أسرة، أو مزرعة، أو مصنعا، أو انتاجا مع تحديد المواصفات الهامة لكل وحدة بحثية، ونوع هذه الوحدة، ذكرا أم أنثى أم الاثنين معا، وتحديد المرحلة العمرية أحيانا فى حالة اقتصار الدراسة على سن معينة. ولهذا تظهر أهمية تحديد الزمان والمكان، وأسباب الاختيار عند تحديد مفردة العينة وخاصة فى الدراسات والبحوث المقارنة سواء كانت فى العلوم الاجتماعية أو الطبيعية.

2- تحديد مجتمع البحث :

وهو الاطار المرجعى للباحث فى اختيار عينة البحث، وقد يكون هذا الاطار مجتمعا كبيرا،وقد يكون مجتمعا صغيرا،وقد يكون الاطار قوائم أسماء أفراد، أو مدارس، أو معسكرات أو قرى ومحلات، ولكل منها طبيعة تميزها

---

(1) مصطفى عمر التير، مقدمة فى مبادىء وأسس البحث الاجتماعى، مصراته: دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، الطبعة الأولى، 1980م. ص 104.

عن غيرها ينبغى أن تراعى عند الاختيار، فإذا كانت وحدة العينة مدرسة فيكون مجتمع العينة هو كل المدارس فى الدولة أو القرية أو المنطقة الجغرافية المستهدفة بالدراسة. واذا كان مجتمع البحث هو سكان المحلة فتكون المفردة فيه هى الأسرة. وإذا كان الاطار المرجعى هو قوائم أسماء سكان القرية فتكون المفردة الفرد ذكرا أو أنثى أو كليهما . ويجب أن يراعى الباحث أهمية حداثة القوائم حتى يتفادى بعض الأخطاء التى قد تصادفه فى الاختيار، نتيجة انتقال أحد المواطنين من قرية الى أخرى أو من القرية الى المدينة، أو نتيجة وفاة أحد المواطنين ولم يتم شطبه من القوائم. وإذا كان مجتمع البحث هو كل رياض الأطفال البالغ عددها 500 روضة ونسبة العينة 10٪ فيكون حجم المجتمع 500 روضة (الاطار المرجعى) وحجم العينة هو 50، والمفردة البحثية هى الروضة الواحدة.

3- تحديد حجم العينة :

يختلف حجم العينة من دراسة الى أخرى، ومن باحث الى آخر، وذلك حسب ما يعتمده الباحث من أخطاء، يحتمل أنها مقبولة، كما جرت العادة، ولتكن 5٪ من حجم العينة، معتبرا أن 95٪ درجة الثقة أو مستوى الدلالة الذى ينبغى أن يتمحور حوله البحث.

وقد يحدد الباحث حجم العينة بنسبة 5٪ من حجم المجتمع فتصبح العينة التى تساوى 5٪ يقبل لها خطأ يساوى 5٪ لكى تكون درجة الرضا عنها عالية. أى بما أن الباحث قد يخشى أن يضيع جهده إذا زادت نسبة الخطأ عن 5٪ حسب اعتماده لها فيضطر أن يروم أفراد العينة الى استفسارات الاستبيان بما يجعل استجاباتهم لا تحمل أخطاء تزيد عن 5٪ قدر الامكان، فيلجأ الى تجريب استمارة الاستبيان على عينة صغيرة العدد قبل تعميمها على عينة

الدراسة، ثم بعد ذلك يعتمد نسبة الخطأ ودرجة الثقة التى يتم فيها تغييب 95٪ من المجتمع عن الدراسة والبحث.

ونتساءل كيف يمكن أن يكون البحث علميا فى دراسة المجتمعات وهى غائبة بنسبة 95٪ عن البحث؟. إن غياب هذه النسبة يعنى غياب 95٪ من الحقائق، وإذا كان كذلك هل الاعتماد على 5٪ من الحقائق يجعل الثقة ومستوى الدلالة جيدا أو مرتفعا جدا؟ ولأن كل مفردة من المفردات التى حددها الباحث ذات دلالة فى درجة الثقة، أو الخطأ المحتمل، فإن كل مفردة تعبر عن حقيقة ترتفع نسبة الخطأ فيها أو تقل حسب الظروف وأهمية الدراسة وأهدافها ودرجة التقبل بين الباحث والمبحوثين. ولهذا اعتبرنا أن كل مفردة فى المجتمع المستهدف بالبحث أو العينة حقيقة. وعليه يعتبر استبعاد 95٪ من المجتمع هو استبعاد هذه النسبة من الحقائق إذن 5٪ فى الدراسات والبحوث الاجتماعية لا يمكن أن تمثل 95٪ من المجتمع، وبما أن تحديد حجم العينة يعتمد على نسبة الخطأ فيها إذن كيف يمكن أن تمثل المجتمع أحسن تمثيل؟.

وبناء على ما تقدم ألم تكن طرق البحث وليدة نظرية أحسن تمثيل فى العلوم السياسية حيث نجد البرلمانات والمجالس النيابية التى تتكون من أعداد محدودة من الأفراد تؤسس من أجل مهمة تمثيل الملايين من الشعوب، وتعتبر عينة مختارة عن طريق الاقتراع السرى والتنافس، وأحيانا الصراعى الدامى والذى دائما يفوز فيه الأقوياء (عسكريا، أو ماديا، أو اجتماعيا).

أم أن طرق البحث تعتمد على العينات فى تمثيل المجتمعات وجعل حجم العينة يختلف من باحث الى آخر، كما يختلف عدد أعضاء المجالس النيابية من حكومة الى أخرى، والذى يرجع تحديدها أحيانا الى رأى الحاكم وتقدير وجهات نظره، وهكذا العينة، يعود فى النهاية أمر تحديدها الى الباحث بما يجعله مسيطرا على بحثه وحتى إن اعتمد على الاحصاء فى تحديد حجم

العينة عن طريق الانحراف المعيارى، فإنه لم يستطع الحصول على المتوسط الخاص بالمجتمع إلا إفتراضا بأن المتوسط الحسابى للعينات يساوى المتوسط الحسابى للمجتمع وهذه مسألة افتراضية قد تتباين وجهات النظر فيها.

ولا ننسى أهمية الزمن المحدد للدراسة، فإذا كان الزمن قصيرا أو طويلا فإنه يؤثر على الباحث فى تحديد حجم عينته، وإذا كانت التكاليف المادية متوفرة قد تسمح للباحث بالتوسع فى اختيار العينة، وإذا كانت محدودة فإنها لا تعطيه المرونة الكافية فى الاختيار.

اختيار العينة :

ليس كل العينات لا تمثل ما أخذت منه، فالعينة فى العلوم الطبيعية هامة وتمثل ما أخذت منه عندما تراعى الخطوات العلمية فى اختيارها، أما فى العلوم الاجتماعية يشك كثيرا فى النتائج المتوصل لها عن طريق العينة لأسباب ذكرت فيما سبق، مما يجعل تعميمها على المجتمع مسألة تعسفية، ويجعل اتباع خطواتها المألوفة شيئا من الروتين، ولا داعى للتقيد بها، إذا كان القصد هو تمثيل المجتمع، ولا داعى أيضا الى اشتراطاتها، إذا كان القصد من اختيارها التعرف على أثر المتغيرات الاجتماعية على الأفراد، ودرجة التباين التى تحدثها بينهم، وتكون النتائج المتوصل لها عن طريقها افتراضات لدراسة المجتمع، أو مؤشرات لدراسات أخرى، ومهما كبر حجم العينة فإنها لا تمثل المجتمع الانسانى تمثيلا جيداء أو سيئا ، وإذا سلمنا بأنها قد تمثل المجتمع تمثيلا جيدا أو سيئا فإننا اعترفنا بدور الحظ فى نتائجها. أى يكون الباحث جيد الحظ إذا كان التمثيل جيدا، ويكون سىء الحظ إذا كان تمثيلها للمجتمع سيئا. إن الحظ، والصدفة لا تؤسس عليهما الدراسات العلمية الجادة ولا ترسم

عليهما الخطط الناجحة. لأن المجتمع لا يمكن أن يتوحد جميع أفراده في الصفات، والقدرات، والاهتمامات.

إذن لماذا نقبل بتمثيل العينة للمجتمع؟ وهل قبولنا لها من أجل حل مشكلة العينة، أم مشكلة المجتمع؟. فإذا كان من أجلها فلا داعى لتعميم نتائجها على من لم تجر عليهم الدراسة، وإذا كان من أجل المجنمع فالمجتمع لم يغب لتمثله العينة، ويبرر البعض ذلك بصعوبة دراسة المجتمع كله، ومع ذلك يتفق الجميع بأن دراسة المجتمع كله هوالعلم التام، أما دراسة العينة فلم تكن كذلك.

ويقول مصطفى التير (قد يكون من المستحيل تواجد مجتمع يتشابه أفراده في جميع الصفات)(2).

ولهذا نتساءل لماذا لم يتجه البحاث والعلماء الى البحث عن وسائل تمكننا من تذليل صعاب دراسة المجتمع، لنصل الى العلم التام؟. ولماذا إنعكفوا على دراسة العينات وهم يعرفون بأن نتائجها في العلوم الاجتماعية والانسانية قاصرة، ولم تكن علما تاما؟. مما جعلنا نصل الى النتيجة القائلة أن العينة لا تمثل إلا نفسها.

وأذا أردنا أن تكون دراسة العينة منطلقات أو مؤشرات أو فروضا لدراسات أوسع فيمكننا أن نستفيد من اتباع طرقها الآتية :

1- العينة العشوائية :

هي التي تتساوى فيها فرص الاختيار بين أفراد المجتمع مصدر العينة، ووفق أسس علمية لا مكان للإنحياز فيها أثناء الاختيار، وكل مفردة في المجتمع المستهدف قد تكون من ضمن الذين يقع عليهم الاختيار أمام الفرص المتساوية.

---

(2) المرجع السابق ، ص 98.

فإذا كان حجم المجتمع 5000 وحدة، ونسبة العينة العشوائية 5٪.

$$\text{يكون حجم العينة} = \frac{5 \times 5000}{100} = 250 \text{ مفردة.}$$

وبهذا يكون للعينة المتكونه من 250 مفردة لكل واحدة منها فرصة

$$= \frac{1}{5000}$$

ويتم الاختيار بتسجيل أسماء كل المجتمع المستهدف بالبحث فى قوائم لسهولة مراجعتها. ثم يسجل كل اسم فى قصاصة ورق وتوضع فى مكان واحد مجمعة، وتحرك، ثم يبدأ سحب قصاصات العينة 250 مفردة، وتعاد كل قصاصة بعد اختيارها عشوائيا الى المكان الذى سحبت منه بحيث تكون فرص الاختيار ثابتة $\frac{1}{5000}$، وإذا تكرر سحب أى مفردة لا تسجل مرتين وتعاد ثانية الى نفس مكان تجمع القصاصات.

هذه الاجراءات تتم وفق المنظور الاحصائى الذى يتعامل مع أرقام، ولكن بالمنظور الاجتماعى قد لا يحدث، وبالتالى يظهر الاختلاف مع هذا الأسلوب عندما نتعامع مع الانسان، فلو أعدنا المفردة ثانية للمكان الذى جمعت فيه المفردات، فإننا أتحنا فرصا أقل لاختيار بقية المفردات (العينة) لأن حجمـــــها أصبح أقل ونسبة المجتمع أصبحت أكثر زيادة لأن 5٪ = أى كل 20 من حجم المجتمع تمثلها مفردة واحدة من حجم العينة وكل 5 مفردات من حجم العينة تمثل 100 مفردة من حجم المجتمع، وحتى إذا لم نعد المفردة التى تم اختيارها عشوائيا الى صندوق أو مكان تجميع المفردات المستهدفة بالاختيار ، فإن عدد أفراد المجتمع المتبقين أصبح أكثر بالنسبة للمتبقى من أفراد العينة أذا اعتمدنا على نقص مفردة واحدة من المجتمع مقابل مفردة واحدة من أفراد العينة.

فعند سحب مفردة واحدة من المجتمع يصبح العدد المتبقى 4999 مفردة، ويصبح عدد مفردات العينة واحدة فقط وهكذا كلما زاد عدد أفراد العينة قل عدد أفراد المجتمع من الناحية الرقمية. والجدول الآتى يبين ذلك:

جدول رقم (1)

حجم المجتمع قبل الاختيار	حجم العينة المستهدفة بالاختبار	حجم المجتمع بعدالاختيار	عدد مفردات العينةالمختارة
5000	250	4999	1
		4998	2
		4997	3
		4996	4
		4995	5
		4994	6
		4993	7
		4992	8
		4991	9
		4990	10
وهكذا الى أن نصل الى		**4750**	**250**

ولتوضيح الخطأ الذى وقع فيه البعض من البحاث وأساتذة علم الاجتماع أنهم يعتبرون إعادة المفردات التى تم اختيارها من صندوق القصاصات تحافظ على ثبات نسبة الاختيار أمام جميع أفراد المجتمع، ومنطقيا ليس كذلك، لأن اختيار مفردة واحدة يعنى انتهاء 20 فرصة، لأن فرصة المفردة الواحدة $=\frac{1}{20}$ بناء على نسبة العينة المحددة 5٪. ولهذا ينبغى ابعاد 19 تسعة عشرة مفردة الى جانب المفردة المختارة للعينة بحيث تكون الفرص متساوية أمام جميع مفردات العينة المتبقية وبنفس الكيفية. مثال **الجدول رقم (2)**.

جدول رقم (2)

حجم المجتمع قبل الاختيار	حجم العينة المستهدفة بالاختبار	حجم المجتمع بعدالاختيار	عدد مفردات العينةالمختارة
5000	250	4980	1
		4960	2
		4940	3
		4920	4
		4900	5
		4880	6
		4860	7
		4840	8
		4820	9
		4800	10
وهكذا الى أن نصل الى		—	**250**

إلا أن الصعوبة التى تواجهنا هنا هى كيف نستطيع أن نحدد المفردات التى تساوى النسبة المئوية المختارة؟. فإذا اخترنا مفردة واحدة من حجم العينة 250 وفق النسبة المحددة للاختيار وهى 5٪ فإن هذا يعنى أن من بين كل عشرين مفردة من المجتمع يتم اختيار واحدة فقط. وعليه ينبغى أن يتم ابعاد تسعة عشرة مفردة من المجتمع عن الاختيار، وتكون الكيفية المقترحة هو بعد اختيار كل مفردة من المجتمع يتم استبعاد بقية الوحدات وفق النسبة المئوية المعتمدة من قبل الباحث عشوائيا، أى يستعمل الباحث طريقتين عشوائيتين فى وقت واحد، الأولى لاختيار مفردات العينة، والثانية لاستبعاد المفردات المكملة للأعداد وفق النسب المحددة لتكون الفرص متساوية فى الاختيار. أى استبعاد 19 مفردة عشوائيا بعد اختيار كل مفردة مساوية $\frac{1}{20}$

كما هو فى المثال السابق حسب طول الفترة المحددة، أو أن يقسم المجتمع على حجم العينة عشوائيا ليتم اختيار مفردة واحدة عشوائيا عن كل تجمع وفق الناتج من التقسيم.

مثال :

$$\frac{\text{عدد أفراد المجتمع}}{\text{حجم العينة}} = \frac{5000}{250}$$

$$\text{حجم التجمع} = \frac{5000}{250} = 20$$

$$\text{عدد التجمعات} = \frac{5000}{20} = 250 \text{ تجمع}$$

أى يتم اختيار مفردة واحدة عشوائيا عن كل تجمع تم توزيعه عشوائيا.

أو أن يتم اختيار جميع أفراد العينة مرة واحدة دون ارجاع مفردة تم اختيارها وذلك عن طريق السحب المستمر الى أن يتم الحصول على حجم العينة المطلوبة، ثم تسجيل الأسماء المسحوبة عن طريق الاختيار العشوائى. وهذه الطريقة تقلل من الأخطاء ولا تتضمن أى أسلوب للتحيز باعتبار أن التعامل يتم مع قصاصات وليس مع أسماء.

وهناك طريقة أخرى للاختيار العشوائى وهى طريقة الجداول العشوائية التى تتكون من مجموعة أرقام يتم اختيارها أفقيا أو عموديا أى تعطى أرقام للأسماء وتوضع الأرقام منفصلة فى جدول خاص بها بعيدة عن ايجاد علاقة مباشرة مع الأسماء حيث تصبح الأرقام سرية كما يتم فى دوائر الامتحانات المركزية، فيتم التعامل أثناء تصحيح أوراق الامتحانات للطلبة مع أرقام سرية حتى لا يحدث تحيز لبعض الطلبة من بعض المصححين.

مثال :

نفترض أن حجم المجتمع المستهدف باختيار العينة منه مجتمع الطلبة بكلية العلوم الاجتماعية والبالغ عددهم 6000 طالب وطالبة وأن نسبة العينة = 10٪ ، فيكون حجم العينة = 600 طالب وطالبة.

ولاجراء عملية الاختيار عن طريق الجداول العشوائية نتبع الخطوات الآتية :

أ - الحصول على قوائم جميع الطلبة البالغ عددهم 6000 .

ب - أن يعطى لكل اسم رقما متسلسلا من 1 - 6000 .

ج - تحدد أرقام الجدول العشوائى وفق الخانات المكونة له، وهى أربعة خانات كما هو فى المثال وهو 6000 .

د - يبدأ الاختيار العشوائى للعينة 600 عن طريق وضع الأصبع على أى رقم، ويسجل أولا بأول وإذا تكرر أى رقم فلا يسجل، وإذا كانت أرقام الجدول الاحصائى أكثر من أرقام المجتمع المستهدف بالدراسة فأيضا لا تسجل الأرقام التي يقع عليها الاختيار العشوائى.

عيوب العينة العشوائية :

1- التكرار الذى يقع أثناء الاختيار والذى لا فائدة منه، الا تضييع الوقت.

2- أخذ أرقام قد لا تكون من المجتمع المستهدف بالدراسة أثناء الاختيار للعينة عن طريق الجدول العشوائى، وهو أيضا تضييع للوقت كأن يكون حجم المجتمع 6000 ويقع الاختيار على الرقم 8500 وبالتالى لا يسجل هذا الرقم لأنه أكثر من 6000 وليس له مثيل فى كشف الأسماء ولهذا لا يسجل.

3- خطأ المصادفة: قد يقع الاختيار العشوائى على عينة لا تعكس واقع التركيبة الاجتماعية كأن تكون العينة فى معظمها من الطلاب مع أنهم أقل نسبة من الطالبات كما هو الحال فى كلية العلوم الاجتماعية. فإذا كان حجم العينة كما فى المثال السابق 600 طالب وطالبة، وكان الاختيار للعينة العشوائية وفق النسبة التالية 50٪ ذكور (طلاب) و 50٪ إناث (طالبات) ونحن نعلم أن نسبة الذكور (الطلاب) فى كلية العلوم الاجتماعية لا تزيد عن 20٪ أى عدد الطلاب = 1200 طالب. فهل الاختيار العشوائى الذى كانت نسبته 50٪ تمثل المجتمع الذى أخذت منه؟.

4- أخطاء الترجيع لأن أسلوب التعامل مع الأرقام يختلف عن أسلوب وكيفية التعامل مع الانسان، فالاحصائى دائما يتصور كما وأرقاما ونسبا. أما الاجتماعى والانسانى فدائما يتصور بشرا ولهذا قد لا يتفق المنطق الاحصائى مع المنطق الانسانى والاجتماعى، وعليه ترجيع القصاصات الى المكان الذى سحبت منه عند تكرارها لا يشكل عبئا على القصاصة وإن أخذت وقتا أكثر من الباحث فى فرز عينة البحث. ولكن لو وجد هذا الترجيع للفرد (الانسان) ألا يعد مشكلة له وللباحث؟. لأنه يعرف أن ترجيعه ضياع لوقته وجهده وللباحث أيضا، أى أنه يحس بالملل، ولا يتحفز للمشاركة مرة ثانية أذا وقع عليه الاختيار فى دراسة أخرى، وبالتالى فإن هذه الطريقة قد تفيد فى التعامل مع أرقام، أو أى كم، أو مع الحيوانات والطيور، لكنها لا تفيد فى التعامل مع البشر (الناس)، لأنها تتعامل مع الآخرين وكأنهم لا يفهمون، أو أنهم على خشبة مسرح لاجراء تمثيلية الفرز العشوائى. والتى أذا تمت يمكن أن يطلق عليها الفرز العشوائى وليست الاختيار العشوائى.

2- العينة المنتظمة :

هى العينة التى يتم اختيارها وفق تنظيم المجتمع المستهدف بالدراسة فى قوائم وأرقام منظمة لا تسمح بالتكرار فيها لأى مفردة منها.

ويتم اختيار المفردة الأولى من المجتمع عشوائيا، ثم بعد ذلك يتم اختيار بقية المفردات حسب طول المسافة المحددة من قبل الباحث بانتظام.

ويحدد الباحث نسبة العينة وحجمها بعد تحديد حجم المجتمع وتسجيله فى قوائم تحمل أرقاما متسلسلة تسهل عليه اختيار عينة البحث دون لبس أو غموض أو تكرار.

فإذا كان حجم المجتمع على سبيل المثال 4000 مفردة

ونسبة العينة 5٪ .

$$\text{فإن حجم العينة} = \frac{\text{حجم المجتمع} \times \text{نسبة العينة}}{100} = \frac{5 \times 4000}{100} = 200$$

$$\text{وطول المسافة} = \frac{\text{حجم المجتمع}}{\text{حجم العينة}} = \frac{4000}{200} = 20$$

فيكون الاختيار مفردة واحدة من كل 20 مفردة، ويكون اختيار المفردة الأولى عشوائيا من المجتمع، فإذا وقع الاختيار على رقم 4 فإن الاختيار يكون وفق ثبات طول المسافة المحددة وهى 20 أى يتم اختيار 4، 24، 44، 64، 84 وهكذا، الى أن يتم استعراض أسماء، أو أرقام كل المجتمع، والذى يؤدى بالباحث للحصول على حجم العينة 200، ولكن قد يقع الاختيار العشوائى للمفردة الأولى على الرقم 4000 فيكون الاختيار المنتظم تنازليا 4000، 3980، 3960، 3940، 3920، حتى نصل الى اختيار آخر مفردة وهى رقم 20 المتممة لحجم العينة 200.

وقد يكون الاختيار تنازليا وتصاعديا فى وقت واحد، وذلك فى حالة وقوع الاختيار العشوائى على الرقم 3000. بما أن طول المسافة ثابتة 20 فإن

الحصول على حجم العينة = 3000 +- 20 الى آخر مفردة وفق طول المسافة المحددة فتكون المفردة الأولى رقم 3000، والثانية فى حالة الزائد 3020، 3040، 3060، الى نهاية أرقام حجم المجتمع. وفى حالة الناقص تكون المفردة الأولى 3000-20 الى 2980، 2960، 2940 الى نهاية حجم العينة وفق انتظام طول الفترة +- 20.

وهناك طريقة أخرى يمكن اتباعها، وهى أيسر.

مثال :

اذا وقع الاختيار على المفردة رقم 100 عشوائيا وهى المفردة الأولى المستهدفة بالاختيار العشوائى فإنه ينبغى على الباحث تحديدها وفق الرزمة أو المجموعة التى تقع فيها وحسب طول المسافة.

فى المثال السابق حجم المجتمع = 4000

حجم العينة = 200

نسبة العينة = 5٪

وحجم الرزمة الواحدة أو المجموعة الواحدة يساوى 20 وهى طول المسافة.

إذن على الباحث أن يحدد أولا موقع المفردة التى تم اختيارها عشوائيا فى أية رزمة وذلك بتقسيم الرقم الذى وقع عليه الاختيار العشوائى على حجم الرزمة أو طول المسافة.

$$5 = \frac{100}{20}$$

أذن المفردة الأولى تقع فى الرزمة رقم 5 وهى الرقم الأخير فيها، وهو الرقم 100، لذلك وفق طول المسافة فإننا بالامكان الرجوع الى اختيار آخر رقم فى المجموعة الأولى وهو رقم 20، 40، 60، 80، 100، 120 الى آخر اسم أو رقم فى المجتمع والذى يمكنا من الحصول على حجم العينة 200.

ان الاختيار وفق خطوات العينة المنتظمة يبعد الانحياز لأى مفردة فى المجتمع أو ميولا قد يتهم الباحث فيه بالشخصانية ومع ذلك لها عيوب ينبغى تفاديها.

عيوب العينة المنتظمة :

فى حالة تقسيم المجتمع الى فئات ووفق صفات تجعل الباحث يوزع الأرقام أو يرتبها على هذا المنوال فيقع فى العيوب الآتية :

1- عيوب التصنيف (الترتيب) النوعى :

فإذا سجل الباحث أسماء المجتمع وفق تقسيمه له الى رزم أو مجموعات، واعطاء الأرقام الأولى للذكور والأرقام الثانية للاناث، ووقع الاختيار على الرقم الأول فى الرزمة الأولى فإن العينة التى سيتم اختيارها تكون جميعها من الذكور.

مثال :

اذا استهدف الباحث دراسة عينة من طلبة الجامعة البالغ عددهم 20.000 طالب وطالبة بنسبة 2٪. حول موضوع (أهمية التحجب فى الاسلام) واعطاء الباحث الأرقام الأولى للذكور والأرقام الثانية للاناث فى كل مجموعة متكونة من 50 ووقع الاختيار العشوائى للمفردة رقم 10 فإن المفردة الثانية ستكون 60 والثالثة 110 وهكذا، فتكون النتيجة أن العينة التى تم اختيارها كلها من الذكور، فهل هذه العينة تمثل المجتمع الذى أخذت منه؟. وهل تكون اجاباتها موضوعية؟. خاصة وأن المتحجبات لم يقع الاختيار عليهن.

2- عيوب التصنيف الدينى :

والذى يحدث عندما يعطى الباحث الأرقام الأولى فى كل رزمة (مجموعة) الى دين معين، وبقية الأرقام للأديان الأخرى .

مثال :

إذا أراد الباحث دراسة العلاقات الروحية بين الأديان، وأعطى الأرقام الأولى للذين يدينون بالمسيحية واليهودية، وأعطى الأرقام الأخيرة للذين يدينون بالاسلام فى كل مجموعة، وكان الاختيار العشوائى للمفردة الأولى من الأرقام الأولى التى انتظمت فيها ترتيب القوائم حسب كل مجموعة للديانة المسيحية، فإن كل العينة ستكون من المسيحيين، وهذه العينة لا تجيب على استفسارات استمارة دراسة الموضوع الذى حدده الباحث. وهناك عيوب أخرى كثيرة، لا يمكن الحديث عنها كلها في هذه العجالة، وهذه العيوب مثل:

3- عيوب التصنيف الاقتصادى.
4- عيوب التصنيف الاجتماعى.
5- عيوب التصنيف العمرى أو الزمنى.
6- عيوب التصنيف الجغرافى.
7- عيوب التصنيف السياسى.

3- العينة الفئوية :

يتكون المجتمع من مجموعة فئات تتميز عن بعضها بنوع المهنة أو الحرفة أو الوظيفة ولكنها تلتقى حول المهام العامة كتأدية الحقوق والواجبات الفردية والجماعية والمجتمعية، مما يستوجب على الباحث أثناء دراسة المجتمع أو اختيار عينة منه مراعاة هذه الفئات ونسبتها فى المجتمع لتبيان دورها من خلال متغيرات المهن، والحرف والوظائف التى تؤديها.

ولكى تعطى العينة ملامح أو مؤشرات تحفز على دراسة المجتمع ينبغى أن يراعى الباحث فى اختيار العينة الفئات المكونة للمجتمع ونسب وجودها فيه. مثلا لو افترضنا أن المجتمع المستهدف بالدراسة يتكون من الفئات ونسبها التالية:

المحامون	٪ 5
الطلبة	٪30
المدرسون	٪10
الفلاحون	٪20
الصناع	٪15
النجارون	٪ 5
الأطباء	٪ 5
المهندسون	٪10

وأن حجم المجتمع = 10000

ونسبة العينة = 5٪

$$\text{حجم العينة} = \frac{5 \times 10000}{100} = 500$$

وعليه يكون حجم العينة 500

وعدد المحامين	25
وعدد الطلبة	150
وعدد المدرسين	50
وعدد الفلاحين	100
وعدد الصناع	75
وعدد النجارين	25
وعدد الأطباء	25
وعدد المهندسين	50
	500

هذه العينة الفئوية التناسبية التى تزود الباحث بمؤشرات لدراسة المجتمع من خلال دراسة العينة وأثر المتغيرات عليها. أما العينة غير التناسبية فقد تعطى مؤشرات ولكنها غير منسجمة مع حجم المجتمع والفئات المكونة له.

ويمكن أن يتم اختيار العينة الفئوية بطريقة (عشوائية) أو بطريقة (منتظمة) أو عمدية حسب الآتى :

أولا : يقسم لمجتمع الى فئات وحسب نسبتها فيه.

ثانيا : تحديد حجم العينة.

ثالثا : تحديد حجم كل فئة فى المجتمع.

رابعا : تحديد حجم كل فئة فى حجم العينة.

خامسا : اختيار عدد من أفراد كل فئة حسب نسبتها فى العينة بالطريقة العشوائية أو العمدية أو المنتظمة بعد تنظيمها وترتيبها وترقيمها، وتحديد طول المسافة التى يتم الاختيار وفقها بالطريقة المنتظمة.

عيوب العينة الفئوية :

1- قد ينقسم المجتمع الى فئات وحسب المهن والحرف والوظائف الخدمية العامة، إلا أن الالتزام الرسمى بفئات المجتمع قد لا يتم من البعض. أى إذا كان اختيار العينة الفئوية من المصادر الرسمية المطبوعة أو المحفوظة فى مكاتب الخدمات ومكاتب النقابات، وأن أعدادا كبيرة لم تسجل أو تنتسب الى نقاباتها فإن العينة الفئوية التناسبية لا تعطى دلالة لحجم وجودها فى المجتمع.

2- إن تقسيم المجتمع الى فئات حرفية، ومهنية وخدمية قد تتداخل وتزدوج لدى بعض الأفراد، فقد يكون بعض المدرسين والمدرسات يمارسون

أكثر من سهنة أو حرفة، أى تقوم المدرسة بمهنة التدريس وتزاول أيضا حرفة التطريز والحياكة ويقوم الفلاح بحرفة الزراعة وفى نفس الوقت بتربية الأغنام ورعيها.

3- عندما يكون عدد الفئات النقابية كثيرا وحجم العينة الفئوية صغيرا فقد يحدث غياب لأى سبب، لبعض أفراد العينة التناسبية الفئوية.

مثال : لو أن حجم العينة 200 مفردة وأن عدد النقابات 50 نقابة وكل نقابة تمثل مهنة أو وظيفة أو حرفة، فيكون تمثيل كل فئة حسب نسبتها فى المجتمع، وفى هذه الحالة قد تمثل احدى الفئات بواحد أو اثنين، فى حين قد تمثل أخرى بعشرة أفراد أو أكثر. فإذا كانت نسبة فئة الصيادين 1٪ من حجم العينة 200 فإن عدد الصيادين الممثلين لهذه الحرفة 2، وإذا غابا عن ملء الاستمارة أو المقابلة التى حددها الباحث، فإن غيابهما لا يؤثر على دراسته من حيث نسبة الفاقد المقبولة أو المعتمدة من الباحث، وهى 5٪ من حجم العينة، إلا أن غيابهما يجعل الدراسة أو البحث لا يمثل كل الفئات الاجتماعية وبالتالى إن النتائج المتحصل عليها لا تعطى مؤشرات تفيد فى دراسة الصيادين أو حرفة الصيد.

وهكذا يحدث الخلل حسب الصفات والفئات التى يقسم اليها المجتمع أو يرتب وفقها فى قوائم والتى ينبغى على الباحث مراعاتها حتى لا يقع فى عيوب الترتيب والتصنيف.

4- العينة الساحية :

هى العينة التى يتم اختيارها حسب التقسيم الساحى (الجغرافى) نظرا لاتساع الرقعة الجغرافية المستهدفة بالبحث والدراسة أو نتيجة لكبر حجم المجتمع وتعدد أماكن تجمعاته وتفرعاته.

مع أن البحث قد يستهدف أفرادا أو جماعات من المجتمع لدراسة التفاعل الاجتماعى، أو أثر التنشئة الاجتماعية فى بناء جيل الوحدة القومية، إلا أن الوصول اليه يمكن أن يتم عن طريق الاختيار الجغرافى، كأن تقسم الدولة الى ساحات للبحث، ويمكن أن يتم هذا النوع من الاختيار حسب التقسيم الادارى الذى ينتظم فيه المجتمع على المستوى المحلى(الاقليمى)أو على مستوى الأمة (القومى)، فإذا اختار الباحث التقسيم المحلى للجماهيرية فإنه يستهدف بالاختيار الكميونات، والتجمعات المحلية على مستوى المؤتمرات الشعبية فى القرى والمدن وتتداخل وسائل الاختيار للعينة عشوائيا أو لا عشوائيا. فإذا كان عدد الأقاليم (7) وأن الباحث سيختار (3) أقاليم كعينة للدراسة الساحية، فإنه بامكانه إخضاع (7) أقاليم للاختيار العشوائى، ثم بامكانه اختيار بعض المدن عشوائيا من داخل كل تقسيم للاقاليم التى وقع عليها الاختيار. وهكذا يتم اختيار بعض المحلات عشوائيا داخل كل تقسيم ادارى أو جغرافى لمدن وقرى الجماهيرية.

وقد يلجأ الباحث الى دراسة التجمعات داخل المحلات التى وقع عليها الاختيار. أو اختيار مجموعة من الأسر أو الأفراد من كل تجمع أو تقسيم جغرافى.

عيوب العينة الساحية :

1- قد لا تتساوى أحجام التجمعات وبالتالى تكون النسب الممثلة لكل تقسيم جغرافى أو سكانى لا تتفق وحجم التجمعات أو التقسيمات الأخرى كأن يكون سكان أحد الأقاليم 500 ألف مواطن واقليم آخر 100 ألف مواطن، ويكون سكان احدى المدن 10.000 عشرة آلاف مواطن ومدينة أخرى 250.000 مواطن، ولذلك ينبغى مراعاة النسب المتكون منها المجتمع.

2- تحتاج الى جهد ووقت أكثر وتكاليف أكبر.

3- قد لا تتوفر وحدة البحث فى الاختيار لاختلاف طبيعة التقسيمات المدنية عن الريفية أو القروية، فإذا اعتمد الباحث الشارع كوحدة بحث، فإنه قد لا يجد هذا التقسيم فى البوادى والقرى وبعض المحلات.

5- العينة الطبقية :

قد تتداخل أنواع العينات (العشوائية، والمنتظمة، والعمدية والفئوية). فى اختيار العينة الطبقية بعد تحديد التصنيفات الأساسية لها، ويقصد بالعينة الطبقية تلك التى تعتمد على أساس المستوى الاقتصادى للطبقات الاجتماعية، وتختلف عن العينة الفئوية التى تعتمد على التصنيف المهنى أو الحرفى أو الوظيفى (العمل الرسمى وفق ملاك خدمى).

وهناك لبس فى المفاهيم لدى بعض من المهتمين بالدراسات الاحصائية والذين تأثر بهم بعض من المهتمين بطرق البحث فى العلوم الاجتماعية والانسانية، فالاحصائيون يتعاملون فى بحوثهم مع ارقام، أما الانسانيون فيتعاملون مع بشر (سلوك، ومشاعر، وعواطف، وأحاسيس، وقيم، ونظم)، ولذلك نجد أن التقسيم الطبقى الذى يعنيه الاحصائيون ليس هو الذى حددناه فى هذه الورقة. وبعد تحديد الباحث عينته الطبقية سواء كانت تناسبية أو غير تناسبية، فإنه بإمكانه أن يتم اختياراته من الطبقات المستهدفة بالدراسة بطرق الاختيار العشوائى أو المنتظم أو العمدى وذلك بعد تحديد حجم العينة.

مثال : لو افترضنا أن :

حجم المجتمع 6000 أسرة

ونسبة العينة 10٪

يكون حجم العينة 600 أسرة

ويتكون هذا المجتمع من ثلاث طبقات هى :

أ - الأغنياء (الذين لهم الزائد عن حاجاتهم).

ب - مشبعو الحاجة (الذين لا ينقصهم شىء يمكن أن يكون لهم).

ج - المحتاجون (الذين ينقصهم اشباع حاجاتهم الأساسية).

ونسبة أ = 20٪ أى تساوى 1200 أسرة

ونسبة ب = 40٪ أى تساوى 2400 أسرة

ونسبة ج = 40٪ أى تساوى 2400 أسرة

واذا حدد الباحث أهمية النسب فى اختيار العينة الطبقية فتكون نسبة وحجم كل عينة من كل فئة حسب الآتى :

أ = 20٪ أى تساوى 120 أسرة

ب = 40٪ أى تساوى 240 أسرة

ج = 40٪ أى تساوى 240 أسرة

وعليه يمكن أن يكون الاختيار لكل نسبة بالطرق العشوائية أو الفئوية أو العمدية أو المنتظمة.

<u>مثال 2 :</u> لو استعملنا فى هذا المثال حجم المجتمع السابق وحجم العينة ونسبتها الطبقية فيه، وحددنا التداخل فى الاختيار بين العينة الطبقية والعينة الفئوية التناسبيتين فينبغى اتباع الخطوات الآتية:

1- تحديد حجم المجتمع وهو يساوى 6000 أسرة.

2- تحديد حجم العينة ويساوى 600 أسرة.

3- تحديد حجم الطبقات الثلاثة، وهى :

أ الأغنياء = 1200 ونسبة العينة منه 20٪ = 120 أسرة.

ب مشبعو الحاجة = 2400 ونسبة العينة منه 40٪ = 240 أسرة.

ج المحتاجون = 2400 ونسبة العينة منه 40٪ = 240 أسرة.

4- تحديد الفئات الاجتماعية ونسبتها وحجمها فى كل طبقة اجتماعية.

فإذا افترضنا الفئات التالية: التجار، المهندسين، المدرسين، مالكى المصانع، الجنود، العمال، العاطلين عن العمل. وفق الجدول رقم (1). وتكون نسبة العينة لكل فئة متفقة مع نسبتها فى الطبقة المنتمية اليها، وتكون نسبة الطبقة فى العينة متفقة مع نسبتها فى المجتمع.

جدول رقم (1)

الفئة	الطبقة ونسبتها فى المجتمع					
	الاغنياء 20٪		مشبعو الحاجة 40٪		المحتاجون 40٪	
	العينة الفئوية	عدد الأسر	العينة الفئوية	عدد الأسر	العينة الفئوية	عدد الأسر
التجار	٪40	48	٪5	12	–	–
المهندسون	٪5	6	٪20	48	–	–
المدرسون	٪5	6	٪20	48	٪5	12
مالكو المصانع	٪30	36	–	–	–	–
الجنود	–	–	٪30	72	٪25	60
العمال	–	–	٪20	48	٪40	96
مالكو العقارات	٪20	24	٪5	12	–	–
العاطلون عن العمل	–	–	–	–	٪30	72
	٪100	120	٪100	240	٪100	240

عيوب العينة الطبقية

1- أنها اعتراف بالفوارق الاجتماعية التى تجعل من المجتمع الواحد غنيا وفقيرا أو حرا وعبدا وجعلت بعض المتخصصين فى علم الاجتماع يبررون هذا التقسيم وكأن الانسان طبقى بطبعه. أنه اجتماعى، والاجتماعى لا ينبغى أن يكون محروما واذا كان محروما، فعلى علماء الاجتماع دراسة هذه الظاهرة لمعرفة أسباب حرمانه، التى جعلت بينه وبين غيره من بنى قومه فوارق، قد تؤدى الى الصراع بينهما لدرجة الاقتتال من أجل الحياة. أى ينبغى ألا يعتبر الباحث الاجتماعى أن الطبقة من المسلمات، بل ينبغى أن يتساءل لماذا مجتمعى طبقى؟. وكيف يمكن اعادة تنظيمه بشكل لا فوارق فيه؟. وإذا انحرف المجتمع من الذى يغيره عنه؟.

كل هذه الاستفسارات تشير الى أهمية دور المتخصصين فى الدراسات الاجتماعية للمساهمة فى بناء المجتمع الحر عندما لا يعتبرون الفساد بأنه من المسلمات التى لا خلاص منها، وهذا يحتاج الى أن يغير المتخصصون مواقفهم من التبرير لما هو كائن، الى التحليل والنقد العلمى من أجل تقديم الأشياء على حقيقتها.

واذا لم يفعلوا ذلك فيكونوا فى مواجهة المجتمع من خلال واقع يمكن ملاحظته.

2- قد ينقسم المجتمع الى طبقات ولكن الفصل بينها أثناء البحث أو الدراسة قد لا يكون دقيقا، لأن نهاية الطبقة الأولى قد تتداخل مع بداية الثانية، ونهاية الطبقة الثانية قد تتداخل مع بداية الثالثة، وهكذا. أى أن الفرز بينها بالتحديد مسألة صعبة.

3- عندما يكون المستوى الاقتصادى هو المقياس فى التمييز بين الطبقات، من حيث أهميتها فى المجتمع، فإنه ليس بالضرورة أن تكون الطبقة الغنية دائما متفوقة على بقية الطبقات وبشكل عام. بل يكون هناك أفراد أذكياء وقدراتهم المهنية عالية، إلا أن فرص العمل لم تتح لهم حتى يتمكنوا من اظهارها ولذلك دراسة المجتمع كقيم، وقدرات ومهارات وانتماءات قد لا تتمشى مع التقسيم الطبقى أو تكون فى اتجاه معاكس له.

4- قد لا يستطيع الباحث تطبيق نفس الأدوات فى دراسة طبقة من الطبقات على الطبقات الأخرى. فإذا اختار استعمال وسيلة الهاتف أو البريد فى دراسة المجتمع الطبقى فإنه قد لا يجد هذه الوسائل لدى بعض من العينة المختارة من الطبقة الوسطى. ولا يجدها مطلقا لدى العينة المختارة من الطبقة الدنيا (المحتاجة).

ويجدها متوفرة لدى جميع أفراد طبقة الأغنياء. ولهذا لا يستطيع استعمال هذه الوسائل فى دراسة العينة الطبقية.

6- العينة بالخبرة (العينة العمدية) :

تتداخل طرق اختيار العينات بعضها مع بعض بنسب متفاوته، وذلك حسب المتغيرات المستهدفة بالدراسة من خلال موضوعات البحث، والفروض المنطلق منها الباحث فى تجميع وتحليل المعلومات من أجل الوصول الى نتائج تتعلق مباشرة بالعينة، وبما أن نتائج العينة تتعلق بها مباشرة لأنها لا تمثل إلا نفسها، فإن العينة العمدية تستوى مع غيرها من العينات بما لها من محاسن وعيوب. وهى تتداخل مع جميع أنواع العينات، فإذا اختار الباحث العينة العشوائية فإن السبب فى ذلك هو تعمد الباحث اختيارها وإلا لماذا العشوائية؟. وإذا اختار العينة المنتظمة أو الفئوية أو الساحية فإن ذلك يكون

نتيجة تعمد الباحث لها بغض النظر عن مزاياها وعيوبها المهم أن تحديد نـوع العينة لم يعط فرصا متساوية فى الاختيار بين أنواعها، ولكن الفرص تتساوى فـى طـرق استعمالها عشوائيا وتناسبيا حسب الفئـة أو الانتظـام أو الطبقـات المتكون منها المجتمع.

ونظرا لأهمية الخبرة العلمية من حيث الاثراء المعرفى والعلمـى فـإن خبرة الباحث هامة فى اختيار عينات البحث إذا أراد أن تكون نتائج بحثه ذات دلالة فى دراسة المجتمع الذى أخذت منه العينة بالخبرة (العينة العمدية).

وبما أنها ذات ارتباط بالباحث الخبير فإن هذا البـاحث لا يغفل أهميـة الاختيار التناسبى والفئوى أو الطبقـى أو الحزبـى أو القبلـى (للعينـة العمديـة)، ونظرا لأهمية خبرة الباحث فى الاختيار يقول بولى Bowly (لا توجد قواعـد جامدة تستطيع أن تحل محل تقدير الباحث وخبرته فى اختيار العينات(3). لأنه مهما وضعنا من احتياطات فى اختيار أى عينة فإنها لا ترتقى فى الأهمية الى مستوى خبرة البـاحث المتطـورة والمتجـددة والمرنـة لأن البـاحث إذا لـم يكـن متجددا فى معلوماته، ومتطورا بها، ومرنا فى استعمالها، فإنـه سـيبقى جـامدا وبالتـالى تصبـح معلوماتـه وخبراتـه السـابقة متخلفـة عـن الأسـاليب المتطـورة والاكتشافات الحديثة.

وإذا كان للثبات أهمية فى القيم والمبادىء الخيرة فإن للثبات عيوبا فى دراسة الظواهر والمجتمعات. لأن الظواهر والمجتمعـات بطبيعتهـا فـى تغير ولذلك لا يمكن افتراض بقاء خصائصها فى ديمومة الثبات.

---

(3) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، القاهرة. مكتبة الانجلو المصريـة، 1975م. ص 533.

عيوب العينة بالخبرة (العينة العمدية):

1- من طبيعة الظواهر التطور والتغير وبالتالى لا تفيد خبرة الباحث إذا لم يضع فى اعتباره طبيعة وديمومية التغير.
2- قد تتأثر خبرة الباحث بتحيزه إذا كانت هناك مصلحة شخصية أو علاقات قرابية تربطه بأفراد العينة العمدية.
3- قد يكون الاختيار العمدى للخبير مؤسسا على معطيات ليس لها علاقة بالحاضر، وبالتالى لا تفيد فى دراسة الوضع الحاضر المتغير.
4- ليس للخبرة سقف تنتهى عنده أو تقف دونه، ولهذا لم يكن هناك من تشرب الخبرة كاملة حتى يتم الاجتماع للاحتكام اليه، ونتيجية للتطور والتغير العلمى فإن خبير العلوم قد يكون تقليديا فى خبرته أمام الاكتشاف العلمى والتقدم الحضارى والفكرى أن لم يكن مواكبا له.

خاتمة :

يتضح مما تقدم عيوب دراسة العينات إذا كان المستهدف من دراستها تمثيل المجتمع، وفى نفس الوقت تتضح أهميتها عندما يكون اختيارها ودراستها من أجل العينة ذاتها أو لأجل التعرف على المؤشرات الهامة التى تفيد فى دراسة المجتمع أو أفراد أو جماعات منه، دون تعميم لنتائج الدراسة أو البحث على من لم تجر البحوث عليهم. ولا عيب أن تجرى البحوث على عينات، ولكن العيب أن تعمم النتائج على أفراد أو جماعات أو مجتمع دون أن يكون من ضمن الذين أجريت عليهم الدراسة أو البحث.

ان البحث العلمى فى العلوم الانسانية والاجتماعية هو الذى يستهدف كل مفردة فى العينة أو المجتمع حسب دائرة البحث وأبعاده، ويهتم بنقاط التشتت والتباين بين الأفراد والجماعات عن بعضهم البعض أو عن المجتمع،

ويهتم أو يتعامل مع كل مفردة لمعرفة ما تمتاز به عن غيرها، وذلك لما تختص به من قدرات واستعدادات وميول واتجاهات ومشاعر تميزها عن غيرها. وبذلك تبرز أهمية العلم فى قدرته على اكتشاف أسباب التشتت والتباين بين أفراد المجتمع وجماعاته، أى ينبغى أن يجيب الباحث الاجتماعى، وعن معرفة على الأسئلة التالية:

- لماذا المجتمع متشتت؟.
- لماذا المجتمع متباين؟.
- وهل كل فرد فى المجتمع يختلف أو يتميز عن غيره كما تختلف أو تتميز بصمة أصابعه؟.
- وهل ينبغى على الباحث العلمى فى (العلوم الانسانية والاجتماعية) الاهتمام بهذا الاختلاف أم لا يعيره اهتماما؟.

وبالاجابة على هذه الأسئلة يتم التمييز بين الباحث الذى يكتشف التشتت أو التباين أو النزوع، وبين الباحث الذى يكتشف الأسباب والعلل التى أوجدت هذا التشتت أو التباين أو النزوع بين أفراد المجتمع. فالأول لم يأت بجديد، أما الثانى فقد أتى بالجديد، لأن الذى استطاع أن يكتشف الأسباب يستطيع أن يحدد أو يساهم فى ايجاد الحلول والعلاج. والأول تبريرى يصف الشىء الموجود دون أن يعرف سبب وجوده. أما الثانى تحليلى يهتم بأسباب الظاهرة لا بوصفها، وبمواجهتها لا بالتهرب منها بتعميم نتائج العينة. ولذلك فإن لمقاييس التوسط والتشتت أهمية احصائية عندما يتعامل الباحث مع أرقام أو كم، ولكن عندما يتعامل الباحث مع الكيف والنوعية مع انسان (سلوك ، أخلاقيات، استعدادات، قدرات) فإن اخضاعها للاحصاء بشكل كمى لا يحقق الغرض العلمى للدراسات الاجتماعية والانسانية، وبالتالى كل التعميمات فى هذه العلوم لا تعطى حقيقة المجتمع، ولا ينبغى أن تعمم عليه.

وليس بالضرورة أن تكون دراسة العينة لاثبات وحدة المجتمع، لأن وحدة المجتمع وضرورة الحياة الاجتماعية وأهمية التنشئة للفرد مسلمات لا خلاف عليها، لكن الأهم، والذى يجب أن يستهدف بدراسة العينات هو اكتشاف الفروق الفردية، فإذا درسنا العينة على هذا الأساس تكون دالة على عدم تمثيلها لوحدة المجتمع، لأن المجتمع والجماعات والأفراد لا يمكن أن تتناسخ فى سلوكها ورغباتها وميولها واتجاهاتها ومواقفها وأفكارها، لتمثل بعضها البعض أحسن تمثيل، ومن ثم يتخلص البحاث الاجتماعيون من تطويع فرضياتهم والاستفسارات المترتبة عليها فى استمارات الاستبيان من أجل (هروبهم) من هموم البحث والتجائهم الى التبرير والتعميم.

العينة كالبصمات لا تمثل إلا صاحبها، أى أن العينة لا تمثل إلا نفسها، وفى هذه الحالة لها ميزة كبرى لأنها تتجنب أخطاء التعميم فى العلوم الاجتماعية والانسانية. وليس معنى ذلك أن كل العينات لا تمثل ما أخذت منه، فعينة البطاطس أو الدم أو القماش، ومن نفس الشريحة، تمثل ذلك أحسن تمثيل، أى أن العينة التى نعنيها هنا هى العينة فى العلوم الاجتماعية والانسانية وليست العينة فى العلوم الطبيعية.

وبما أن علماء الاجتماع يؤكدون على ميزة الحصر الشامل هى تجنب أخطاء التعميم، وبما أن هناك اجماع من علماء الاجتماع على وجود أخطاء فى التعميم. إذن لماذا الاستمرار فى تعميم نتائج العينات على من لم تجر عليهم الدراسات والبحوث؟.

وبما أن للعينات عيوبا كثيرة، أخص منها، الى جانب ما سبق ذكره تعمد اعطاء أفراد العينة أو جزء منها معلومات غير صحيحة حتى عن أنفسهم فكيف نجزم بأن العينة تمثل المجتمع أحسن تمثيل؟.

وليس معنى عدم تمثيل العينة للمجتمع أنه لا توجد علاقات وروابط بين الأفراد والجماعات المكونة للمجتمع، بل إنهم يشتركون فيما بينهم من صفات، ومثل، وديانات، وقوميات، إلا أنهم يختلفون فى درجة وقوة إرتباطهم بها، مما يستوجب دراسة هذه الفروق وأثرها على حياة المجتمع فى الماضى والحاضر والمستقبل وفق ديناميكية المجتمع، وأثر المتغيرات عليه.

وبناء على ما تقدم نتساءل :

ما هى العينة؟. ولماذا؟.

العينة مجموعة من الوحدات قد تتحد فى الصفات وقد تتباين أو تختلف، وقد تكون أفرادا أو مؤسسات أو انتاجا، ويختلف عددها أو حجمها من بحث الى آخر، وحسب أغراض البحث والامكانيات المتاحة. وهى الجزء الذى يؤخذ من الكل، سواء كان هذا الكل مجتمعا أو مادة، ولكل مجتمع خصائص وصفات، كما أن لكل فرد فى المجتمع خصائص وصفات، وما محاولة اختيار العينة الا لتمثيل المجتمع فى خصائصه وصفاته، ولذلك يتم اختيار العينات بعدة طرق من أجل الحرص على تمثيل المجتمع تمثيلا جيدا. ولكن كثيرا ما تمثل العينة المجتمع تمثيلا سيئا، أى أنها لا تمثله، ومهما حاول البحاث وتعددت البحوث فإن العينة لا يمكن أن تكون المجتمع، وبما أنها ليست المجتمع، إذن لا يمكن ولا يصح أن نحكم عليها بأنها الممثل الجيد أو السيء للمجتمع. بل يكون الحكم بذلك على جميع المفردات المدروسة فقط. وتعلل معظم المهتمين بطرق البحث فى اختياراتهم للعينات نيابة عن المجتمع لصعوبة دراسة المجتمع دفعة واحدة. ولكن ما هو المجتمع؟.

انه المستهدف بالدراسة الشاملة أو المستهدف باختيار العينة منه. ولذلك ليس بالضرورة أن يكون كل الأمة، أو مجتمع الدولة حسب حدودها الاقليمية. ولأجل أهمية البحث العلمى واعتبار قياساته الاحصائية يجب أن

تتوجه الدراسات والبحوث الى دراسة المجتمعات مباشرة، وحسب الامكانيات المتاحة يتم تحديد حجم المجتمع المستهدف.

ومع أن دراسة المجتمع كبير الحجم كثيرة التكاليف، وتحتاج الى جهد ووقت أطول، إلا أن ذلك لم يعد مبررا لاستعمال العينات فى البحوث الاجتماعية والانسانية، ولا يعد عيبا فى الحصر الشامل، بل صعوبة أمام من يريد دراسة المجتمع عن طريق الحصر الشامل.

ولأهمية المجتمع وأهمية البحث العلمى الذى يهدف الى معرفة الحقائق والوقوف عليها مباشرة، يجب أن تجرى البحوث والدراسات الشاملة دون استثناء لأى جزئية منه حتى لا تؤسس العلوم على أخطاء التعميم الناتجة عن استخدام العينات.

الفصل الحادى عشر

تصنيف وعرض المعلومات والبيانات وتحليلها وتفسيرها

تصنيف المعلومات والبيانات:

ان المعلومات، والبيانات التى تم تجميعها، قد تكون كثيرة ومتداخلة، مما يجعل صعوبة فى تبيان العلاقات بين المتغيرات التى كانت وراء ظهورها او وجودها، وهذا يتطلب من الباحث ان يصنفها ويبوبها، من اجل تبيانها بكل دقة ووضوح، ومن اجل تسهيل عملية تحليلها من بعد. ويتم تصنيف المعلومات والبيانات حسب المتغيرات الرئيسية، والقيم المشتركة فى الخصائص، والصفات، للتمييز بينها، من اجل ابراز اثر كل متغير على الحالة او الموضوع، وعرضها دون التباس او تداخل. ولذلك، التصنيف يساعد على تبيان المعلومات المتماثلة، والمعلومات غير المتماثلة، عن طريق توحيد المتماثل، وتفريق غير المتماثل، وتصنيفه حسب الخصائص، والصفات التى يتميز بها كل متغير او عنصر.

وبما ان تصنيف المعلومات وفق المتغيرات التى تشتمل الدراسة عليها، إذن من الضرورة مراعاة قيم المتغيرات فى التصنيف، وبما ان التصنيف حسب الخصائص والصفات، إذن التحليل يكون بينها وبين آثارها. فإذا كان التصنيف حسب الديانة، والجنسية، والنوع، فينبغى مراعاة القيم التى تندرج تحت كل منها. فقد يكون تصنيف الديانة الى مسلم، ومسيحى، ويهودى. وقد يكون التصنيف الى مسلم، وتشتمل على المسلمين الذين دخلوا فى عينة الدراسة اوالبحث. والى غير مسلم وتشتمل على كل القيم التى دخلت فى عينة الدراسة، ولم تكن تدين بالاسلام. وإذا كان التصنيف حسب الجنسية، توضع قيم كل جنسية فى عمود لوحدها، فإذا كانت الجنسيات المشتركة فى الدراسة هى الليبية والمصرية، والسورية، والتونسية، والانجليزية، والفرنسية، فيمكن ان يكون التصنيف حسب هذا العرض، لكل الجنسيات التى ذكرناها،

وقد يكون التصنيف الى عربى، وغير عربى، بحيث تشتمل الاولى على كل القيم التى تحمل الجنسية العربية، وفق الاقطار التى تم ذكرها باعتبارها اشتركت فى عينة الدراسة، وتشتمل الثانية على من لم يكن عربيا، وهم الانجليز، والفرنسيون، الذين شملتهم الدراسة. ويراعى فى التصنيف النوع وهم الذكور، والإناث. ويراعى فيه ايضا المرحلة العمرية، اى تراعى كل المتغيرات التى ظهرت فى البحث، من اجل معرفة اثر قيم كل منها.

يعتبر تصنيف المعلومات والبيانات القاعدة الاساسية التى تمكّن الباحث من التحليل العلمى المنظم، ويعتبر المرآة التى تظهر القيم، التى انتظمت المعلومات فيها امام الباحث المحلل، او المشخص لها. ويراعى فى التصنيف الظرف الزمانى، والظرف المكانى، والكيف، والكم، حسب الموضوع والبيانات المتحصل عليها منه.

يتضمن التصنيف العلمى نوع الأسئلة، المفتوحة، والمقفلة، والأسئلة المفتوحة المقفلة، والأسئلة محدودة الاجابة، وذلك بعرض كل القيم التى يحتوى عليها كل سؤال وحسب المتغير الذى يتضمنه. و يتم تصنيف المعلومات والبيانات دون تداخل او التباس بين قيمها المتعددة. وهكذا يصنف الكل مع الكل، والجزء مع الجزء، والمتجزئ مع المتجزئ، لان المقصود من عملية التصنيف هو ترتيب المعلومات والبيانات، وتقسيمها الى فئات بحيث توضع القيم المتشابهة فى فئة واحدة. ولذلك يعتبر التصنيف مرحلة فرز المعلومات والبيانات، وعرضها للتحليل العلمى.

عرض المعلومات والبيانات

بعد ان تصنف المعلومات والبيانات، تسهل عملية عرضها بشكل يسهل على الباحث تحليلها، وإجراء المقارنات، بينها، واستخلاص النتائج منها، وتيسر للقارىء إمكانية الاطلاع عليها بدون ملل، نتيجية عرضها فى صور مركزة، ومختصرة وواضحة. وتعرض المعلومات بطرق مختلفة من باحث لآخر، وفق الآتى :

1 ـ عرض المعلومات انشائيا :

تصنف المعلومات وتعرض بصيغة تبين او تظهر العلاقات بين المتغيرات، والصفات، والخصائص، ويتم التعبير اللفظى عليها سواء كانت المعلومات والبيانات كمية، او كيفية.

2 ـ عرض المعلومات والبيانات فى جداول :

خاصة إذا كانت الدراسة او البحث يحتوى على ارقام تعبر عن قيم متعددة، ويكون كل عمود خاصا بقيم المتغير او العامل سواء كان مهنة، او نوعا، او مرحلة تعليمية، او حالة صحية، او جنسية، او ديانة، ولكل من هذه العوامل قيم تتعدد حسب تصنيف الباحث لها، وحسب تصنيفه لها يتم عرضها فى جداول، تختصر للقارىء الزمن الذى قد يستغرقه اكثر، لو انها لم تعرض فى شكل علمى يبين قيمها الدالة عليها.

3- عرض البيانات والمعلومات بيانيا :

تعتبر الرسومات البيانية وسائل ايضاح هامة فى تبيان وتوضيح المعلومات والبيانات بشكل علمى، تسهل على القارىء، والباحث المقارن، الإلمام بالمعلومات والبيانات، وتأخذ اشكالا متعددة منها المنحنيات، والاعمدة، والدوائر.

4- عرض المعلومات والبيانات باكثر من طريقة :

كلما زاد اهتمام الباحث بالموضوع، كلما كانت قدراته العلمية، والفنية مستهدفة التوضيح الدقيق من خلال العرض العلمى، بعدة طرق مختلفة، كيفا وكما، كأن تعرض انشائيا، وبيانيا، وفى جداول احصائية.

تحليل المعلومات

لاقيمة للمعلومات والبيانات اذا لم تحلل وتفسر وفق منهج علمى واضح، لان تكديس المعلومات بدون تحليلها لايحقق نتائج تجيب على الاستفسارات او الفروض، بل اذا اقتصر على ذلك يعد تضييعا للوقت والجهد. ولكى لا يضيع جهد الباحث هباء منثورا.عليه ان يحلل المعلومات والبيانات التى جمعها وتحصل عليها، من مصادرها ومراجعها , وحسب ظرفها الزمانى والمكانى الذى تأثرت به دون عاطفة شخصية، اى ينبغى ان تحلل المعلومات وفق معطياتها وعلل وجودها، لا ان تحلل بمعطيات خارجة عنها، وذلك من اجل ان ينصب التحليل على الموضوع لا على ماهو خارج عنه، وعند تحليل المعلومات ينبغى ربط المتغيرات ذات العلاقة بالظاهرة مباشرة، والتركيز عليها، وتبيان المستقل منها والتابع وعلاقتهما بالمتغير المتداخل او الدخيل عليهما، وتبيان اثار كل منهما سواء كانت ايجابية او سلبية، وسواء كانت اساسية او ثانوية. فإذا افترضنا ان الصحة متغير مستقل، وان ارتفاع المستوى الصحى بين افراد المجتمع، يؤدى الى زيادة الانتاج، إذن زيادة الانتاج متغير تابع، لانه مترتب عليه، او ناتج عنه. وإذا كانت الحالة الصحية لافراد المجتمع جيدة، بسبب ارتفاع نسبة التعليم، فإن التعليم فى هذه الحالة يكون، هو المتغير المستقل، وتكون الحالة الصحية هى المتغير التابع.

إذن المتغير المستقل، هو الذى يؤثر فى متغير آخر، يكون نتيجة له احيانا.

والتحليل العلمى لايؤمن بالمطلق الذى لايثبت، بل يؤمن بأن الاشياء قابلة للاثبات الموجب والاثبات السالب، وقابلة لعدم الاثبات (للنفى)، وكل شىء ينبغى ان يحلل وفق معطياته. فالدين يفهم ويحلل من داخله وبفلسفته لامن خارجه، فإذا استهدفنا تحليل الدين الاسلامى بما يتضمنه من مثل، فلا نحلله بمنظور اليهودية، أوالمسيحية، ولانفسره بهما، بل نحلله ونفسره بفلسفته، واذا حاولت الفلسفة المعاصرة ان تفسر الاديان ولم تستطع، فلا يعنى ذلك غموضا فى الاديان، بل قد يعنى قصورا فى المنهج الذى تتبعه الفلسفه، لان المنهج دائما يستنبط من الموضوع، ويعبر عنه، ولذلك اذا لم يكن المنهج المتبع مستمد او مستنبطا من الاديان كموضوع، فإنه لا يستطيع التعرف عليها او البحث فيها. والعلوم التجريبية إذا حاولت ان تتعرف على الميتافيزيقا ولم تستطع اثباتها، فلا يعنى ذلك عدم وجودها، بل قد يعنى قصور العلوم التجريبية، او قصور منهاجها، لان المنهج الذى يتبع من قبل بعض التجريبيين فى دراسة الميتافيزيقا لم يكن مستمدا، او مستنبطا من الموضوع الذى تبحث فيه، ولهذا يكون من الصعب ان يصل الى هذه المعرفة، اذا لم يتبع المنهج المناسب لذلك.

ان التحليل العلمى لايخضع للمزاج الشخصى، بل يخضع للاحكام والقوانين العامة، والنظريات، ويتعلق بالموضوع. ان الاراء، والاتجاهات التى لا تقبل الرأى الآخر من اجل ان تفرض رؤاها، كما حدث للماركسية، فإنها متعصبة وقاصرة وزائلة، ولذلك ينبغى على الباحث الذى ينتقد الاخرين وان يتقبل نقد الاخرين له. فإذا اردنا ان نحلل اراء ابن خلدون وفلسفته فى تطور الفكر الاجتماعى مثلا، لا داعى ان نعرفه من خلال فلسفة جان جاك

روسو، او جون لوك او غيرهما بل ينبغى ان نعرفه من خلال فلسفته وتاريخه ومنهجه حتى يكون تحليلنا علميا.

يعتبر التحليل عملية عقلية يستند على معطيات (معلومات) ويؤدى الى نتائج قد تكون معالجات او مقترحات علمية وقائية. ويهتم التحليل بمعرفة طبيعة المشكلة، والعوامل المؤثرة فيها، سلبا اوايجابا، مما يجعله المقدمة العلمية التى تؤسس عليها التفسيرات الموضوعية للعوامل المستقلة والمتداخلة او التابعة، ويعتبر التحليل حلقة وصل بين مرحلة تجميع المعلومات والبيانات، وبين مرحلة الوصول الى النتائج، مما يجعل النتائج مرتبطة بالمعلومات، وكامنة فيها.

عناصر التحليل العلمى :

1- **الظاهر :**

وهو تحليل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والمحسوسة (الملاحظة)، سواء كانت سلوكا، او شكلا، او كما، والظاهر هو الذى يمكن التوقف عنده من اجل التعرف عليه. وليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج الى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية او اجتماعية، والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من افعال، او اقوال، او انتاج، فالانسان كقيم كامن فى الانسان كشكل، والسلوك كتصرف ظاهر من الشكل، اى ظاهر من الظاهر، فالانحراف السلوكى على سبيل المثال هو خروج عن الكامن بالظاهر.

وعليه، الانسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بانه خير او شرير الا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة او الملاحظة، وعند قيامه بسلوك وافعال يمكن التاكد منها سلبا اوايجابا، وكثيرا مايكون الظاهر نتيجة للكامن،

ووسيلة للتعرف عليه. ففى التحليل النفسى يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم اصلاح الظاهر بالكامن.

2- **الكامن :**

هو المضمون الذى يحتوى عليه المشاهد، اى جوهر الشكل والصورة، ولهذا المعرفة العلمية والمنهج الفلسفى بصفة خاصة يهتم بالظاهر، والكامن فى التعرف على الاشياء اثناء تحليلها، لان كل ظاهر تكمن حقائق وجوده فيه، ومعرفة الظاهر علميا تتحقق بالتعرف على جوهره، على اسراره وخفاياه، لان الانسان يكمن فى جوهره كما يكمن فى بصماته، وعليه ان دراسة الظاهر قد لاتكون غاية فى ذاته، بل الغاية فيما وراءه. ان تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف عليه، بل الغاية معرفة صاحبه اولا، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب ثانيا، وثالثا معرفة العلل والاسباب التى دفعت الانسان الى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث. وعندما يختفى الشىء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا فى الشىء ذاته. وليس معنى ذلك ان الكامن هو الذى لايشاهد، فكثيرا من الاشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها الا بعد معرفة مكمنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق واثاره لكى يبعد عنه الجريمة، وكانه لم يكن سارقا، وبعد اجراء عملية المقارنة البصماتية، تم القبض عليه فكان هو السارق. اذن الانسان كظاهر يكمن فى بصماته، كما يكمن المطر فى السحاب، وكما يكمن الزيت فى حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن فى النطفة وتكمن السنبلة فى البذرة. وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهدا، وقد لايكون، ولكن من اجل المعرفة

العلمية ولكى تكون متكاملة ينبغى اثناء تحليل البيانات والمعلومات، ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لاتكون المعرفة قاصرة.

3- **الشك :**

مع ان الباحث العلمى يستخدم ادوات هامه فى تجميع المعلومات والبيانات كالمشاهدة، والملاحظة، والمقابلة، والاستبيان، الا انه لايثق فى كل ماهو ظاهر، إلا بعد التأكد منه، بإخضاعه للقياس، والتحكيم العلمى، سواء كانت تلك المعلومات معطيات، او براهين، لان الباحث ينبغى ان يتعرف على الاشياء بيقين لابسداجة، ولذلك يبحث عن اسباب التسليم فيها. فالشك عملية عقلية واعية، ووسيلة علمية فى البحث والتقصى الفطن، والتتبع الدقيق، من اجل التعرف بقناعة وانتباه، ولهذا لايمكن استخدام هذه الوسيلة عند ضعاف القدرات العقلية، مما جعل الواعين متميزين بها، وجعل البحاث مهتمين وغير غافلين عنها. ويستمر الشك العلمى الى ان يصل الباحث الى الثقة فى المعلومة التى يتقصى حقائق وجودها، او اثبات عدم وجودها، اوبطلانها. نحن نعرف ان الانسان متميز عن غيره من الكائنات بالعقل والصورة، ولكن هل كل إنسان عاقل؟. اذا كان تحليلنا للمعلومة وفق المنطق الارسطى المعتمد على مقدمتين ونتيجة وحسب صياغتنا لها وفق الآتى :

كل انسان عاقل.

وعبد الودود انسان.

اذن عبد الودود عاقل.

ولكن هل حقيقة عبد الودود عاقل؟. اشك فى ذلك الى ان اقابل عبد الودود واتعرف عليه او اقابل من هم على معرفة به، واتأكد من صحة ما يقولونه عنه، بعدها يحق لى ان احكم على صحة النتيجة السابقة او بطلانها،

فإذا ثبتت صحة النتيجة السابقة كان لها ماصدق، واذا لم يكن لها ماصدق كانت باطلة ولهذا يحق للباحث ان يشك فيما تتضمنه المقدمات والنتائج الى ان يتأكد من صحة مضامينها، وان لا يبنى نتيجة على مقدمات ليس لها ماصدق. وبرغم ان الانسان عاقل لتميزه بالعقل، الا اننا نشك فى ان كل انسان عاقل، الى ان يثبت انه عاقل. وعليه، التحليل العلمى هو الذى يعتمد على الشك، من اجل اليقين، ولم يكن من اجل الشك فى حد ذاته، ولهذا يشك الباحث من اجل ان يقبل او يرفض بقناعة وعلم.

وتقع المعلومة او السلوك بين المهتز والثابت الى ان تصنف بماصدق، فالمعلومة المشكوك فيها مهتزة، والمعلومة المتأكد منها ثابتة. ومع ذلك لاينفصل المهتز عن الثابت، لان المهتز موجود، والثابت موجود، فإذا عبر الثبات عن الجوهر عبر الاهتزاز عن الصورة. فشجرة النخيل بما اننا نعرفها كصورة وجوهر ثابتة من حيث انها شجرة متميزة عن غيرها، ولا لبس فى ذلك لما تمتاز به من شكل (صورة) ومضمون (جوهر) بجميع انواع ثمارها المتعددة ومذاقاتها المختلفة، ولهذا سواء شاهدناها او لم نشاهدها، بما اننا قد عرفناها، فإنها ثابتة فى معارفنا من خلال معرفتنا لجوهرها، وترتسم فى اذهاننا كلما استدعيناها، ولذلك فهى ثابتة من حيث الجوهر كشجرة نخيل، ومهتزة من حيث الصورة، لاننا اذا شاهدناها كصورة قد نجدها تهتز، ولذلك لا غرابة ان نلاحظ الثبات والاهتزاز فى الشى الواحد نتيجة ادخال متغيرات عليه، فالريح كمتغير على ثبات النخلة يجعلها فى حالة اهتزاز، وإذا اشتدت الريح تصبح عاصفة وقد تسقط النخلة على الارض ولكنها لم تسقطها من اذهاننا لانها ثابتة، وهكذا يثبت المهتز ويهتز الثابت بإدخال المتغيرات عليه. وكذلك الانسان ثابت ومهتز، ثابت من حيث انه انسان (كجوهر) ومهتز من حيث سلوكه (كظاهر).

4- الاحتواء على السابق :

يحتوى الزمن الحاضر على كل الماضى بالفعل، وينطلق الى المستقبل بالقوة، فلو لم يكن هناك ماض ما كان هناك حاضر، فالحاضر هو نتيجة تراكم الزمن الماضى كوحدة ثابتة بالفعل المتحرك (المتغير) الذى كان حاضرا، وبناء على ذلك ينبغى ان ينطلق التحليل، والتفسير الحاضر من الماضى ويحتوى عليه لا ان ينعزل عنه، وهكذا تتكون الافكار الحاضرة بقوة الماضى وتبحث عن المتوقع بقوة شوق المستقبل وجذبه اليه. فيحدث التغير والتقدم والتطور بإحتواء الحاضر على الماضى كإحتواء الجسم على وزنه، واحتواء العمر على ايامه، والمسافة المقطوعة على امتارها المتكونة منها، وإذا لم يتم التعرف على السابق واحتوائه، لا يجد اللاحق مكانا له بين الذين قد سبقوه، ليكون مصدرا او مرجعا للباحثين عن المستقبل او فى المستقبل. ولذلك لا ينبغى ان ينعزل التحليل الحاضر عن التحليل الذى سبقه حتى وان كان بينهما اختلاف فى المنهج التحليلى وهذا لا يعنى ان يكون بينهما تماثل او اتفاق.

5- ربط الداخل بالخارج :

ترتبط الحواس بعضها ببعض كما ترتبط الافكار فى تحليلها وتفسيرها للمواضيع المعبرة عنها، والعلاقة قد تكون قوية وقد تكون ضعيفة بين الافكار كما هو الحال بين الحواس، كل ذلك حسب درجة سلامته، والحواس هى التى تنقل الافكار وتترجمها اوتحللها وتفسرها، وتنتقل الافكار والمعلومات من الداخل الى الخارج او من الخارج الى الداخل، فالظاهر للحواس الخارجية ينتقل الى الحواس الداخلية (الى العقل). والمتخيل بالعقل ينتقل الى الحواس الخارجية فيحدث التبادل من اجل استكمال المعلومة او الفكرة ويرتبط المشاهد

والمحسوس بالمجرد كما يرتبط الجوهر بالصورة، ولذلك الموضوع مادة للعقل ومجال للخيال المبدع عندما يثرى بالتفكير الذى يظهر الإبداع من الداخل الى الخارج من العقل الى الحواس، لتشاهد او تمارس كافعال من خلال العلاقات الاجتماعية والادوار التى يمكن القيام بها.

6- الاتصال :

يعتبر الموضوع مادة للبحث، ويعتبر البحث وسيلة لدراسة الموضوع، والمجتمع هو الميدان الذى تجرى فيه دراسة الموضوع المتعلق به، من اجل التعرف عليه، وعند دراسة المواضيع تتصل الافكار وتترابط فى نسج منهجى ينظم وحدة الموضوع ويظهره فى شكله اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التى سبقته، وتتصل الافكار والمواضيع من اجل اكتمالها، وتحلل علميا عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط التى تنقله من الكل الى الجزء او من الجزء الى الكل عند محاولته التعرف على العلل والاسباب الكامنة والظاهرة. ولا يمكن ان يكتمل الموضوع بدون اتصال افكاره ولايمكن ان يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله. والباحث كمتقص للحقائق لايسترسل فى دراسته او تشخيصه او علاجه للاشياء مالم تكن افكاره متصلة والمامه بالموضوع متكاملا. وهكذا تتكون الظواهر والمشاكل من علل واسباب متصلة ومن الصعب ان تحلل او تفسر المواضيع قيد البحث مالم يراع الباحثون ذلك الاتصال الذى يربطها فيما بينها.

7- الكل :

هو المتضمن للمختزل، اوالمشتمل على الجزء، فالانسان كمفهوم كلى يختزل كل البشر من حيث المضمون والجوهر، ولذلك ينبغى ان نبين :

انواعهم، الوانهم، جنسياتهم، اطوالهم، ومراحل نموهم، وعند تحليل المعلومات ينبغي ان يكون التحليل واضحا اى انسان اعنى، حتى لايحدث اللبس او الغموض فيما ابحث فيه او ادرسه. وهكذا كلمة الطيرتختزل كل الطيور، ومثلها كلمة النبات هى الاخرى تختزل كل النباتات بجميع انواعها واشكالها، ومثلها ايضا الحيوان. اى طير اعنى، هل اعنى بذلك الحمام، ام الصقور، ام الوز والبط ام ماذا؟. وأى نبات اعنى؟. وأى حيوان اعنى؟. وهل هى نباتات اوحيوانات برية ام بحرية؟. وعليه يكون التحليل الكلى تحليلا عموميا لا دقة فيه مما ينبغى علينا اللالتزام بالمنهج العلمى الذى يمكننا من تبيان العلل والاسباب واجراء المقارنات وابراز نقاط الاتفاق اوالاختلاف او الاثبات او النفى. ومع ذلك ينبغى أن نهتم بالكل من أجل معرفة الجزء ونهتم بالجزء من أجل التعرف على الكل.

8- **الجزء :**

هو المختزل فى الكلى والمحتوى على المتجزئ والمختزل له، فكلمة رجل تختزل كل الرجال فيها، وهى جزء من كلمة انسان، وكلمة عصفور تتكون من كل العصافير المتجزئة من كلمة طير، وبمختلف انواع العصافير واشكالها والوانها واماكن تواجدها، فالتحليل الجزئى هو التحليل الاكثر دقة من التحليل الكلى الذى يتضمنه، وتختلف طرق التحليل واساليبه من باحث الى اخر، فهناك من ينتقل فى تحليله من الكل الى الجزء، وهناك من ينتقل من الجزء الى الكل، هذه طرق، واساليب لاينبغى ان تقولب، بل يفضل ان تكون المرونة فى استعمالها (1). وأن يترك للباحث تقدير ذلك.

---

(1) ماهر عبد القادر محمد، فلسفة العلوم. "المشكلات المعرفية". بيروت : دار النهضة العربية، الجزء الثانى، 1984، ص 229 ــ 232.

9- المتجزئ:

هو المختزل فى الجزء، والمتكون من المحتوى الذى يتضمنه، ويميزه عن غيره، فكلمة حسين كاسم متجزئ من الاسماء التى تشتمل على كل الذين اسمهم حسين، ولكن أى حسين اعنى؟. مما يستوجب تمييزه عن غيره من الذين يندرجون تحت هذا الاسم، وذلك بكتابة اسم الاب، او اللقب والمهنة، والمرحلة العمرية، وعلاقته بالحالة المدروسة. وكلمة فلاح وصياد وطالب تتوحد فى المهنة او الحرفة وتتجزأ الى جماعات، وكل جماعة تنقسم حسب النوع الى ذكور وانات، وتتجزأ من حيث العمر، والدور الذى تقوم به، ولغتها، وديانتها والامة التى تنتمى اليها. وعليه ينبغى ان يكون التحليل فى تتابع من الكل الى الجزء الى المتجزئ او بالعكس، مع مراعاة مايتداخل بينهم من متغيرات.

10- المتداخل :

هو المختزل للنوع، او الصفة، او الشكل، او المهنة او الحرفة، والذى وجوده قد يؤثر فيه متغير مستقل، ويجعله مؤثرا فى متغير لاحق، فكلمة ذكر تتداخل فيها عدة انواع، باشتراكها فى الذكورة. الذكر من البشر، ومن الحيوانات، والطيور، والنبات. والغضب، تتداخل فيه الحيوانات مع الانسان، والطيور والاسماك، ولذلك الغضب كمتغير تابع يتاثر بمتغير سابق او مستقل، ويؤثر فى متغير تابع او لاحق. والتحليل العلمى هو الذى يتبين هذه التداخلات ويبينها، ويميزها عن بعضها البعض بالمحتوى والسلوك.

11- المقارنة :

يعتمد التحليل المقارن على المعلومات المتوفرة ووفق معطيات ذات خصائص اوصفات اوكميات. وتكون المقارنة بين المشاهد والمشاهد، وبين المجرد والمجرد، وبين المحسوس والمحسوس، مع مراعاة الظرف الزمانى، والمكانى عند تحليل المعلومات والبيانات، فما هو منطقى ومقبول او مفضل فى مكان من الاماكن، وفى زمن من الازمنة، قد لايكون بتغير المكان، والزمان. ولذلك عند التحليل المقارن، ينبغى مراعاة الآتى:

أ ـ مقارنة المشاهد بالمشاهد من حيث الشكل، واللون، والوزن، والحجم، والامتداد، والمساحة، والعدد، من اجل المقارنة بالخاصية والصفة ؛ فتكون مقارنة الوزن بالوزن، والمساحة بالمساحة، والجهة بالجهة (الشرق والغرب والشمال والجنوب او مابين الجهتين بما هو بين غيرهما من الجهات). فلاتجوز المقارنة بين الاشياء المختلفة فى الخصائص والصفات، والموضوع، فلايحق مقارنة المربع بالمستطيل الا من حيث الشكل والحجم اما من حيث المضمون فإن المربع لايقارن الابمربع، ولذلك قد يقارن البعض زرافة بغزالة من حيث الشكل والحجم او ليمونة بتفاحة، ولكن كل نوع لا يقارن الا بنوعه او جنسه، الانسان بالانسان والقرد بالقرد وهكذا

ب ـ مقارنة المحسوس بالمحسوس، من حيث الذوق، والشم، واللمس، والسمع، فيقارن الصوت بالصوت، والرائحة بالرائحة، والمذاق بالمذاق، والنعومة بالنعومة والخشونة بالخشونة (الحرير والخيش)، وهكذا.

ج ـ مقارنة الموضوع بالموضوع، وذلك من حيث المعنى، والفلسفة، والمبادىء، والاهداف، والقدرات والاستعدادات، اى مقارنة المفهوم بالمفهوم، والشىء بالشىء ذاته، لا ان يقارن الشىء بالاخر الذى لاخصائص ولاصفات تربطه به، فتقارن المهنة بالمهنة، والسبب بالسبب، والنتيجة بالنتيجة، والجنس بالجنس (السامى، والماغولى، والآرى) والسلطة بالسلطة، والاقتصاد بالاقتصاد، وهكذا.

تهدف المقارنة الى التقريب او التبعيد وفق المقاييس المقارن بها، فإذا قارن الباحث بين ذئب وكلب فيجوز ذلك من حيث الشكل المتقارب الى درجة عدم التمييز بينهما احيانا، ولكنهما يختلفان فى الخصائص والصفات، ولهذا مهما قارن بينهما لن يكون الكلب ذئب ولا الذئب كلب، لأن المقارنة الموضوعية والعلمية تكون بين خصائص وصفات مشتركة، لا بين الاشياء المنفصلة. ان موضوع المقارنة كاسلوب علمي دقيق، يهدف كذلك الى ابراز نقاط التوازن، والاتفاق، والاختلاف، ولذلك قد تستوجب المقارنة ايجاد ميزان او موازين للتعرف على كميات او كيفيات، فالاول يعتمد على مقارنة المشاهد بالمشاهد، والمحسوس بالمحسوس، والثاني مقارنة المجرد بالمجرد. ويتم التعرف على المشاهد والمحسوس والمجرد فى وقت واحد بالملاحظة.

(انظر فصل الملاحظة).

مثلث التحليل العلمى :

(الانا، الذات، الموضوع).

لا يكتمل التحليل العلمى الابإكتمال المثلث المتكون من الانا، والذات، والموضوع، ولتبيان ذلك اوضح كلا منها وفق الاتى :

1- الانا:

الانا هو ضمير يعود على من ينطق به، فأنا يشير الىّ وانت تشير اليك، وهم تشير الى من لم يكن انا وانت، ونحن تحتوينا، وتستثنى غيرنا. وترتبط الانا بالانانية عندما تخرج عن الذات والموضوع، وتوصف فى هذه الحالة بالانحياز الذى ينحرف بأحد اضلاع المثلث او يلغيه مما يجعل شكله ناقصا وغير متكامل، فتتغير صورته نتيجة اظهار السلوك الانانى على حساب الاخرين الذين لهم الحق فى الوجود او الظهور المثبت. وترتبط الانا بالشخصانية، والفردية، عندما تنفصل عن الموضوع والذات، وترتبط بهما عندما تنفصل عن الانانية والشخصانية والفردية، التى تنحرف بها عن ضلعيها اللذين تكتمل بهما.

وتؤكد العلوم الاجتماعية على ان الانسان اجتماعى بطبعه، ولهذا لايستطيع الاستغناء عن المجتمع الذى يولد فيه او ينتمى اليه، نتيجة قدراته المحدودة التى لا تمكنه من الاعتماد على نفسه وتجعله فى حاجة ضرورية للحماية والمساعدة من اجل البقاء، واذا تعرف الانسان على حدوده واسباب وجوده وما يحيط به، ولم يتجاوز ذلك عندما يمارس حقوقه وفق قدراته واستعداداته ومواهبه يكون فردا اجتماعيا. ولذلك اتساءل لماذا يود البعض ان يظهر شُخصانيته وانانيته على حساب المجتمع الذى ولد فيه بعد ان خلق كإنسان قاصرعن العيش بمفرده وبمنعزل عن بنى جنسه؟. اعتقد ان سبب

ذلك هو وجود الفروق الفردية التى جعلت لكل فرد منا طابعا يميزه عن غيره، ولا يمكن ان يتكرر الانسان فى خلقه ولايمكن ان يكون نسخة لغيره او يكون غيره مماثلا له، مع ان البشر جميعهم مخلوقون من نفس واحدة كما يقول الله عز وجل : " **يايها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك**"(2).

فالانسان الذى عصى الله الذى خلقه لايستغرب منه ان يعصى المجتمع الذى لم يخلقه، نتيجة الانانية والشخصانية والفردية التى انسته من هو؟. ومن الذى خلقه؟. ولماذا خلقه وهو فى حاجة الى من يقوم برعايته؟. . اذا تمسك الفرد بانانيته ولم يتخط حدودها معنى ذلك انه تمسك بقيمه التى يقرها المجتمع، اما اذا تجاوزها يدخل فى منطقه النزاع مع الاخرين المدافعين عنها بإعتبارها حقا لهم، ومن هنا يبدأ الصراع بين الممتد خارج حدوده، وبين المندحر داخلها. ولذلك تتكون الانانية او الشخصانية عندما يطمع الفرد فى حقوق غيره، اما اذا تمسك بحقوقه وحب اناته ولم يتجاوزها فإن ذلك يعنى انه لم يكن انانيا او شخصانيا، بل انه الانسان المثال الذى يتوحد المجتمع فيه، ويجعله اجتماعيا بطبعه، نتيجة تيقنه بحقوقه وتمسكه بها، واعترافه بحقوق المجتمع عليه وتأديتها.

تعتبر القيم العنصر الاساسى الذى يميز الانسان الانانى او الشخصانى (السالب) عن الانسان الاجتماعى (الموجب) فإذا كان تقييم الفرد للأشياء المشتركة بمنظور الانا كان الفرد انانيا وشخصانيا، وإذا كان التقييم للاشياء والظواهر بمنظور المجتمع كان الفرد اجتماعيا (ذاتيا) ولم يكن انانيا، وإذا كان تقييم الاشياء بمعطياتها كما ظهرت فى الموضوع كان الفرد موضوعيا،

---

(2) سورة الانفطار، الاية، 6، 7.

لان الانا تنفصل عن الموضوع، اما الذات فإنها ترتبط به. اذن، هناك علاقة تداخل قيمي بين الانا، والذات، والموضوع، بالموضوع يمكن ان يكون الانسان أنانيا ويمكن ان يكون ذاتيا، فالتنشئة كموضوع وحسب فلسفتها قد تجعل من الفرد انانيا او ذاتيا (اجتماعيا) وهكذا الفرد قد يؤثر في المجتمع بانانيته سلبيا نتيجة تمسكه بالانا، وقد يؤثر فيه بموضوعيته إيجابيا نتيجة عدم انفصاله عن الموضوع، وعن الذات. الانا كعنصر مستقل تعني الفردية كبؤرة اهتمام، وعندما ترتبط بالموضوع تصبغه بطابعها فيكون انانيا او شخصانيا، وذلك لظهور نواياها الخاصة او اطماعها الخاصة سواء كان هذا الطابع فرديا او اسريا او قرابيا، فإذا كانت المصلحة فردية، كان الانا فرديا، وإذا كانت المصلحة اسرية او قرابية، كانت الانانية بإظهار الانا لها على حساب الاخرين. ولذلك لم تتكون الانا من حب الذات كما يعتقد البعض، بل تتكون من الانعزال عن الذات والموضوع، نتيجة التحيز الشخصاني بظهور الانانية. وبناء عليه، ان التحليل العلمي الذي يتاثر بالانا الطامعه المنعزلة عن الذات والموضوع، هو تحليل شخصاني واناني لايقره العلم. ولذلك يحدث مايسمى بحوار الذات الذي تثيره الحاجة وتدفعه الاماني، فإذا تجاوز الانا حوار الاشباع، كان الانا شخصانيا، وإذا التزم بحدود الاشباع كان الانا ضمائريا وموضوعيا، وواعيا بحدوده وملتزما بها وغير طامع فيما هو خارج عنها، ومعترفا بانها الحق.

(الانا) لم تكن عيبا اذا لم تتجاوز حدودها على حساب الاخرين بل ينبغي التمسك بها كطابع مميز بين الافراد والجماعات والمجتمعات، لان كل (انا) خلقت متميزة عن غيرها، وبالتالي ينبغي التمسك بما يميزها والمحافظة عليه، وبما ان كل (انا) متميزة عن غيرها اذن الكل متميز بما يمتاز به، والتمسك بالميزات يعني التمسك بالقيم الخيرة، فللانسان (انا) خاصة ينبغي

التمسك بها وهى الانـسانية فيه، والانسانية لم تكن ملكيـة فردية بل انها ملك عام تتجسد فى الفرد حتى يصبح انسانيا بطبعه، ولذلك عندما تتوحد الانسانية فى الفرد يصبح انسانيا، واذا لم تتوحد الانسانيـة فيه كفرد يكون أنانيا بخروجه عن حدود (انا) نتيجة مصلحة خاصة او طمع فى شىء هو حق لغيره. وتكون الانا الخيرة هى التـى تقف عند حدودهـا ولا تمتد طمعـا فـى السيطرة علـى حقـوق غيرهـا، وتوصـف بانهـا مثـال ينبغـى الاقتـداء بـه، من اجل المجتمـع الانساني. وهذا يسـتوجب ان تسيطر كل انـا علـى اناتهـا ممـا يجعل الجميـع مسيطرين على اناتهم، وإذا سيطر الجميع على اناتهم بقيم تجعل منهم مثـالا يعنى ذلك قيام الذات الواحدة، التى يكون التمسك بها حقا على الجميع وحسـب قدراتهم واستعداداتهم وحاجـاتهم، لانهـا ملكيـة عامـة توحدت فـى الانـا بقيـم المجتمع مما يجعل الدفاع عن الحق المشترك او الملكية المشتركة دفاعـا عـن الانا المثال (النفس)، وهكذا ينبغى ان تسيطر (الانا) على ماتمتلكه كمـا يسـيطر الله على ملكه. ويكون الفرق واضح بين الانا والانانيـة، لان فـى الانـا العـزة والانفة، نتيجة التزامها، وفى الانانية الطمع، والتعصب للبـاطل، والحيـاد عـن الحق. ويكـون الانسـان كفـرد مثـالا عندمـا يتمسـك بالانـا الملتزمـة بكبريائهـا الانسانى الذى يقـدس قيمـة الانسـان. ويكـون الانسـان ذاتـا عندمـا تتوحـد قيـم المجتمع فيـه ويلـتزم بهـا فتكـون امانيـه مـن امـانى المجتمـع وآلامـه مـن آلام المجتمع. ويرتقى الانسان الـى ان يكـون امـة بحالهـا تتوحـد خصـائص الامـة وامجادها وعزتها واماله فيه، فيحس باحساسها نتيجـة اشتمال فضائلهـا فيـه، وهى لا تكاد توجد الا متفرقة عند غيره، ولهذا كان ابراهيم الخليل امـة لانـه القدوة الحسنة لبنى قومه باشتمال قيم الامة الفاضلـة فيـه " **إن إبراهيم كـان امـة قانتا لله** "(3).

---

(3) سرة النحل، الآية، 120.

اذن الذى يحدد الانانية او الذاتية هو الاطار المرجعى، فإذا كان الاطار المرجعي انانيا، يظهر دور الانا على حساب قيم المجتمع او الامة الفاضلة، وإذا كان الاطار المرجعى جماعيا او مجتمعيا يظهر دور الذات المستوعبة لطموحات الانا من خلال القيم المشتركة بين افراد المجتمع. ولهذا يمكن ان يكون الانا اى شيء له قيم ولكنه لا يمكن ان يكون الله جل جلاله لان الله هو. هو الواحد، هو الملك، المتعال، المهيمن، العظيم، الجبار، الرحمن، الرحيم، الودود، وكل الاسماء الحسنى هو.

2- **الذات:**

ترتبط الذات بالمفرد المؤنث، وتحتوى على المختزل المذكر والمؤنث، كما تختزل الدار كمؤنث على الحيطان المذكرة المتكونة منها والتى اعطتها صورتها الكاملة، وكما يحتوى جسد الانسان المذكر على اعضاء مؤنثة، كالعينين، والاذنين، واليدين، والسرة، والرقبة، وهكذا جسد الانسان المؤنث، يحتوى على اعضاء مذكرة، كالراس، والساقين، والذراعين، والقدمين، والقلب، وغيرها. وهكذا خلق الله الذكر والانثى " **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض** "(4).

تتكون ذات الانسان من قيم المجتمع، من اوامره ونواهيه، مما يحب ومما يكره، ولذلك عندما تتوحد آمال وآلام المجتمع ودينه فى الفرد الى درجة تتساوى كفتا الحياة والموت عنده، يكون الفرد مجتمعا باسره، او امة بكاملها نتيجة بناء الذات العامة فيه مما يجعل لسانه لسانها وسلوكه سلوكها. وهكذا تكون وقفة العز من اجل الامة، لان الحياة الخيرة وقفة عز، اما الحياة

---

(4) سورة يس، الاية، 36.

الشخصانية هى حياة الطمع التى تمرّغ القيم فى التراب، وترفع الزبالة فوق الرؤوس. ولذلك، الذات عندما تتكون فى الانسان باماني المجتمع تزيل عنه الانانية وتغرس فيه الامة بقيمها مما يجعل الفرد منا امة، وتكون الامة فردا بذاته، وليس باناته. ولكن اتساءل من الذى ينقل الفرد من الانانية الى الذاتية؟. نعرف ان الفرد يخلق ويولد، والانانية والذاتية تعلم وتكتسب، والمجتمع هو المسؤول عن ذلك. اذن للمجتمع موضوع يطبع افراده به وإلا لماذ كان البعض انانيا؟. والبعض الاخر ذاتيا؟. كل ذلك يرجع الى الموضوع الذى ينطبع الفرد به، فإذا تشرب الفرد قيم المجتمع الخيرة كان ذاتيا، وإذا لم يتشربها لن ينطبع بها ولا يمتاز بها، مما يجعل سلوكه شخصانيا نتيجة تمسكه بمصلحته الخاصة على حساب المصلحة العامة لامته او مجتمعه، فينفرد بانانيته عن الذات العامة التى انطبع الاخرون من بنى امته بها. فالفرد يمكن ان يكون انانيا ويمكن ان يكون ذاتيا حسب تاثره بالموضوع،وعليه ترتبط الانا بالذات وترتبط الذات بالموضوع. ان تمسك الفرد بالدين والعرف واللغة لم يكن تمسكا شخصانيا لانها ليست ملكا خاصا له، ولذلك عندما يمارسها الفرد لوحده وبوعى، فإن سلوكه هذا سلوك عام، يقوم به نتيجة تمسكه بذات المجتمع الذى طبعه بها عن وعى، لانه يعرف ان ممارسته لها يقدرها الاخرون وتثبت ذاته لان ممارستها لم تكن على حساب احد، كالاكسجين نستنشقه جميعا كافراد ولايحرم منه احد له الحق بالحياة فيه، ولا احد منا يأخذ منه اكثر من حاجته اليه، بل قد يتضايق الفرد عندما يحس او يلاحظ غيره يختنق. هكذا تتكون الذات عندما يحس الفرد بانه المجتمع او الامة، وعندما تحس الامة بانها فرد كوحدة. اذن الذات هى الاحساس بالمساواة والتمسك بها، وبما انها تعبر عن المساواة، اذن لا تحيز فيها، وبما انها كذلك، اذن هى علمية وينبغى ان تراعى، وتؤخذ فى الاعتبار، ولهذا، الاتصاف بالذاتية لم

يكن عيبا كما يعتقد البعض من الباحثين، لان الذاتية ترتبط بالموضوع، ولا تنفصل عنه. ولهذا تعبر الذات المفردة عن نحن الجمع، فالباحث العربى المسلم عندما يجرى بحثا ينبغى الاينسلخ عن عروبته ودينه (عن ذاته)، بل ينبغى ان يتمسك علميا بهما، وما العيب فى ذلك؟. فإن كان هناك عيب فيهما، اذن لماذا التمسك بهما اصلا خارج حدود البحث؟. وإن كان لاعيب فيهما، اذن ينبغى الاعتزاز والتمسك بهما اكثر عند اجراء البحوث النظرية والعملية، وينبغى ان يلتزم بالموضوع، وان لا يكون شخصانيا فى تحليله، وتفسيره، للمعلومات والبيانات. فإذا كان الموضوع على سبيل المثال دراسة ظاهرة السرقة فى مدينة طرابلس، من واقع السجلات الرسمية، وجمعنا المعلومات الكافية لذلك وصنفناها، وبدأنا فى تحليلها، فهل من العيب ان نجرم ظاهرة السرقة عند تحليلها بمنظور العرف والدين، اللذين كونا ذاتنا؟. ولذلك، اذا تمسك الانا بالذات، والموضوع، كان علميا، وإذا انفصل عنهما كان انانيا، ويقول الدكتور على زيعور " لا وجود للذات البحتة بل هناك علاقة دائمة بين الذات والموضوع "(5).

ويتكون الحوار بين الانا والذات على موضوع البحث، فإذا دحر الانا الذات واستقل بالموضوع، كان الانا شخصانيا، وإذا توحد الانا مع الذات حول موضوع البحث، كان الانا ذاتيا، ولذلك تستوعب الذات، الانا، والآخر بالموضوع، وتحتوى عليهما، اما الانا، فإنه يستوعب الذات بالموضوع، ولا يحتوى على الآخر.

---

(5) على زيعور، مذاهب علم النفس. بيروت : دار الاندلس، الطبعة الثالثة، 1980، ص، 136.

3- **الموضوع:**

يكون التحليل موضوعيا عندما يلتزم الباحث بالموضوع، ولايحيد عنه، من خلال المنهج العلمى الذى حدده، وفرضيات البحث واهدافه، والايتمحور التحليل على رؤية الباحث الخاصة، او عواطفه واتجاهته الخاصة، او لمصلحة جهة معينة، او فرد بعينه، بل ينبغى ان يتمحور التحليل على الموضوع الذى تتضمنه الفرضيات حتى وان كانت النتائج المتوصل اليها لا تثبت صحة تلك الفرضيات التى حملته وهنا على وهن. ولذلك ينبغى على الباحث، ان يبين الاسباب التى دفعته الى تحديد واختيار موضوع بحثه، والاهداف التى يسعى اليها، من اجل تبيان القضية التى تربطه بالموضوع، فإذا كانت القضية خاصة بالباحث او ذوى العلاقة به (الذين يتأثر بهم عاطفيا او مصلحيا) فإن الموضوع قد يتأثر بانانية الباحث بدرجة تزيحه عن اتجاهه، فيكون منحرفا، اما إذا تحرر الباحث من سيطرة الانا فتكون القضية التى تربطه بالموضوع علمية فتتجه باستقامة نحو الاهداف العامة.

يتأثر الموضوع سلبا وإيجابا بالمكان كما يتأثر بالانا، فإذا قاس الطبيب مثلا ضغط الدم لانسان ما على قمة جبل مرتفع جدا، ثم قاسه على مستوى سطح البحر، ثم قاسه تحت سطح الماء، فإن الطبيب سيلاحظ اختلافا فى ظغط الدم لنفس الحالة، وللمكان تاثير ايضا حتى على ممارسى الرياضة فعندما يلعبون على ارضهم قد تكون نتائجهم افضل مما يلعبون على ارض الخصم، ولذلك ينبغى على الباحث ان يراعى تأثير الظرف المكانى على المعلومات والبيانات اثناء التحليل الموضوعى.

وينبغى ان يراعى الباحث التحليل الزمانى للموضوع، حتى لا يقيم موضوعا ما وقع فى زمن ما بنظرة زمن اخر، لان لكل زمن ظروفه الخاصة التى تميزه عن غيره من الازمنة، ولذلك تختلف معطيات الزمن من

وقت لاخر، مما يحث الباحثين على الإلتزام بالتحليل الموضوعى للفعل او السلوك او الظاهرة فى زمن حدوثها، مع مراعاة المتغيرات التى استجدت، والتى اثرت على الحياة الحالية بشكل اكثر او اقل سلبية. فالزمن الذى ظهر فيه سقراط وفلسفته يختلف عن زمن الفارابى، وزمناهما يختلفان عن زمن الثورة الفرنسية، والزمن الحاضر تختلف معطياته عن الزمن الماضى باسره، مع ان الافكار قد تكون متصلة، مما يجعل للزمن اثرا على تطور الفكر من خلال المتغيرات التى تطرأ عليه، وبناء عليه، ينبغى ان تحلل الافكار وفق معطياتها فى الزمن الذى وقعت فيه لا بمنظور الوقت الحاضر الذى ظروفه ومعطياته تختلف عن ظروف ومعطيات الزمن الماضى، وإذا كان التحليل من اجل المقارنة فينبغى الا نهمل الإيجابيات التى ظهرت او وصلنا اليها فى الزمن الحاضر، والتى اغفلت او لم تكتشف فى الماضى. اذن عند تحليل المعلومات والبيانات ينبغى ان يراعى الموضوع من حيث تأثير السابق على اللاحق، وتأثير اللاحق على السابق، فإذا كان الموضوع على سبيل المثال هو المدينة الفاضلة، فإن تناول هذا الموضوع يتطلب العودة الى الماضى الى زمن سولون وسقراط وافلاطون والفارابى، من اجل ربط اللاحق (الذى يقع فى الزمن الحاضر) بالسابق. او من اجل ربط السابق، باللاحق، وهو ربط الآراء التى طرحت عن المدينة الفاضلة، بالاراء التى تطرح الآن(6).

ان التحليل الموضوعى هو التحليل بالماصدق، لا بتركيب المقدمات المتضمنة لنتائج المنطق الارسطاطاليسى والتى قد تفتقد الى الماصدق احيانا،

---

(6) محمد وقيدى، بناء النظرية الفلسفية. " دراسات فى الفلسفة العربية المعاصرة " بيروت : دار الطليعة، 1990، ص 74 ــ 78.

فإذا قلنا على سبيل المثال ان كل الحيوانات تخاف الاسد

واللبؤة حيوان

اذن اللبؤة تخاف الاسد

هذه النتيجة لا ماصدق لها لان الحيوانات تخاف الاسد، الا اللبوة فإنها لا تخافه، بل تعاشره بود، ويحدث بينهما الجماع الفطرى، الذى تنجب من بعده اللبؤة شبلا يكون من بعد اسدا عظيما بعاطفة اللبؤة.

ولذلك ينبغى ان يكون تحليل المعلومات بالمثبت لا بالمتوقع، لان المتوقع شكى، اما المثبت فيقينى، فعند تحليل القضايا العلمية يكون الاستشهاد عليها بالمثبت، لا بما يحتاج الى اثبات، البرد، والحر، والمطر والزلازل والزواج، والطلاق مثبتات، ولكن هل غدا سيهطل المطر، او يكون الجو باردا او حارا؟. وهل غدا سيحدث زواج او طلاق؟. كل هذه تحتاج الى اثبات بالمثبت.

التحليل الموضوعى هو تحليل غير مقفل لانه قابل للجديد مما يجعل احكامه غير مطلقة، ولا نهائية الا بالمثبت ولذلك لم يضع التحليل الموضوعى سقفا للتفكير الانسانى المبدع، لان الاحكام المطلقة فى الزمن الحاضر قد تقع فى شك الزمن المستقبل، وان ما نصل اليه اليوم من نتائج اكتشافات لم تكن نهاية المطاف العلمى، بل انها استمرارية لما سبق، ونقطة انطلاق لما قد يقع من ابداع واكتشاف، واختراع بالبحوث العلمية الجادة. والتحليل الموضوعى هو الذى لاتوضع امامه اشارة قف، بل يفسح المجال امامه من اجل اكتشاف العلاقات بين المتغيرات التى تؤثر فى الموضوع، لان كلمة ممنوع لاينبغى ان تكون فى قاموس التحليل العلمى، حتى وان قبل بها القاموس السياسى.

يعتقد بعض الباحثين الاجتماعيين فى الموضوعية لدرجة وضعها مثالا لايساويه شيء فى الماصدق، حتى ظننا ان الموضوعية هى البيت الذى

لم يسكنه الانسان بعد، نتيجة شك البعض فى الانسان وثقتهم فيه. وهنا اتساءل هل يحق لنا فى الوقت الواحد ان نشك فى الانسان ونثق فى الموضوعية؟. إذا كانت الإجابة بنعم. فإن ذلك يعنى ان الموضوعية لاترتبط بالانسان على الاطلاق، ولهذا لم تكن صفة انسانية، ولا علاقة لنا بها، وبالتالى سقطت اشتراطاتها علينا. وإذا كانت الإجابة بلا، فإن ذلك يعنى لا ثقة فى الموضوعية من غير الانسان، ولهذا لا يمكن ان يكون الانسان موضوعيا إذا لم نضع الثقة فيه، وعليه تكون الثقة فى الانسان لا فى الموضوعية التى تكون على حسابه. والانسان كما سبق ان ذكرنا هو الذى خلقه الله فى احسن تقويم كصورة وجوهر وشكل يحتوى على مشاعر واحاسيس راقية، وقيم خيرة تستوعب العرف والدين فتشكل الشخصية الانسانية والاجتماعية، وإذا كان الامر كذلك فهل من الموضوعية فى شىء ان يتخلص الانسان من قيمه التى بها يعتز، لكى يوصف من قبل البعض بانه موضوعى؟. يرى البعض ان ذلك صواب من باب الامانة العلمية، وكأنهم يقولون له انسلخ عن كل مافيه عزة لك لكى تصبح انسانا علميا، وكأن العلم ضد الاعتزاز بالقيم التى ترسم مقاييس السلوك البشرى، والتى تحتكم المجتمعات اليها. انه لاعيب ان يتمسك الانسان بقيم امته التى تشكل كبرياءها، وعزتها، بل العيب ان يتم الانسلاخ عنها، من اجل مصلحته الخاصة التى تجعل منه انانيا وشخصانيا، فالذى يتمسك بالعروبة والدين الاسلامى، لم يتمسك بمصالحه الخاصة، بل بما يرتضيه الجميع الذين ينتمى اليهم. وبما ان البحث العلمى يستهدف الجميع، إذن التمسك بمصلحة الجميع، لم تكن عيبا، لانها لم يكن على حساب احد. ولذلك ينبغى ان يكون الباحث محترما وغير شخصانى. وإذا تساءل البعض هل يمكن ان يكون الباحث العربى المسلم محترما وهو منسلخ عن عروبته ودينه؟. تكون الإجابة بلا، لان انسلاخه عنها قد يعنى انحيازه للاخر الذى

تربطه به المصلحة، او العاطفة، او نتيجة لسذاجته وتغفله عن فلسفة العلم التى تؤكد قيمة الانسان، من خلال قيم امته ومجتمعه الذى ينشأ فيه، ومن باب الموضوعية حسبما يتطلبه العلم، الا يغفل الباحث عن استطلاع الدراسات السابقة، لانها تربطه علميا مع الذين سبقوه فى ميادين المعرفة، وتمكن بحثه من اخذ مكانه بين البحوث التى سبقه بها الاخرون، بإعتبارها تشكل له خلفية علمية هامة لا يمكن التغافل عنها، وهذا لايعنى اخذ ما فى المراجع واهمال المصادر التى اخذت منها، وبما ان الثقة دائما فى المصدر، والمصدر فى العلوم الاجتماعية والانسانية هو الانسان، إذن من الموضوعية ان نثق فى الانسان. وهذا لايعنى ان كل مايقوله الانسان صوابا، بل مايقوله يحتاج الى التأكد من مصداقيته، لان مايقال احتمالى الحكم، ولم يكن قطعى الحكم، فقد يكون الانسان كاذبا، وقد يكون صادقا حسب علاقته بالموضوع، فإذا كانت علاقته به خاصة ومبنية على العاطفة والمصلحة، قد يكون الانسان لا ماصدق له، وإذا كانت علاقته به علمية (من اجل الجميع) فإنه يكون صادقا. وبما ان التحليل العلمى يعتمد على نظريات، وقوانين، ومعطيات وفلسفات، فى براهينه واحكامه، إذن لايمكن ان يكون الباحث موضوعيا وهو متجرد من هذه القيم الاجتماعية، مما يجعلنا نقول ان الموضوعية هى التمسك بالقيم الاجتماعية الخيرة، لا بالتخلى عنها. وهنا ايضا اتساءل : هل من الممكن ان يكون بحاثنا مبدعين دون ان يتركوا لنا بصماتهم العلمية؟. إذا كانت الإجابة بلا إذن اعترفنا بان للافراد المبدعين بصمات تميزهم عن غيرهم. على اعتبار ان العلم يتطور بجهود الافراد ذوى القدرات المبدعه. وهكذا المجتمعات الراقية دائما تطلب من بحاثها ان يتركوا بصماتهم العلمية التى تتولد من افكارهم دون سيطرة الانا عليها بالكبت، او بإبراز الجانب الشخصانى، على حساب الموضوع. اذن فى مثل هذه الحالة، لايمكن ان

يتجرد الموضوع عن دور الباحث، لانه إذا تجرد عن دور الباحث كان موضوعا بلا بصمات، والموضوع بلا بصمات يكون بلا هوية، وإذا كان كذلك يصعب التعرف عليه، لانه مجهول، والعلم هو المعلوم لا المجهول. أما إذا كانت الاجابة بنعم، فاتساءل : هل يمكن ان تتحقق الابداعات بمنعزل عن بصمات المبدع؟. لا اعتقد ذلك، لان اى ابداع لابد وان يكون من ورائه مبدع (صاحب البصمات)، ولهذا، الإبداع دائما نتاج بصمات المبدع، والموضوعية فى هذه الحالة لاتعنى ان يتجرد الباحث عن موضوع بحثه، بل ينبغى ان تكون بينهما وحدة علمية، حتى لايطمس الموضوع ذات الباحث، ولاتسيطر انا الباحث على الموضوع، وتظهر على حسابه. واتساءل : هل يمكن ان يكون الباحث موضوعيا، وهو متخلص مما يميزه عن غيره من فروق فردية؟. وعن ذات المجتمع الذى ينتمى اليه؟. اعتقد انه من غير الموضوعية ان نحكم على جميع الافراد بانهم متساوون فى القدرات، والاستعدادات، والمواهب، والميول، والرغبات، لان الانسان خلق ولم يساوه احد، او يماثله احد، فى خصائصه، وصفاته التى بها يمتاز عن غيره، كما يمتاز عن غيره ببصماته التى لا يماثله احد فيها، ولذلك تكون الوحدة العلمية هامة بين الباحث والموضوع، مما يستوجب على الباحث ان يترك بصماته العلمية على الموضوع الذى يتولد من افكاره، او الذى يلتزم البحث فيه. فإذا درس احد البحاث حالة فردية لموضوع الانحراف، وكان الباحث على خلق عظيم والمنحرف لا اخلاق له، فهل من الموضوعية ان يتخلص الباحث من قيمه الخيرة، ولايترك بصماته الحميده على الموضوع؟. إذا انسلخ الباحث عن قيمه التى بها يعتز انسانيا واجتماعيا، يعنى انه قد يكون مثل المبحوث (المنحرف) لا اخلاق له، وفى هذه الحالة يحتاج لمن يتولى حالته بالبحث والدراسة. وإذا اجزنا ذلك يعنى ايضا اننا نقر عند دراسة الحالات المنحرفة

ان يكون الباحث ايضا منحرفا مثله مثل المدروس (المنحرف) الذى تجرى الدراسة عليه، لكى يكون باحثا موضوعيا، وهكذا عند دراسة ظاهرة السرقة يكون الباحث سارقا، وعند دراسة الجريمة يكون الباحث مجرما، من اجل ان يقال عنه انه موضوعى. كل هذا جعلنا نقول ينبغى ان تكون هناك وحدة بين الباحث والموضوع، وان بصمات الباحث العلمى، لم تكن خارجة عن الموضوع، ومن الموضوعية الا يتجرد الباحث من قيمه الخيرة التى يعتز بها.

الموضوعية ظاهرة اوحالة علمية ترتبط بالموضوع فتأخذ صفتها منه، والباحث الموضوعى هو الذى يلتزم بالموضوع اثناء الدراسة والتحليل (التشخيص) والعلاج، برؤية علمية تبرز ابداعاته ومواهبه التى لاتسمح للانانية والشخصانية بالظهور على حساب الذات العامة للمجتمع. فإذا انتشرت رقعة الموضوعية بين البحاث العلميين كانت ظاهرة او حالة، وإذا انتشرت الانانية بين البحاث اصبحت هى الاخرى ظاهرة، وإذا انتشرت الذاتية على حساب الموضوع كانت هى الاخرى ظاهرة. إذن هذه ظواهر، ولم تكن اساليب كما يعتقد البعض، وتكون علمية عندما تلتزم بالموضوع، وتكون انانية او شخصانية عندما تنفصل عنه(7).

تفسير المعلومات والبيانات

بعد ان تتم عملية تحليل المعلومات والبيانات، يصل الباحث الى نتائج علمية، او مقترحات عملية، قد تفيد الذين اجريت الدراسة او البحث من أجلهم

---

(7) الموسوعة الفلسفية. وضع لجنة من العلماء والاكادميين السوفياتيين، اشراف م. روزنتال، ب. يودين، ترجمة " سمير كرم، الطبعة الخامسة، " بيروت : دار الطليعة، ص 510.

وهذه تحتاج الى تفسير، يبين العلاقات بينها وبين ظرفها الزماني، والمكاني، التي ظهرت فيهما، والمعطيات التي كانت وراءها، والمتغيرات التي اثرت فيها تأثيرا مباشرا، او غير مباشر. ولذلك يكون التفسير هو تعليل الباحث لبراهينه العلمية، واستنباط الدلائل منها، بالانتباه الجاد والتتبع الدقيق، لكل ملاحظاته وشواهده التي تم التوصل اليها، والتعرف عليها. ويعتمد التفسير على قدرات الباحث، وتخصصه، وخبرته، ومدى مصداقية المعلومات والبيانات المتحصل عليها، حتى يكون قادرا على التمييز بين الاثار المباشرة وغير المباشرة التي كانت وراء الظاهرة او موضوع البحث سواء كانت ذات تأثير موجب، او سالب على الموضوع. ويستمد الباحث تفسيره من صلب الموضوع ومن خلال عوامله، وعناصره، وتصنيفاته، ونتائجه.

وعلى اية حال التفسير عملية فكرية تتأثر بقدرات الباحث، واستعدادته، ولهذا يختلف المفسرون فيما يفسرون احيانا، بإختلاف ثقافاتهم، ومهاراتهم، وفطنتهم، ودرجة المامهم بالموضوع، الذي يخضعونه للتفسير. ومع ان التفسير وفق المعلومات الا انه استنتاجي نتيجة تأثره بالقدرات العقلية للانسان الباحث، وبما انه استنتاجي، اذن قد يكون صائبا وقد لايكون.

وبتعبير آخر يهتم التفسير العلمي اولا بالنتائج وعلاقتها بالموضوع، وثانيا علاقة الموضوع، ونتائجه بالنظريات السابقة، وثالثا ارتباط النتائج بالاطار المرجعي الذي اثر تأثيرا مباشرا، او غير مباشر في الدراسة او البحث، ورابعا علاقة النتائج بالمستهدفات التي دفعت الباحث الى اجراء البحث او الدراسة. وعليه التفسير هو محاولة الإجابة على السؤال لماذا؟. وكيف؟. لماذا كانت هذه العلائق، وكيف ظهرت؟.

الفصل الثانى عشر

الاتجاه الامبريقى بين النقد والمسلمات

الاتجاه الامبريقى بين النقد والمسلمات :

لقد اشتد الخلاف علميا منذ زمن بين علماء الاجتماع على بعض الاستعمالات العلمية للاتجاه الامبريقى ومفاهيمه المستخدمة فى طرق البحث الاجتماعى فكان منهم المؤيد وكان منهم المعارض له.

مما حفزنا على دخول هذا الجدل العلمي دون تعصب لآرائنا، فاتحين المجال أمام مؤيديه أو مخالفيه بالرد علينا لكى تزداد معارفنا وعلومنا، خاصة وأن انتقاداتنا ليست بمسلمات، وأن الامبريقية لم تكن نظرية ولا مدرسة ولا منهجا متكاملا، بل انها اتجاه أو جزئية دراسة تتبع أثناء الدراسة الميدانية للوقوف على بعض النتائج أو الأفعال، من خلال المشاهدة، للتعرف على درجة نزوعها أو تشتتها أو انحرافها الاحصائى فى دراسة الظاهرة أو المشكلة، وقد تصيب فى تبريراتها وقد تخطيء.

ومن إيجابياتها تمكين الباحث أو الفريق المساعد له من استخدام وسيلة المشاهدة، وتمجيد التجريب الاختبارى، وان كانت لا تجيده فى العلوم الانسانية والاجتماعية، لها أيضا عيوب كثيرة، لا يمكن غض النظر عنها أو تبريرها، وهى التى يمكن تحديدها من خلال التحليل النقدى فى النقاط الآتية:

المشاهدة والملاحظة :

تتداخل مفاهيم المشاهدة والملاحظة عند بعض أساتذة علم الاجتماع فى صياغاتهم لكتب طرق البحث مما جعل الامبريقيين رهينة هذا التداخل، والذى يستوجب تبيانه وفق ما تعنيه المشاهدة والملاحظة:

أ – المشاهدة :

هى الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته، أنها مقتصرة على العين فى رؤية السلوك. أو الشيء المشاهد، ونسب التغيير فيه، وتمكن الباحث من الوصف لما يشاهده. وتهتم بدراسة الظاهر دون الكامن.

ب – الملاحظة :

هى الربط بين المشاهد والمسموع أثناء القيام بالدراسة أو البحث فى السلوك أو الشيء الملاحظ. أنها الاداة المستعملة لحاستى العين والأذن عن طريق العقل فى وقت واحد، فيلاحظ الانسان بأذنيه كما يلاحظ بعينيه ولكنه لا يستطيع المشاهدة بحاسة السمع مع مقدرته على الشهادة بها. وهناك فرق بين المشاهد، والشاهد، ولا استطيع القول جازما بأن الامبريقى أصم، ولكنه يجوز أنه وقع بين تضليل المفاهيم مع أنه لا معذرة لباحث أو دارس لم يحدد مفاهيمه البحثية مما جعل الامبريقيين مشاهدين وغير ملاحظين، بالرغم من أنهم يستعملون كلمة الملاحظة، إلا أنهم لم يستعملوا ما تعنيه نتيجة اقتصارهم على المشاهدة. وكأن ما يشاهدونه وليد الساعة وليس نتيجة أسباب متداخلة قد تكون ظاهرة وقد تكون كامنة، حدثت فى الماضى. ولأن أصحاب هذا الاتجاه يعتمدون على المشاهدة فإنهم يصفون الظاهر ولا يتمكنون من التفسير السببى. وبعض دراسات الجريمة مثلا تحدد مواصفات للمجرم (بنيته، شكل رأسه، وشعره، وأنفه ... الخ) إلا أنه ليس بالضرورة كل من يظهر شكله كذلك بأنه مجرم. وهكذا الاتجاه الامبريقى يهتم بالشكل دون الجوهر فى الوقت الذى لا يعبر الشكل أحيانا عن الجوهر. وحتى وان عبر، فإن العينة التى يركز عليها الاتجاه الامبريقى فى الدراسة لا تمثل إلا ذاتها.

ومع أن للعينة عيوبها المجمع عليها إلا أنها تعتبر أهم مصدر تستند عليه الدراسات الامبريقية معلله ذلك بصعوبة دراسة المجتمع. وحتى وإن سلمنا بهذه الصعوبة فإن الأصعب من ذلك أن نصف الدراسات والبحوث القائمة على العينة بأنها علمية ونعمم نتائجها على آخرين مع أنه لم يكن لهم رأى فى تلك المعلومات الناتجة عن العينة المنتقدة من قبل علماء الاجتماع. فكيف من جهة نسلم بأنها لها عيوبا كثيرة ومن جهة أخرى نطالب بتعميم نتائجها على الآخرين ونعتبرها أفضل ما يمثل المجتمع؟.

تتأكد الامبريقية باستخدام وسيلة المشاهدة أى بما تلمسه أو تشاهده من خلال وسيلة جمع البيانات، وتثق كثيرا فى المعلومات المجمعة عن طريقها. نعم أهميتها كبرى، ولكن الشك كبير أيضا فى صحة المعلومات. ولهذا، الاعتماد عليها لا يحمل المصداقية فى رسم الخطط ومعالجة الظواهر والمشاكل، وإلا لماذا تتكرر نفس الظواهر والمشاكل وتتخبط وتفشل الخطط مع معرفتنا بدور المتغيرات فى ذلك إلا أننا لا نجهل التعمد أحيانا فى تصنع السلوك المشاهد مع معرفتنا بأدوار وتنوع الملاحظة، لأن النتائج المتوصل اليها غير مرتبطة بعلل وجودها أحيانا مما يجعلها لا ترتبط بالواقع ومما يجعلنا نشجع تداخل المناهج فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وهكذا، إذا تناولنا الاستبيان أو المقابلة مثلا وتطبيقها على عينة أو عينات خاصة، فإننا سنقع فى نفس الاشكالية إذا لم يحدد الباحث مفاهيمه المستعملة فى الدراسة والبحث.

مثال (1) :

لو اختار الباحث عينته النسبية، وفق التكوين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع وتقسيمه الجغرافى، من الفلاحين، فهل يعتمد الباحث أثناء ملء استمارة بحثه أو مقابلته على مالك الأرض الزراعية أم على العامل الذى يبذل

الجهد الانتاجي لصالح المالك؟. وهل فى هذه الحالة يكون الفلاح هو مالك الأرض؟. أم باذل الجهد الفلاحى (العامل) هو الفلاح؟.

فإذا قاس الامبريقى الجهد بالانتاج يكون باسم المالك، وعليه قد يفسر هذا الباحث بأن المزارع (مالك الأرض) منتج وفلاح ناجح وفق النتائج المجمعة عن طريق احدى وسائل جمع البيانات والتى تسجل باسم مالك المزرعة. وحسب المقابلة يتضح أن الانتاج الزراعى ليس من جهد المالك بل يجوز أنه لا يعرف الفلاحة مطلقا. وهنا يظهر الفرق بين الباحث العلمى والباحث الامبريقى، فالباحث العلمي يسند الانتاج الى المنتج والصفة الفلاحية للفلاح وليس لكل مالك مزرعة. أما الامبريقى قد يصف المالك الذى لا يعرف الفلاحه وفق الانتاج من مزرعته بأنه فلاح مجد ومنتج فى الوقت الذى ليس له علاقة بذلك.

مثال (2) :

قد يلاحظ الباحث أثناء دراسته الميدانية للمزرعة بأنها كثيرة الانتاج وأن أشجارها مروية ومعالجة من الأمراض وأن الحيوانات بها متنوعة ومسمنة إلا أنه عند تجميع البيانات والاحصاءات المتعلقة بها قد لا يتحصل عليها من قبل العامل أو العاملين فيها باعتبار ذلك من اختصاص المالك، مما يجعل البحث عنه والاتصال به ضرورة، وعند ملء الاستمارة ومع توضيح الهدف من البحث أو الدراسة قد يعتمد المالك اعطاء معلومات مضللة احصائيا فإذا اعتقد بأن الدولة ستشجع الفلاحين سيبالغ فى المعلومات بشكل كبير وإذا اعتقد بأن الدولة قد تزيد الضرائب على المزارعين وما يمتلكونه من حيوانات وأشجار وهكتارات زراعية، فإنه قد يخفى بعض الحقائق عن ممتلكاته الزراعية. فهل الباحث الامبريقى إذن سيعتمد على ما لاحظه أو ما

جمعه من مغلومات مع معرفته لما بينها من فروق. وهل نثق فى هذه الحالة فى العقل أم فى الملاحظة؟. أى فيما يفسره العقل أو ما تشاهده العين.

فالباحث العلمى هو الذى يفسر ويحلل ويقيم البيانات المجمعة بوسيلة استمارة المقابلة مع ملاحظاته الميدانية.

أما الامبريقى فقد يجد نفسه مع البيانات المتعارضة مع مشاهداته، ومن هنا قد ضل طريقه وإذا تمسك الباحث الامبريقى بمشاهداته المتعارضة مع استمارة المقابلة وأهملها فهل يكون باحثا علميا؟.

أن للملاحظة أهمية علمية فى التعرف على السلوك والأشكال والصور الثابتة والمتغيرة فى دراسة الأفراد والجماعات والمجتمعات، مما جعل البحاث وخاصة الامبريقيين منهم يهتمون بها وكأنها غاية فى ذاتها، عندما يغضون النظر عن أهمية تفسيرها الذى لا يتطابق فيه البحاث، وحتى الامبريقيين أنفسهم، لأن الملاحظة العلمية لا تقتصر على مشاهدة سلوك مجرد بل ينبغى أن ترتقى الى ملاحظة الأثر (الثقافة، والدين، والتقاليد المؤثرة فى القيام بذلك السلوك).

الموضوعية والأنانية :

تلتزم التوجهات الامبريقية بالموضوعية وتدين الذاتية ولا تثق فيها. إنها تريد من الباحث أن يتجرد من صفاته الذاتية من أثر معتقداته، وميوله، واتجاهاته، وأفكاره، أى ينسلخ عن شخصيته لكى يتصف بالامبريقية، وكأنها تشترط الانسلاخ عن المجتمع والتنشئه عبر الزمن. فإذا كان كذلك فإنه لا يمكن للاتجاه الامبريقى أن يوصف بالموضوعية بل يوصف بالاتجاه الأنانى النفعى، وإذا كانت الدراسات والبحوث من أجل المجتمع فينبغى عدم الانسلاخ عن مؤثراته التى قد تكون أسبابا للمشكلة (موضوع البحث).

ويتساءل البعض: هل هناك باحث فى العلوم الانسانية وحتى الطبيعية متخلص من ذاته؟. كلا. خاصة وأن الاتجاهات والمعتقدات والأفكار، والرغبات كثيرا ما تكون وراء اختيارات الباحث لموضوع بحثه. والذاتية ليست تعبيرا عن ذات الفرد، بل إنها المتكونة من التنشئة الاجتماعية ووفق مميزات أو خصوصيات الأمة التى ينتمى اليها الباحث إلا إذا لم يحظ بالتربية فيها.

وإذا تساءل أحد هل توجد ذات بشرية مجردة عن المجتمع بتربية طبيعية؟. لا أعتقد، خاصة وأن لكل فرد بصماته، فما بالك بأمة بكاملها. وتكون الذاتية فى هذه الحالة نتيجة وجود الفرد فى المجتمع، وتعبر عن ثقافة وطموحات وغايات وحاجات قد تكون فردية وبالتالى قد تتحول الى أنانية، وأحيانا قد لا تكون كذلك، ومن هنا ينبغى التمييز بين الذاتية والأنانية.
فالذاتية : هى التى لا تنفصل عن المجتمع، أما الأنانية فهى الخصوصية المتعلقة بهروب الفرد عن نواهى وضوابط المجتمع.

فالانسان يمكن أن يكون أنانيا عندما يتخلص من ضمير الوالدين وضمير المجتمع، ويكون ذاتيا عندما لا يتجرد ولا ينسلخ عن اتجاهات وقيم المجتمع الايجابية، والتى ينبغى له ابرازها دون خوف من اتهامه بالذاتية، بل عدم ابرازها لا يعبر عن واقع ولا قيم علمية. ولذلك ترتبط الذاتية بالموضوعية ولا ترتبط الأنانية بها فيجب أن يكون الباحث موضوعيا، ولا يجب أن يكون أنانيا (شخصانيا)، لأن الانسان لم يكن ذاتيا بطبعه بل اجتماعيا، وبما أنه كذلك، فالذات متكونة نتيجة تنشئته فى المجتمع مما يجعل التحليل والتفسير الذاتى ليس بالضرورة أن يكون أنانيا أو متخلصا من الموضوعية لأن ذاتية الفرد ناتجة عن حياته الاجتماعية مع عدم تخلص الفرد من قدراته واستعداداته واهتماماته الخاصة، نتيجة تطور الحاجات وظهور المتغيرات ذات العلاقة، ومن العيب ألا يتخلص الباحث من أنانيته ولا عيب

فيه إن كان ذاتيا وموضوعيا فى وقت واحد لكى يستنير العلم بأفكاره وآرائه وذلك بتقديمه الأشياء على حقيقتها.

التجريب :

سبق وأن أشرنا الى أهمية التجريب فى الدراسات والبحوث وعرفنا صعوبة ذلك فى العلوم الاجتماعية، من ناحية عدم استطاعتنا التحكم فى أحاسيس ومشاعر وعواطف البشر عن طريق المختبرات والمعامل المستخدمة فى العلوم الطبيعية.

إلا أن أكبر التجارب وأصعبها هى التى يعيشها المجتمع نفسه، فلقد عاشت المجتمعات الانسانية تجارب حياتية صنعت منها حضارات رائدة، فللمجتمع العربى تجاربه، قبل الرسالة وبعدها، أى قبل ادخال متغير الدين ومتغير الوحدة وبعدها. وللمجتمع الرومانى، والأثينى، والصينى تجارب اجتماعية أجريت على مستوى الدولة، تميزت كل منها بظروفها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والعلمية، والثقافية، ولذلك تعتبر حياة المجتمع وممارسته لنوع من الحياة تجربة ينبغى أن تدرس، وتعتبر تجربة علمية لو تمت بالفعل دراستها، وتعتبر أوسع نطاقا من التجارب العلمية التى تجرى على قطة، أو قرد، أو شريحة بصل، أو قطعة قماش، لأن التجربة الاجتماعية بالامكان أن يشترك كل المجتمع فيها، أما الطبيعية فمن غير الممكن حتى الآن أن يستطيع الباحث اخضاعها جملة فى تجربة معملية واحدة، الأمر الذى صار معه التبرير وسيلة للباحث الطبيعى، بان يجزئ وحدات دراسته لإجراء التجارب عليها، ومن حقه تعميم نتائجها لأن طبيعتها واحدة. ومن الممكن أيضا تجزئة المجتمع الى عينات للدراسة وتعميم نتائجها إلا أن ذلك

الاجراء يعتبر تعسفيا لأنه لا يعبر عن المجتمع ولا يمثله، بل يعبر فقط عن العينة ويمثلها، أى أن العينة لا تمثل إلا نفسها.

القياس والكم والكيف :

تعتمد العلوم الرياضية، والاحصائية فى قواعدها على المسلمات فى البرهنة أثناء التحليل والتعليل، وتعتمد الدراسات الامبريقية على قياسات الاحصاء فى دراسة الظواهر والمشاكل الاجتماعية اعتمادا كبيرا معتبرة أن ما يتم مشاهدته هو العلم التام، ولا تؤيد ولا تثق فى التحليل العقلى لربط العلاقات بين المفاهيم والتنظير الذى يستند على مسلمات، وهنا تكمن العلة: هل ترفض الامبريقية العقل وما يولده ويخزنه من أفكار ومعارف؟. أم أنها ترفض البراهين المعتمدة على المسلمات؟. فإذا كان هذا الرفض للتوليد العقلى فمن الأفضل عدم التسليم بكل ما يصل اليه العقل أو يفسره، وإذا أجزنا هذا المنطق فعلى الامبريقيين أن يقبلوا رفض الامبريقية وليدة التفسير العقلى. وإذا كان الرفض للمسلمات فعلينا رفض الرياضيات والاحصاء اللذين تعتمد نظرياتهم على خطواتها ونتائجها العلمية المبنية على المسلمات التى جعلت من العلوم الرياضية أساس الاختراع العلمى.

وعليه إذا ما هو مبرر رفض الامبريقية للمسلمات الاجتماعية؟. وتهتم الدراسات الامبريقية بالكم دون التعمق الكيفى فى دراسة الظواهر والحالات الفردية، والجماعية، والمجتمعية، لأن أنصارها لا يعتقدون فى قيم المجتمع واتجاهاته وأفكاره مع أنها تترجم فى سلوك اجتماعى يمكن ملاحظته، بقدر ما يعتقدون فى دراسة الظواهر والمواقف الاجتماعية المبنية على نتائج رقمية (كمية)، مستندين فى تفسيرهم الكمى على النسب الاحصائية كأنهم لا يعرفون أن النسبية موجودة فى العلوم وفى كل شيء يمكن دراسته، ولذلك يصح القول

أن النسبية دائمة الاحتمال فى دراسة كل الظواهر، وليست قيما مجردة يتم تفسيرها كميا دون الاهتمام بالكيف الذى تأثرت به. وتصبح النسب ثابتة كنتائج يمكن تحليل الدراسة المحدودة وفقها مع أنها متغيرة لدى الأفراد بعد اجراء الدراسة ومن وقت لآخر ومن مكان لآخر، وحسب حدوث المتغيرات أو ادخالها ولذلك تكون فى الواقع غير ثابتة.

وعليه يكون التفسير وفقها مرتبطا بالفترة التى جمعت فيها البيانات بالملاحظة، أو المقابلة، أو الاستبيان. ومباشرة بعد ذلك يحدث التغير فى النسب بين الأفراد وفى مجمل الدراسة حتى ولو كررنا نفس الدراسة مع نفس الأشخاص، ولأن الباحث يعتمد فى دراسته على نسبة الفاقد أو الاجابات غير المحددة وفق قولبة الباحث لأسئلة الاستمارة أو عدم انتباهه للسلوك فى لحظة من لحظات المشاهدة، فيغفل أو يشاهد ما وقع أو لم يقع وبالتالى دائما يجد التبرير للفاقد، وكلما تكررت الدراسة وضع نسبة للخطأ، وهكذا تتكرر نسب الأخطاء المقبولة، والتى لو جمعت لأصبحت نسبا غير مقبولة نتيجة تكرار الدراسة وتكرار نسبة الأخطاء فيها، وعلى ذلك إذن يظهر الشك فى نتائج الدراسات الامبريقية لاعتمادها على نسبة الخطأ فيها.

ويثق الامبريقيون فى دراستهم الاجتماعية كثيرا، وكأنها قائمة على التجريب المختبرى الذى يمكن تكراره والتحكم فى مقاييسه وضبطه والذى لا يمكن أن يتحقق فى العلوم الاجتماعية لعدم القدرة على اخضاع الانسان للضبط المختبرى لأنه متكون من أحاسيس ومشاعر ووجدان وملكات تتفاعل وتتغير من حين لآخر فى صور سلوكية ميزته فى الخلق عن بقية الكائنات.

وللاحصاء أهمية فى التعداد وقياس النزوع والتشتت وتحديد النسب المؤثرة والمقبولة إلا أن الاعتماد عليه فى دراسة الانسان واتجاهاته، ومواقفه الاجتماعية والشخصية وسلوكه ومشاعره وعواطفه مسألة غير موفقة.

واعتماد الامبريقيين عليه في دراسة ذلك ترتقى به الى مستوى المنهج وهو ليس كذلك باعتباره وسيلة أو أداة ليس إلا.

إن للقياس والموازين أهمية فى طرق البحث الاجتماعى فى التحليل والتطوير والتراكم المعرفى، مع العلم أنها نتائج سابقة أو مسلمات اجتماعية تستند على العرف والدين والقيم والقوانين الاجتماعية الناتجة عن التراكم الحضارى والثقافى وتاريخ الأمم والشعوب.

وبناء على ذلك يبرز التناقض الامبريقى بقبول أهمية المقاييس التى هى نتائج لماضٍ وتنظير اجتماعى مشترك من جهة وعدم تسليمه بالآراء والاتجاهات والأفكار من جهة أخرى مع أنها مصدر القياس، وفى مثل هذه الحالة كيف تقبل الامبريقية إجراء الدراسات الميدانية الحاضرة بمقاييس أحيانا تراثية؟.

الأمبريقية والتاريخ :

لقد تبنى الامبريقيون عدم الاعتماد على التاريخ أو الماضى استنادا على عدم اثبات صحته وكأن حاضرهم مستمر ولن يقع فى خانة الماضى. وبما أن للزمن مسلمات الوقوع فى الماضى فإن ثقة الامبريقيين واعتمادهم على دراسة الحاضر ستكون فى مهب الريح لأن معلوماتهم وعلومهم لا يمكن اعادتها ولا يمكن التأكد من صحتها كما وهمواء نتيجة وقوعها فى زمن الشك الذى ستقع فيه حسب مفاهيمهم حتى وان كانت على صواب. وبما أن العلم ليس ملكا لأحد فلا يحق لأحد أن يصدر عليه حكم الادانه. ولكن إذا أخطأ البعض فى استعمال أحد المناهج فإن نتيجة ذلك يلام عليها الباحث وليس التاريخ الذى هو صناعة الناس ورصيدهم القيمى بما فيه من قصص وعبر ودراسات ومواقف حضارية وثقافية على مستوى الأفراد والجماعات

والمجتمعات وحتى العلوم الطبيعية المعتمدة على التجريب والتشريح المختبرى تعتمد على أهمية التاريخ فى دراسة الحاضر، فعلم الجينات أثناء دراسته لحالة فردية أو جماعية يستند على الماضى المتعلق بها لمعرفة أسبابها وتشخيصها ومحاولة علاجها.

وإذا كان علم الطب لا يتعامل مع المريض بمنعزل عن تاريخه المرضى، فكيف لعلم الاجتماع الامبريقى ألا يهتم بالتاريخ فى الدراسات الاجتماعية والانسانية والذى يشكل الجزء الأكبر من أسباب الظواهر والمواقف والاتجاهات؟. وإلا فما عليهم إلا الارتقاء الى اكتشاف أدوات تمكنهم من اخضاع الانسان وتنشئته الاجتماعية الى المختبرات والمعامل التجريبية للتحكم فيها وتحديد قياساتها بدقة. مع إمكانية اخضاعها للاختبارات المتكررة أو الاعتراف بأن دراسة الفرد والجماعة والمجتمع علميا لا تتم إلا بمعرفة الماضى المكون له.

وإذا تساءل غيرنا لماذا التناقض الامبريقى من حيث رفض التاريخ والتنظير من جهة، ومن جهة أخرى يشترط الاطلاع على الدراسات السابقة أثناء اعداد استمارات الاستبيان والمقابلة فى الدراسات الميدانية؟. تكون الاجابة جدلا بماذا نجيب عليهم؟. أم يكتفى البعض باجابة وليم اسحق توماس الذى يرى أهمية الربط بين الجوانب النظرية واتجاهات الأفراد والجماعات والمجتمعات وبين القيم الاجتماعية ذات المضمون الامبريقى بتأكيد الصلة بين الاتجاهات الذاتية والقيم الموضوعية المتمثلة فى السلوك.

وبما أن مرتكز الدراسات الامبريقية المشاهدة الحاضرة فهل ما يشاهده الباحث فى حاضره أفضل ما وصلنا اليه أو وصل الينا؟. وهل دراسة الحاضر تعبر عن أفضل واقع اجتماعى مدروس؟. أجاب على هذا السؤال

الفين جولدن منذ زمن بقولـه: (إن الحالـة الحاضرة ليس بالتـأكيد أفضل مـا نتصوره)(1). ولقد تـأثر معظـم علمـاء الاجتمـاع بفلسـفات واتجاهـات سياسية شرقية أو غربية وانتقد بعضهم بعضا وكأن الناقد على صـواب والمنتقد علـى خطأ وكل منهم يتعلق بالموضوعية كمشجب مهتز علـى خيط رفيع لا يحمـل الثقل الموضوع عليه.

لذلك إن المنحى السياسى قد ينحـرف بـالعلوم الانسـانية والاجتماعيـة عن مهامها الأساسية خاصة وأن بعض السياسيين قد يتعمدون طمس المـاضـى لمـا فيـه مـن ابطـال وقـادة عظمـاء ومفكريـن وفلاسـفة لأسباب (شـخصـانية) (أنانيـة) وهـى ابـراز العظمـاء قد يطمـس أهميـة المسيطرين الحـاليين علـى السياسـة وأدوارهـم التـى لا يستوعبها التـاريخ. وبمـا أنهـم متعمـدون اظهـار أنفسهم وبدون قدرات فما عليهم إلا طمـس المـاضـى وابطالـه وحجـب حقائقـه التى قد يستفيد منها البحاث والدارسون والتى هى هامة لهم بقدر ما يفيدوا بهـا المجتمع، وبما يطور وينمى المعـارف عندهـم، ويكـون التـاريخ ملكـا عامـا لا يحرم أحد منـه، وحتـى لا يكـون علـم الاجتمـاع سـاذجا يقتصـر علـى دراسـة ونتائج وقتيه (آنية) لا أصالة فيها، عليه أن يستقرئ التاريخ ويستنبط منه العبر. وحتى لا يلحق العيب بعلم الاجتماع ينبغى ألا يتكىء علـى العكـاز الامـبريقى وهو فى مرحلة الشباب بل عليه أن يتجه الى العـلاج الطبيعـى، ليقـوى بنيتـه، ويعتمـد علـى مكوناتـه ليقدم الأشـياء علـى حقيقتهـا ويـترك العكـاز للهرميـن والعجزة والمعاقين لضعـف أو عجـز بعـض أجهزتـهـم الطبيعيـة والذيـن ليـس عليهم حرج. وأن يتحول العكاز الى عصـى فى يـد قويـة تطـول مـن يريـد أن يشوه التاريخ ويفتح المجال أمام مستقبل معرفى جديد.

---

(1) محمـد عبدالله ابـو علـى، مـدارس اجتماعيـة. الاسكندرية: الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب، الطبعة الأولى، 1978م، ص 339.

وتعتبر الامبريقية أحد اتجاهات علم الاجتماع الامريكى المتكون من الانثروبولوجية، والتحليل النفسي، والاتجاه الامبريقي والاتجاه النظرى، ودراسة الجماعات، التي اهتمت بها مدرسة القياس الاجتماعى ومدرسة المجال. ولأن فلسفة قيام الدولة الامريكية لم تتحقق نتيجة نمو اجتماعى طبيعي لأمة يربطها الأصل (الدم) الواحد، بل تكونت نتيجة هجرات متعددة ومختلفة الجنسيات أى مختلفة الأصل، فيجوز أن بعض علماء الاجتماع (الامبريقيين) قد تأثروا بهذا المنحى السياسى الذى جعلهم يبتعدون عن التأصيل والتاريخ الذى يعتمد على حضارات سادت وانتهت ولم يكن للامريكان مكان فى تصدرها، مع أنهم نتاج ذلك التراكم مما جعل المتتلمذين عليهم متأثرين بهذا الاتجاه. وقد تنقصهم المعرفة التاريخية والفهم الفلسفى والوضوح التصورى، فتاهوا كما يقول محمد عبدالله ابو على فى لغة فنية لا معنى لها وأساليب سطحية وفكر ساذج لم يتضح بعد(2).

فانقسم المهتمون بعلم الاجتماع الى قسمين: الأول يعتقد بأن علم الاجتماع ينبغى أن يكون كميا. والثانى يعتقد فى التفسير الكيفى وكأن علم الاجتماع لم يكن وحدة واحدة فى فلسفته (مبادئه وغاياته).

ومع كل ما تقدم يعتبر الاتجاه الامبريقى جزءا من التاريخ لأن مشاهدة ما يحدث وتسجيله بعيوب وسيلة المشاهدة والذى سيتراكم ويصبح جزءا من التراث، لا يخرج عن التاريخ، لأن التاريخ هو تسجيل كل ما يحدث، ليمد الأجيال والبحاث والدارسين بزادهم العلمي والثقافي. وهو الذى يحتوى على الأفكار والدلائل المادية التى يقتصر عليها نظر الامبريقيين بحجة ثقتهم فى وجودها ماثلة أمامهم، فى الوقت الذى لم يرتق فكرهم بأن إثبات الوجود ليس

---

(2) المرجع السابق ، ص 224.

به بل بالعقل المبرهن عليه بدلائل وجوده، فـإذا أردنـا اثبـات العـالم كلـه، فلـن يكون اثباته بالوجود المادى فقط بل وجوده كدلاله بالعقل الذى ليس هو (المـخ والدماغ المادى فقط) بل هو تلك القدرات غـير المنظـورة التـى تستطيع ربـط العلاقات بين الأشـياء فإذا قلنا (5 ليمـونات ناقص2ليمـونتين تساوى3) فـإننا سواء أحضرنا الخمسة ليمونات أو لم نحضرها فإننا متأكدون بـأن 5 - 2 = 3 بدون احضار الليمون وإلا ستصبح العلوم الرياضية تحـل مسـائلها بالرافعـات إذا اشترطت كما يشترط الامبريقى مشاهدة مكونات العمليات الرقمية.

وبما أننا نعرف أن الذئب طبيعيا يأكل الخروف فـلا ضـرورة لاثبـات ذلك أمام الامبريقى باحضار خروف وذئـب لاجـراء التجربـة أمامـه ليسـتطيع مشاهدتها، إنـها مسلمات الوجود والتوازن الطبيعى.

المصادر والمراجع العربية

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ إمام عبد الفتاح، توماس هوبز فيلسوف العقلانية. بيروت : دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.

3 ـ انيت قريت، فن المقابلة . "مبادئه وطرقه". (ترجمة لجنة من المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالاسكندرية) القاهرة : دار المعارف بمصر، 1958.

4 ـ ابراهيم ابولغد، والويس كامل مليكة، البحث الاجتماعى مناهجه وادواته. سرس الليان : مركز التربية الاساسية فى العالم العربى، 1959.

5 ـ احمد بدر، اصول البحث العلمى ومناهجه. الكويت : الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات، 1979.

6 ـ احسان محمد الحسن، الاسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعى. بيروت : الطبعة الثانية، دار الطليعة، 1986.

7ـ الموسوعة الفلسفية. وضع لجنة من العلماء الأكاديميين السوفياتيين، اشراف : م. روزنتال، ب. يودين. " ترجمة سمير كرم " بيروت : دار الطليعة، الطبعة الخامسة، 1985.

8 ـ ت. ج. أندروز، مناهج البخث فى علم النفس. ترجمة يوسف مراد، القاهرة : الطبعة الثانية، دار المعارف، 1983.

9 ـ جون. ب. دكنسون، " العلم والمشتغلون بالبحث العلمى فى المجتمع الحديث " عالم المعرفة، ترجمة شعبة الترجمة باليونيسكو، العدد 122.

10 ـ جوزيف يوخينسكى، مدخل الى الفكر الفلسفى. ترجمة محمود حمدى زقزوق، القاهرة : الطبعة الاولى، مكتبة الانجلو المصرية، 1973.

11 ـ حسن الساعاتى، علم الاجتماع الخلدونى، " قواعد المنهج " بيروت : دار النهضة العربية، 1981.

12 ـ حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية. " نسق منهجى جديد "، بيروت : دار النهضة العربية، 1982.

13 ـ حسن عثمان، منهج البحث التاريخى. القاهرة : الطبعة الخامسة، دار المعارف، 1991.

14 ـ سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع. بيروت : الطبعة الاولى، دار الطليعة، 1986.

15 ـ سمير نعيم، المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية. القاهرة : الطبعة الخامسة، المكتب العربى للاوفست، 1992.

16 ـ شرح ابن عقيل. الجزء الاول، المكتبة المصرية، بيروت، 1988.

17 ـ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة. بيروت : دار مكتبة الهلال، 1983.

18 ـ عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون. بيروت : دار الكتاب اللبنانى، المجلد الاول، 1986.

19 ـ عبدالرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة. بيروت : الطبعة الاولى، الجزء الاول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984.

20 ـ عبدالله عبد الدائم، التربية التجريبية والبحث التربوى. بيروت : الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، 1979.

21 ـ عقيل حسين عقيل، واخرون، دراسة ميدانية عن مستوى التحصيل لطلبة التعليم المتوسط ببلدية طرابلس. اللجنة الشعبية للتعليم، 1989.

22 ـ عقيل حسين عقيل. الاصول الفلسفية لتنظيم المجتمع الجماهيرى. طرابلس : جامعة الفاتح، 1992.

23 ـ عمر التومى الشيبانى، مناهج البحث الاجتماعى. طرابلس : الطبعة الثانية، الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، 1975.

24 ـ على اومليل، الخطاب التاريخى. " دراسة لمنهجية ابن خلدون " بيروت : الطبعة الثالثة، دار التنوير، 1975.

25 ـ على زيعور، مذاهب علم النفس. بيروت : الطبعة الثالثة، دار الاندلس، 1980.

26 ـ عبد الباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، 1975.

27 ـ غاستون باشلار، الفكر العلمى الجديد. ترجمة عادل العوا، بيروت : الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990.

28 ـ فوز طه ابراهيم، ورجب احمد الكلزة، المناهج المعاصرة. الاسكندرية : الطبعة الرابعة، منشأة المعارف، 1990.

29 ـ كارل بوبر، منطق الكشف العلمى. ترجمة ماهر عبدالقادر، بيروت : دار النهضة العربية.

30 ـ لسان العرب المحيط . للعلامة ابن منظور، بيروت : دار لسان العرب.

31 ـ ماهر عبد القادر محمد، المنطق ومناهج البحث. بيروت : دار النهضة العربية، 1985.

32 ـ ماهر عبدالقادر محمد، فلسفة العلوم. " المشكلات المعرفية "، بيروت : دار النهضة العربية، 1984.

33 ـ مصطفى عمر التير، " نحو تحسين جودة بيانات المسح الاجتماعى " دراسات عربية، المجلد 22، العدد 5، 1986، ص 55 ـ 66.

34 ـ مصطفى عمر التير، مساهمات فى اسس البحث الاجتماعى. بيروت : الطبعة الاولى، معهد الانماء العربى، 1989.

35 ـ معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعى المعاصر. بيروت : دار الافاق الجديدة، 1982.

36 ـ معن خليل عمر، الموضوعية والتحليل فى البحث الاجتماعى. بيروت : دار الافاق الجديدة، 1983.

37 ـ محمد الجوهرى، وعبدالله الخريجى،، مناهج البحث العلمى. " طرق البحث الاجتماعى " القاهرة : الطبعة الثانية، مطابع سجل العرب، 1980.

38 ـ محمد عبدالله ابو على، مدارس اجتماعية. الاسكندرية : الطبعة الاولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978.

39 ـ محمد فرج الملهوف، " التنمية الاجتماعية فى الوطن العربى " مجلة الفكر الجماهيرى، العدد الاول، 1984، ص 172 ـ 185.

40 ـ محمد طلعة عيسى، تصميم وتنفيذ البحوث الاجتماعية. القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة، 1972.

41 ـ محمد على محمد، مقدمة فى البحث الاجتماعى. بيروت : دار النهضة العربية، 1982.

42 ـ محمد على عمر، مناهج البحث فى الجغرافيا بالوسائل الكمية. الكويت : الطبعة الثالثة، وكالة المطبوعات، 1978.

43 ـ محمد سلامه محمد، مدخل علاجى جديد لانحراف الاحداث. الاسكندرية، الطبعة الثانية، المكتب الجامعى الحديث، 1989.

44 ـ محمود حسن، مقدمة الخدمة الاجتماعية. بيروت : دار النهضة العربية.

45 ـ محمد وقيدى، بناء النظرية الفلسفية. " دراسات فى الفلسفة العربية المعاصرة " بيروت : دار الطليعة، 1990.

46 ـ محمد عاطف غيث، دراسات فى علم الاجتماع " نظريات وتطبيقات "، بيروت : دارالنهضة العربية، 1985.

47 ـ محمود حمدى زقزوق، مدخل الى الفكر الفلسفى. القاهرة : الطبعة الاولى، مكتبة الانجلو المصرية، 1973.

48 ـ ميخائيل ابراهيم اسعد، فنون البحث فى علم النفس. بيروت : الطبعة الاولى، دارالافاق الجديدة، 1988.

49 ـ مجموعة من الاساتذة، دراسة جرائم العنف ببلدية طرابلس. طرابلس : اللجنة الشعبية للعدل بالبلدية، 1986، ص 67، 68.

50 ـ و. ا. ب. بفردج، فن البحث العلمى. ترجمة زكريا فهمى، بيروت : الطبعة الخامسة، دار اقرا، 1992.

المراجع الاجنبية

1- Bancroft, W.D. The methods of research. Rice Inst. Pamphlet XV, 1928.

2- Homer. Hockett , the critical. methed in historical research and wziting. New yourk : the mac millan co , 1968.

3- R. Merton , notes on problem finding in sociology , in sociology today , 1959

4- May Broding in the philosophy of the sochal sciences. New yourk , the macmillan company. 1968.

5- Smith, Ed. D. quantitative methods of research in education, college and university press ,1975.

6- Whewell, W. History of the inductive sciences. Vol, 11.

مجتويات الكتاب

الفصل الرابع
المنهج المسحى

الفصل الخامس
المنهج التجريبى

الفصل السادس
منهج دراسة الحالة

الفصل السابع
الإستبيان

الفصل الثامن
الملاحظة والمشاهدة

الفصل التاسع
المقابلة



الفصل العاشر
العينة

الفصل الحادى عشر

تصنيف وعرض المعلومات والبيانات وتحليلها وتفسيرها

الفصل الثانى عشر

الاتجاه الامبريقى بين النقد والمسلمات